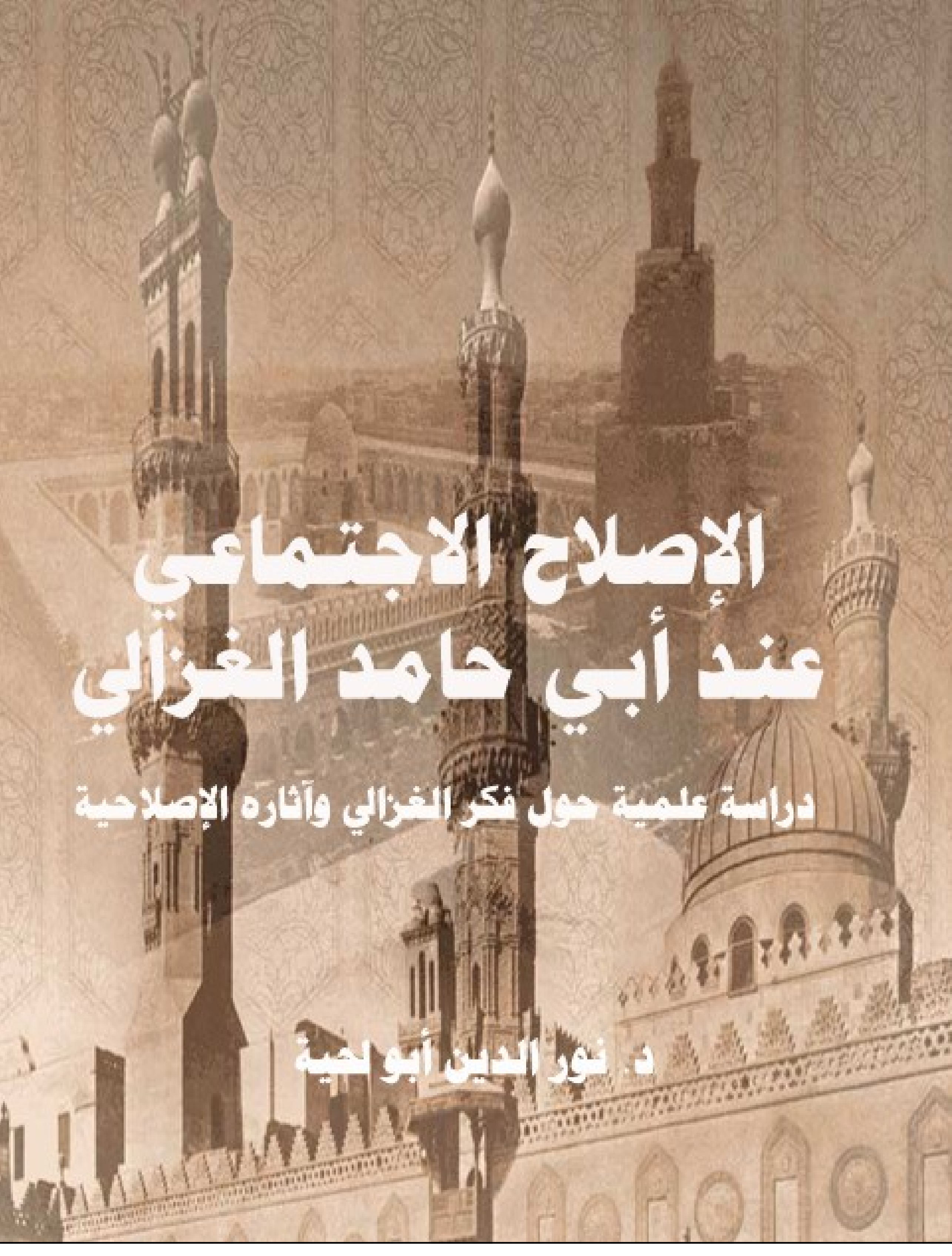


الإصلاح الاجتماعي عند أبي حامد الغزالي

دراسة علمية حول فكر الغزالي وآثاره الإصلاحية

د. نور الدين أبو لحية

الإصلاح الاجتماعي
عند أبي حامد الغزالي

دراسة علمية حول فكر الغزالي وآثاره الإصلاحية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1437 هـ -2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس المحتويات

مقدمة

لقد لقيت آراء الغزالي وتوجهاته الفكريـة اهتمـام الكثـير من الدارسين منذ بدايـة هـذا القـرن، ابتـداء من منصـور فهمي وزكي مبـارك وسـليمان دنيـا وغـيرهم، بحيث شـملت بحـوثهم جوانبـه العقدية والفلسفية والصوفية والأخلاقية وغيرها.

ومن التساؤلات الهامة التي أفرزتها تلك الدراسات ما يتعلـق بتأثر الغزالي الاجتماعي، وهل كان مـا رآه من آراء، أو مـا اختـاره من اتجاهات، أو ما قام به من أعمال ترفـا فكريـا وبحثـا نظريـا لا صلة له بواقعه، فهو يعيش بفكره في عصر غير عصره وبيئـة غـير بيئته، أم أنها نتيجة لبيئته، وأثر لها، ولكن من جانبهـا السـلبي فهي تمثل العصر الذي أنتجها، ومـا الغـزالي بـذلك إلا اسـقاط لعصـره، منطو فيه.. أو أن الغزالي ـ كما اعتبر نفسه ـ مجدد ديني، ومصلح اجتماعي، اطلع على ما في واقعه من علل وعمل لاصلاحه، وكـان له دور إيجابي في ذلك؟

وقد كانت الإجابة على هذه التساؤلات مختلفة لـدى البـاحثين فبينما نجد من يعتبره مجدد قرون لا قرن واحد، ومصـلح أجيـال لا جيله فقط، نرى من يعتبره سلبيا منطويا غارقا في حلوته، واذا ما خـرج الى المجتمـع فهـو ينشـر أفكـاره عن الزهـد وبغض الـدنيا والفقر مما يزيد في تخلف المجتمع وإفساده.

وقد رأينـا أن الإجابـة الموضـوعية على هـذه الأسـئلة تتطلب البحث في علاقة فكر الغزالي بالإصـلاح الاجتمـاعي، لا في علاقـة شخصه به، وأن المرجع في ذلك كتبه، لا حياته، لأن الـذين اتهمـوه بالسـلبية انطلقـوا من توجهـه الصـوفي، وركونـه إلى العزلـة، ولم ينظروا إلى صلة ماكتبه في عزلته بالمجتمع سلبا أو إيجابـا، فقـط كـان مـوقفهم منـه نابعـا عن موقـف مسـبق من التصـوف وحكم مسبق على رجاله.

ولذلك اخترت (الإصلاح الاجتماعي عند الغـزالي) عنونـا لهـذا البحث مدفوعا بما يلي:

1 ـ أن معظم الدراسات المتعلقة بالإصـلاح الاجتمـاعي تكـاد تقتصر على الفترة ما بين القرنين التاسع عشر والعشـرين، وعلى أشخاص معينين أو حركـات معينـة، بحيث أصـبحت هـذه الوضـيفة الأساسية في الإسلام قصـرا على مـدارس محـدودة، وهـذا غمـط

لحق كثير من رجال الإصلاح السابقين من جهـة، وتوجيـه لمسـيرة الإصلاح في إتجاه معين من جهة أخرى.

و أكبر ما يدلي به هؤلاء من حجج هو الواقعيـة الـتي يـدعمها قرب الزمان، مع أن كثيرا من الأنظمة الحديثة ترجـع منابعهـا إلى أسس نظرية أو فلسفية قديمة.

2 ـــ أن مجتمعنـا المعاصـر بسـبب مـا سـلطت عليـه من مؤامرات استهدفت أصـالته، أو مـا حـوى من متناقضـات شـوهت خصائصه، يشبه في كثير من نواحيه مجتمع الغـزالي، نلاحـظ ذلـك سواء في كتابات الغزالي أو كتابات المـؤرخين لعصـره، وهـو ممـا يعطي هذا البحث بعدا واقعيا زيادة على البعد التاريخي.

3 ـــ أن الغـزالي يمثـل في تـاريخ الفكـر الإسـلامي مدرسـة شملت الكثير من الأعلام، ويحظى بشعبية قل من وصل إليهـا من العلمـاء والمصـلحين، ويشـكل منعرجـا في التوجهـات العلميـة والتربويـة امتـد إلى أجيـال كثـيرة، فلـذلك لا زال ـــ مـع كـثرة الدراسات المؤلفة حوله ـ يحتاج إلى مزيد بحث وتعمق خاصة في هذا الجانب.

4 ـــ أن تأصـيل العمـل الإصـلاحي في الميـدان الاجتمـاعي يقتضي ربطه بمصـادره الشـرعية، وذلـك يتطلب مراجعـة ماكتبـه العلمـاء والمصـلحون الـذين جمعـوا بين العلم الشـرعي كإطـار مرجعي، والنظر في الواقع ومحاولة تغييره.

5 ـــ أن أكـثر الحركـات الإسـلامية المعاصـرة انشـغلت عن الإصـلاح الاجتمـاعي بتفريـغ جهودهـا في محاولـة الوصـول الى الإصلاح السياسي، وقـد أثبتت التجـارب عقم هـذا السـبيل وعـدم جدواه.

هذه بعض الدوافع لاختيار هذا الموضوع، والذي تكمن أهميتـه في محاولة معرفـة موقـف الغـزالي من الإصـلاح الاجتمـاعي، عن طريق عرض آرائـه في ذلـك، وبيـان إمكانيـة الإسـتفادة منهـا في واقعنا.

وقد كان الاهتمام بهـذه الناحيـة من فكـر الغـزالي ضـئيلا من قبـل البـاحثين حيث انصـب التركـيز على الجـانب الفلسـفي أو الصـوفي أو العقـدي فقـط، دون محاولـة ربـط ذلـك بغرضـه الإصلاحي، بل انصـب جهـد بعضـها ككتـاب (الأخلاق عن الغـزالي) لـزكي مبـارك على إظهـار الغـزالي في صـورة المفكـر السـلبي المنطـوي على نفسـه، وقـد طغى جانبـا النقـد فيـه على البحث،

وتغلبت الذاتية على الموضوعية، وكان له أثر سلبي على الدراسات التي أتت بعده، وتأثرت بمواقفه، دون البحث في مدى صحتها.

وقد استفدنا من تلك الدراسات ـ بغض النظر عن مواقفها ـ مع ربطها بموضوع بحثنا، ولعل أهمها كتاب (الحقيقة في نظر الغزالي) لسليمان دنيا الذي وضع في حسابه عنصر الإصلاح الاجتماعي أثناء تحليله لآراء الغزالي العقدية وكتاب (الفيلسوف الغزالي) لعبد الأمير الأعسم الذي بحث في الدراسات الغزالية مصنفا لها، وكتاب (الفلسفة التوازنية القرآنية عند الغزالي) لزكريا بشير امام الذي أعاد الاعتبار لآراء الغزالي الإشراقية مع ربطها بالنصوص الشرعية، وغيرها من البحوث والدراسات.

وقد حاولت أن ألتزم في هذا البحث بالمنهج التحليلي التركيبي،حيث جمعت آراء الغزالي المتعلقة بموضوع الإصلاح الاجتماعي، ثم رددتها إلى عناصرها الأساسية، مع موازنتها بآراء غيره من المصلحين عند الضرورة، ثم التعقيب عليها بعد ذلك.

وقد جاءت الرسالة في أربعة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة.

ففي الفصل الأول درست عصر الغزالي وحياته باعتبارهما مدخلا أساسيا لفهم آرائه ومواقفه، وقد ركزت على ما يتعلق منها بالجوانب الاجتماعية.

وفي الفصل الثاني بينت تصور الغزالي العام لمفهوم الإصلاح الاجتماعي محاولا استنباط تعريف جامع لأركانه، ومن خلاله تناولت ضوابط الإصلاح الاجتماعي الشرعية حسب اجتهادات الغزالي واختياراته الفقهية.

وفي الفصل الثالث تناولت الأصوال التي اعتمد عليها منهج الغزالي في الإصلاح الاجتماعي، وهي القرآن والسنة والتصوف والعقل والثقافات الأجنبية.فقد اهتم الكثير ببيان مصادر فكر الغزالي، وكان تصنيفهم له باعتبارها، فلذلك حاولت أن أبين استمداد الغزالي من كل تلك المصادر، وأنه لا تنافر بينها، وأن الإصلاح الشامل يستدعي الجمع بينها.

وفي الفصل الرابع عرضت أسس بيناء المجتمع عند الغزالي باعتبارها الميدان الأول لعمل المصلح الاجتماعي، وقد بينت أنها تنطلق من الفرد فتربيته على الإيمان، وتؤديه بالعلوم والمعارف، وتزكية بالتربية الروحية العالية، ثم تربط بينه وبين أفراد المجتمع

بالأخوة الإيمانية، ومايصدر عنها من سلوكيات إجتماعية.
وقد رجعت لإنجـاز البحث إلى حملـة من المصـادر والمراجـع منها:
أولاـ المصادر: وهي معظم كتب الغزالي ورسائله وخاصة:
1 ـ إحياء علوم الدين وهو أهم كتبه وأجمعها لآرائه وخاصة ما يتعلق منها بالإصلاح الاجتماعي، فلذلك جعلناه مصدرنا الأساسي.
2 ـ المنقذ من الضلال، وفيه التـأريخ لفكـر الغـزالي وتطـوره وبيان موقفه من بعض القضايا المتعلقة بالإصلاح الاجتماعي.
3 ـ جواهر القرآن، وفيه بيان مواقفه من طريقة التعامل مع المصادر الشرعية.
4 ــ المستصـفى من علم الأصـول، وهـو إن كـان كاتبـا في أصول الفقه إلا أنه يؤصل كثيرا من آرائه الفقهية
وغيرها من كتب الغزالي الكثـيرة، أمـا بعض كتبـه المشـكوك في نسبتها إليه كــ(مشـكاة الأنـوار) و(الرسـالة اللدنيـة) و(روضـة الطـالبين) و(منهـاج العابـدين) و(معـارج القـدس) وغيرهـا فقـد استندت إليها واقتبست منها ما رأيته متناسـبا مـع تفكـير الغـزالي العام، والمصرح به في كتبه الصحيحة، وخاصة (إحياء علوم الدين) ومع ذلك فإن هناك من يرجح صـحة نسـبة الكثـير من تلـك الكتب إليه بأدلة لا يمكن رفضـها، ومنهم عبـد الـرحمن بـدوي، وأبـو العلا العفيفي، وسـليمان دنيـا وغـيرهم، وكلهم بـاحثون مختصـون في دراسة الغزالي.
ثانيـا ــ المراجـع: وهي الكتب الـتي رجعت إليهـا للتـأريخ، أو التعريـف، أو الموازنـة، كـالكتب التاريخيـة والإجتماعيـة والتربويـة والفلسفية بالإضافة للموسوعات والقواميس والدراسات المتعلقة بالغزالي.
والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

حياة الغزالي

اتفق المترجمون للغزالي على أن مولده كان سنة 450 هـــ، وأن مكان ولادته هو مدينة طوس، وكانت ثاني مدينة في خراسان بعـــد نيســـابور، وكـــانت تتـــألف من مـــدينتين، يقـــال لإحـــداهما (الطابران)، وبها قبر الغزالي، والثانيـة (نوقـان)، وبهـا قـبر الإمـام الرضا، وقبر هارون الرشيد إلى جواره، وقد كانت طوس في ذلك العهد مدينة كبيرة حسنة المبـاني كثـيرة الأسـواق شـاملة الأرزاق عامرة الأمكنة رائعة الجهات بهـا منـابر [1]، ولكن جحافـل المغـول دمرتهـا سـنة 607هـ تـدميرا شـنيعا، ولم يبـق منهـا إلا بعض الآثـار تشهد على ما كان فيهـا من حضـارة وعمـران، وقـد كـان لطـوس أكثر من ألف قرية. ومنها قرية الغزالي المسماة ب(الغزالة) وقـد تخرج من هذه القرى ما لا يحصى من أئمة العلم والفقه [2].

ولا تذكر لنا المصادر شـيئا ذا بـال عن أسـرة الغـزالي، وجـل ماهناك أن أباه كـان فقـيرا صـالحا لا يأكـل إلا من كسـب يـده في العمل غزل الصوف، ويطوف على المتفقهـة، ويجالسـهم، ويتـوفر على خدمتهم، ويجد في الإحسان إليهم، وأنه كان إذا سمع كلامهم بكي وتضـرع وسـأل اللـه تعـالى أن يرزقـه ابنـا، ويجعلـه فقيهـا، ويحضـر مجـالس الوعـظ، فـإذا طـاب وقتـه بكى، وسـأل اللـه أن يرزقه ابنا واعظا. قال السبكي: (فاستجاب الله دعوتيه، فأمـا أبـو حامد فكان أفقه أقرانه.. وأمـا أحمـد فكـان واعظـا تلين الصـخور الصم عند سماع تحذيره، وترعـد فـرائص الحاضـرين في مجـالس تذكيره)[3]

---

[1] محمد الحمـيري، الـروض المعطـار، تحقيـق إحسـان عبـاس، لبنـان، دار القلم، 1975، ص398، وتسمى اليوم مشهد، وهي مدينة في أقصى الشمال الشرقي من إيـران، وعاصـمة مقاطعـة خراسـان، تعـد مركـزا دينيـا مرموقـا لمشهد الرضا بها، والذي يقصـده الشـيعة من كـل مكـان، نقلا عن: د. محمـد إبراهيم الفيومي، الإمام الغزالي وعلاقـة اليقين بالعقـل، القـاهرة، دار الفكـر العربي، ص215.

[2] ياقوت .معجم البلدان، ج4، ص49.

[3] السبكي .الطبقات الكبرى، ج4، ص102 .

أما أصل أسرته، فالظاهر أنها فارسية، إذا لو كانت عربية لانتسبت إلى القبيلة التي تنتمي إليها كعادة أهل ذلك العصر، وخاصة من يقطنون بلاد العجم، ومع ذلك فقد كانت عربية اللسان كشأن معظم أهل خرسان في ذلك الوقت [1]

ويمكن تقسيم حياة الغزالي إلى أربع مراحل هي:

مرحلة الدراسة:

وتمتد هذه المرحلة إلى سنة 478هـ، أي حتى توليه التدريس بنظامية بغداد، وقد بدأ تلقي العلم في بلده، والظاهر أنه كان ما يبدأ به المسلمون جميعا، في ذلك الوقت، من حفظ القرآن الكريم، وتعلم للقراءة والكتابة، وما يتبع ذلك من نحو وصرف ولغة.

وقد ذكر السبكي قصة بداية تلقيه العلم، وهي أنه لما حضرت والده الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: (إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين، فعلمهما، ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما خلفته لهما)، فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: (اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي، فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما)

قال السبكي: (وكان الغزالي يحكي هذا، ويقول: (طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا الله) [2]

ثم قرأ، وهو في صباه، طرفا من الفقه ببلده على (أحمد بن محمد الراذكاني)[3]، وبعدها انتقل إلى (جرجان) [4]، وقد تلقى الغزالي العلم فيها عن الشيخ (أبي نصر الإسماعيلي)[5]، وعلق عنه (التعليقة) ثم رجع إلى طوس.

---

[1] شمس الدين المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (د.ط) (د.ت)، ص334 .

[2] السبكي، الطبقات الكبرى، ج4،ص102.

[3] المرجع السابق، ج4،ص102.

[4] تقع بين طبرستان وخرسان، يقول عنها ياقوت: (ليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان على مقدارها)، انظر: ياقوت ، معجم البلدان ،ج4 ،ص49.

ومن طــوس انتقــل إلى نيســابور [1]، وفيهــا التقى الغــزالي بالشخصــية الــتي كــان لهــا تــأثير كبــير في حياتــه العقليــة، وهي شخصية إمام الحــرمين (أبي المعــالي الجويــني). الــذي قــال عنــه معاصروه: (إن ما يوجد في مصنفاته من العبارات قطرة من سيل كان يجريه لسانه على شفتيه عند المذاكرة، وغرفة من بحــر كــان يفيض من فمه في مجلس المناظرة[2].

وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمــة ومن الطلبة، وكان من بين هؤلاء، بل أشــدهم ملازمــة (أبــو حامــد الغزالي) وقد بدت حينذاك ينابيع عبقريته تتفجــر عن ذكــاء شــديد، وفطــرة عجيبــة، وإدراك مفــرط، وحافظــة قويــة، وغــوص على المعاني الدقيقة، مما جعل إمام الحرمين يقول عنه: (الغزالي بحر مغدق)[3]

وقــد جــد واجتهــد حــتى بــرع في المــذهب والخلاف والجــدل والأصلين والمنطق، وشرع يصنف فيها، ويقــال: (إن الجويــني لمــا رأى كتابه المسمى ب(المنخول)، قال له: (دفنتــني، وأنــا حي، هلا صبرت حتى أموت) [4]

وقد بقي الغزالي ملازما لشيخه إلى أن تــوفي ســنة 478هــ، وبــذلك انتهى مــا يمكن تســميته بمرحلــة الدراســة، ولــو أن حيــاة الغزالي كانت كلها تعلما وتعليما.

مرحلة المناظرة والتدريس:

و تبدأ من سنة 478 هـ حين ارتحل الغــزالي إلى المعســكر ـ وقد كان ميدانا فسيحا يجوار نيســابور أقــام فيــه (نظــام الملــك) ـ وقد كــان مجلســه مجمــع أهــل العلم وملاذهم، وهنــاك، وبحضــرته نــاظر الغــزالي الأئمــة والعلمــاء، فظهــر كلامــه عليهم، فــاعترفوا بفضله، وأقروا بنبوغه، وكأن (نظام الملك) قد وجد فيه الشخصــية التي يمكنها أن تسد الفراغ الذي تشــكو منــه مدرســته في بغــداد، فأمره بالتوجه إليها، وفوضه شؤونها، فباشر إلقاء الــدرس بهــا في

---

[5] هو إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي الجرجاني، ولد سنة407هـ، وتــوفي سنة 477ه، انظر: السبكي، الطبقات الكبرى، ج4، ص294 .

[1] كانت من أشهر مدن خرسان وأجملها وأكثرها علماء حتى لقبت بعروس خرسان، انظر ، الحميري، الروض المعطار، ص588 .

[2] السبكي، الطبقات الكبرى، ج5، ص103 .

[3] المرجع السابق، ج5 ، ص103 .

[4] ابن الجوزي، المنتظم ج9، ص103.

جمادى الأولى سنة 484هـ[1].

قال (عبد الغافر الفارسي)[2] –معاصر الغزالي ــ :(وهناك أعجب الكل تدريسه ومناظرته، وصار بعد إمامة خرسان إمام العراق) [3].

وقد علت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة، وظل مقيما على التدريس ونشر العلم والفتيا والتصنيف أربع سنوات (تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال)[4]

وكان يحضر مجلسه الجلة من العلماء كابن عقيل[5] وأبي الخطاب[6] وينقلون كلامه في مصنفاتهم[7].

واهتم في هذه المرحلة –زيادة على التدريس ــ بدراسة الفلسفة، فحصلها في أقل من سنتين – مع انشغاله بتدريس ما ينوف عن ثلاثمائة من طلبة العلم[8] – وكتب فيها، ثم رد عليها، وكتب في ذلك وغيره كتبا جمة.

مرحلة العزلة:

وهي أدق مراحل حياته وأغناها وأهمها، ولولاها ما كان لأبي حامد ذلك الدور الكبير الذي قام به في الإصلاح، وقد بلغت مدتها إحدى عشرة سنة ابتداء من ذي القعدة سنة 499هــ، كما نص

---

[1] السبكي، الطبقات الكبرى، ج4، ص107 .

[2] تعتبر ترجمة عبد الغافر الفارسي التي أودعها كتابه (السياق في تاريخ نيسابور) أول ترجمة للغزالي، وهذا الكتاب ضائع، المتبقي منه نقله ابن عساكر في (تاريخ دمشق) وعنه نقل السبكي وكل المترجمين (انظر: د.عبد الأمير الأعم، الفيلسوف الغزالي إعادة تقويم لمنحى تطوره الروحي، ط2، بيروت: الأندلس ،1981، ص12). وتمتاز ترجمته ببيان موقف المعاصرين للغزالي منه، سواء المادحين أو الطاعنين.

[3] السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص107.

[4] المرجع السابق، ج4 ،ص107.

[5] هو أبو الوفا علي بن عقيل بن محمد [431 ـ 513هـ]. كان شيخ الحنابلة في بغداد وكان واعظا عظيما التدين يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب ،انظر: ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج11 ،ص677 .

[6] هو محفوظ بن أحمد الكلواذي ،أحد أئمة الحنابلة في الأصول والفروع ، توفي سنة 510ه، انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4 ،ص69.

[7] ابن الجوزي المنتظم، ج9، ص69 .

[8] الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص93.

على ذلك في (المنقذ من الضلال)[1]

أما سببها فقد ذكرها الغزالي في كتابه القيم (المنقذ من الضلال)، وهو من أهم الوثائق المبينة لحياته الفكرية والروحية ،ولذلك سنتخذه المصدر الوحيد لمعرفة سبب هذه العزلة:

لقد مر الغزالي نتيجة لعقله الوقاد من جهة ،وللبيئة والعصر الذي عاش فيه من جهة أخرى إلى مرحلة شك استغرقت فترة ذات بال من حياته.

قال الغزالي –بعد أن ذكر اختلاف الفرق والملل ـ : (ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور)[2]

وكان لذلك يتفحص عقيدة كل فرقة، ويستكشف أسرار كل طائفة حتى انحلت عنه رابطة التقليد، وانكسرت عليه العقائد الموروثة ،وهنا بدأت مرحلة شك زجت به إلى السفسطة[3] بحكم الحال لا يحكم اللسان والمقال، ولكن الله خلصه منها بنور الإيمان الذي قذفه في قلبه لتبدأ مرحلة الشك الثانية.

قال الغزالي: (ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية) [4]

وقد بدأ يعلم الكلام فحصله، وصنف فيه، ولكنه وجده ــ كما يذكر ــ علما وافيا بمقصودهم غير واف بمقصوده ،فانتقل إلى الفلسفة فبحث فيها، وسرعان ما بان له عوارها، وظهر له أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات، فرد عليهم[5]، وانتقل إلى مذهب الباطنية فوجدهم لا حاصل عندهم، ولا طائل لكلامهم، فرد عليهم[6]، ثم

---

1) المرجع السابق، ص140.

2) الغزالي، المنقذ من الضلال ، ص81.

3) مأخوذ من اللفظ اليوناني [سفرما]، ويعني التميز بالمهارة والحذق، ثم أخذت بعد ذلك تدل على القول المموه والقياس الخادع الذي يلتمس منه التلبيس على الناس والتغرير بهم، انظر ،مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ص 11.

4) الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص81 .

5) المرجع السابق، ص87 .

6) المرجع السابق ،ص92 .

أقبل بهمته على طريق (الصوفية)، وقد بدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي[1]، وكتب (الحارث المحاسبي)[2]، والمتفرقات المأثورة عن (الجنيد)[3] و(الشبلي)[4] و(البسطامي)[5]، فظهر له أن أخص خصائصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات[6]، ثم قارن ما علمه بما هو فيه من جاه.

قال معبرا عن حاله تلك الفترة: (وكان قد ظهر عندي أنه لامطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل واللواحق)[7]

ولكنه لاحظ أحواله فوجدها منغمسة في العلائق، وقد أحدقت به من كل الجوانب، ولاحظ أعماله، فإذا هو مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، وبحث في نيته فوجدها غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت.

ويصور لنا حاله في ذلك الحين بقوله:(فتيقنت أني على شفا جرف هار ،وأني أشفيت على نار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال)[8]

---

1) هو محمد بن عطية الحارثي العجمي (ت386ه)، رجع الغزالي إلى كتابه (قوت القلوب) كثيرا في (الإحياء) انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص210.

2) هو الحارث بن أسد المحاسي (ت243ه) ، رجع الغزالي إلى كتبه، وخاصة (الرعاية لحقوق الله) كثيرا في (الإحياء)، انظر :أبو نعيم، حلية الأولياء، ط1، القاهرة : مطبعة السعادة، ج10، ص74.

3) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت298هـ) أصله من نهاوند، لقبه المتأخرون [سيد الطائفة]، و[شيخ المشايخ]، و [طاووس الفقراء]، انظر: أبو نعيم ،حلية الأولياء، ج10، ص255 .

4) هو أبو بكر الشبلي (ت334هـ) صحب الجنيد، وكان شيخ وقته علما وحالا وظرفا، وكان شديد التعظيم للشريعة، انظر :أبو نعيم ،حلية الأولياء، ج 10 ،ص366.

5) هو طيفور بن عيسى (ت261هـ) من كبار الصوفية أصحاب الأحوال ،انظر أبو نعيم، حلية الأولياء، ج10 ص33.

6) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص123 .

7) المرجع السابق، ص124.

8) الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص124.

وبقي يتردد بين تجاذب شهوات الـدنيا ودواعي الآخـرة قريبـا من ستة أشهر، وهو حينذاك يقدم رجلا ويؤخر أخرى إلى أن أقفل على لسانه، وضعف عن التدريس.

لقد كان منادي الإيمان يناديه: (الرحيل الرحيل، فلم يبـق من العمر إلا القليل، وبين يديك السـفر الطويـل، وجميـع مـا أنت فيـه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تسـتعد للآخـرة الآن فمـتى تستعد؟ وإن لم تقطع هذه العلائق، فمتى تقطع؟)[1]

وهنا، ولما أحس بعجـزه، وسـقط بالكليـة اختيـاره التجـأ إلى الله تعالى، فسهل على قلبه العزلة.

هذا هو السبب الذي ذكـره الغـزالي، ولا نـرى فيـه أي غرابـة تجعلنا ننكره أو نحيـد عنـه، فـاعتزال أهـل العلم أو السـلطان عن الجـاه وأسـبابه طلبـا للآخـرة شـيء عـادي، ونماذجـه في التـاريخ كثيرة.

وقد ذكر الزبيدي سببا يؤيد ما ذكره الغزالي فقال: رأيت في بعض المجامع أن سبب سياحته وزهده أنه كان يوما يعـظ النـاس، فدخل عليه أخوه أحمد، فأنشده:

أخذت بأعضادهم إذا　　وخلفـك الجهـد إذ أسـرعوا

وأصبحت تهدي ولا　　وتسـمع وعظـا ولا تسـمع

فيا حجر الشح حتى　　تسـن الحديـد ولا تقطع

قال: فكان ذلك سببا في تركه علائق الدنيا[2].

ومع ذلك فقد اختلفت آراء الباحثين في سبب عزلتـه، فمنهم من أعاد ذلك إلى مرض أصيب به، وقد فسـره ديـورانت على أنـه انهيار في قواه العقلية[3]، وفسـرة عمـر فـروخ على أنـه الكنظ[4]، ومنهم من أرجع ذلك إلى خطر الباطنية، يقـول صـلاح الـدين عبـد

---

[1] المرجع السابق، ص124.

[2] الزبيدي، إتحاف السـادة المتقين شـرح أسـرار علـوم الـدين، دط، دت، 1/8.

[3] وول ديـورانت، قصـة الحضـارة، ترجمـة زكي نجيب محمـود، القـاهرة، 1950، مج4، 2/363.

[4] هو مرض وراثي من أعراضه هبوط في القوى الجسمانية والعقلية، ينتج اضـطرابا نفسـيا (انظـر: د. عمـر فـروخ، رجـوع الغـزالي إلى اليقين [ضـمن كتـاب: مهرجـان الغـزالي، إشـراف المجلس الأعلى لرعايـة الفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، مطابع كونستا توماس وشركاه]، ص307)..

اللطيـف: (ولعـل الباطنيـة أحـرجت موقفـه فهددتـه، ولـوحت لـه بالحســـاب على مـــافرط في حقهم في الثـــورة على الخلافـــة العباسية، وتفويض دعمائمها، فضاق به المقام في بغداد)[1]

وقد أشار الغزالي إلى أن معاصريه – أيضا – قـد احتـاروا في سبب عزلته (وارتبكوا في الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان الإستشعار من جهة الولاة، وأما من قـرب من الـولاة وكان يشاهد إلحـاحهم في التعلـق بي ولاانكبـاب علي، وإعراضـي عنهم، وعن الالتفـات إلى قـولهم، فيقولـون: (هـذا أمـر سـماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم) [2].

هذا عن سبب عزلته، أمـا حالـه فيهـا فيمكننـا تقسـيم عزلتـه بحسه إلى مرحلتين:

العزلة الأولى:

ودامت مايقرب السنتين لا شغل له فيهـا إلا العزلـة والخلـوة والرياضة اشـتغالا بتزكيـة النفس وتهـذيب الأخلاق [3]، وكـان يكـثر الجلوس في زاوية الشيخ (نصر المقدسي) بالجامع الأموي، والتي صارت تعرف ب(الغزاليـة)[4]، وكـان يصـعد أحيانـا منـارة المسـجد الأموي، ويعتكف فيها، ثم رحل منها إلى (بيت المقدس) يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه[5].

وقد ذكر عتبد الغافر الفارسي – حكايـة عن الغـزالي – حالـه في تلك الخلوات، فقال: (وحكى لنا في ليال كيفية أحواله، وابتداء ماظهر له من سلوك طريق التآلـه)[6]، وكـان من جملـة ذلـك: أنـه ابتدأ بصحبة (الفارمذي)[7]، وامتثـل ماكـان يشـير عليـه من القيـام بوظائف العبـادات، والإمعـان في النوافـل، واسـتدامة الأذكـار، ثم ذكـر أنـه راجـع العلـوم وخـاض في الفنـون وعـاود الجـد في كتب العلوم الدقيقة، واقتفى تأويلها حتى انفتحت له أبوابها، ثم ذكر أنه

---

[1] د.صـلاح الـدين عبـد اللطيـف النـاهي، الحوائـد من آراء حجـة الإسـلام الغزالي. ط1، بيروت: دار الجيل، دار عمار 1407ه، 1987م، ص45.

[2] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص126 .

[3] المرجع السابق، ص126.

[4] السبكي، الطبقات الكبرى، ج4، ص104 .

[5] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص126.

[6] السبكي الطبقات الكبرى، ج4، ص108 .

[7] هــو أبــو علي الفارمــذي الطوســي، من أعيــان تلامــذة أبي القاســم القشيري، توفي بطوس سنة 497ه، انظر: الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، ج1، ص19.

فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء، وحمله على الإعراض عما سواه حتى ارتاض كل الرياضة [1]. وقد ذكر الزبيـدي للغزالي شيخا آخر في التربية – زيادة على ما ذكره عبد الغـافر – هو (يوسف النسلج)[2]

العزلة الثانية:

ودامت ما يقارب عشـر سـنوات، وتتمـيز عن الأولى بأنـه لم يكن معتكفا فيها اعتكافا كليا، وإنما هو يدرس أحيانا ويعظ، ويسبح في الأرض، ويخالط الناس، ويسعى في مهمات أهلـه، ولكنـه مـع ذلك ينقطع أحيانا للخلوة[3].

وللمـترجمين لـه في هـذه المرحلـة زيـادات على مـاذكره الغزالي، منها سفره إلى الإسـكندرية، وعزمـه على ركـوب البحـر للقاء (يوسف بن تاشفين)[4] لمـا بلغـه من عدلـه، لكنـه عـدل عن ذلك حين بلغه موته[5]، وهي زاوية منحولة للأدلة التالية:

1 ـ أن الغزالي بعـد أن ذكـر رحيلـه إلى بيت المقدسـن ذكـر بعده خروجه إلى الحجاز لزيارة مكة والمدينة.

2 ـ أن عبد الغافر الفارسي، معاصر الغزالي، لم يـذكرها في ترجمته، مع اهتمامه برحلاته وتفاصيلها.

3 ـ أن (يوسف بن تاشـفين) تـوفي سـنة 500 هــ، والروايـة المــذكورة تفــترض أن الغــزالي كــان في الإســكندرية ســنة 500هـ ،مع أن جمع الروايـات تؤكـد أنـه كـان في تلـك السـنة في خراسان.

يقول الغزالي – بعد ماذكر عزلته الأولى ـــ : (ثم تحـركت بي داعيـة فريضـة الحج، والاسـتمداد من بركـات (مكـة) و(المدينـة)، وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة (الخليل) –صلوات الله عليه ـ فسرت إلى الحجاز) [6].

وبعدها سار عائـدا إلى وطنـه، وفي طريقـه مـر على بغـداد،

---

[1] السبكي، الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص108.

[2] الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، ج1، ص19 .

[3] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص126 .

[4] هو يوسف بن تاشفين المصالي المتوفي [410 ـ 500ه] أكبر سـلاطين المرابطين، أسس مدينة مـراكش، أول من تلقب بـأمير المسـلمين، صـاحب وقعة الزلاقة المشهورة، انظر:الزركلي الأعلام، ج8، ص222.

[5] ابن كثير، البداية والنهاية ،ج12 ،ص142.

[6] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص126.

ونزل برباط (أبي سعيد) إزاء (المدرسة النظامية)، وقد لقيه فيها (أبوبكر بن العربي)[1] الذي وصف حاله حينذاك بقوله: (ورد علينا أنشمند (يعني الغزالي) فنزل برباط أبي سعيد بإزاء المدرسة النظامية معرضا عن الدنيا مقبلا على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له: (أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة) [2].

وقد ذكر ابن العربي أنه سمع منه في هذا اللقاء (إحياء علوم الدين)، وهو يؤيد ماذكره المترجمون من أن الغزالي صنف كتابه هذا وهو في الخلوة[3].

ومما روي عنه في هذه الفترة، وجزم به المترجمون، مانقله ابن العماد عن أبي بكر بن العربي، قال: (رأيت الغزالي في البرية، وبيده عكازة، وعليه مرقعة، وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر دروسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فدنوت منه، فسلمت عليه، وقلت له: (يا إمام، أليس التدريس ببغداد خيرا من هذا؟)، فنظرإلي شزرا وقال: (لما بزغ بدر السعادةفي فلك الإرادة، وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول:

تركت هوى ليلي وسعدي بمعزل	وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأشواق مهلا فهذه	منازل من تهوى، زويدك فانزل
غزلت لهم غزلا دقيقا فلم أجد	لغزلي نساجا، فكسرت مغزلي [4]

وهي مع جمالها وشاعريتها لايمكن قبولها، فابن العربي لم يلق الغزالي إلا في سنة 490هـ، كما نص على ذلك في (العواصم من القواصم) بقوله: (ولقد فاوضت فيها أبا حامد حين لقائي له

---

1) هو العلامة الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله الأشبلي، من كبار علماء المالكية، توفي سنة 543ه، انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4، ص 1294 .

2) نقلا عن: عمار طالبي، آراء بن بكر العربي الكلامة، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج1، ص53.

3) ابن العربي، العواصم من القواصم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ص30 .

4) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، القاهرة: مكتبة القدسي،1350ه، ج4، ص13.

بمدينة السلام في جمادى الآخرة سنة تسعين وأربعمائة)[1]، ونص لقائه له يدل على أنه كان أول لقاء، فكيف يكون قد رآه ببغداد قبل عزلته؟

مرحلة الدعوة والإفادة:

بعد إحدى عشر سنة من العزلة قرر الغزالي أن يخرج منها ليتفرغ للعمل الإصلاحي، وهو في تبريره لترك عزلته يكاد يصدر من نفس المنبع الذي دعاه قبل ذلك إليها، وهو (الإيمان)

يقول عن ذلك: (فلما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة حتى كان فضح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم، انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم)[2]

وكما حصل له عند عزمه على العزلة من حيرته بين تلبية دواعي إيمانه أو دواعي نفسه حتى اعتقل لسانه عن التدريس، حصل له –هنا – عند عزمه على العودة بين دواعي إصلاح الخلق، وهو متعين محتوم، وبين بقائه على عزلته.

يقول – مخاطبا نفسه، معبرا عن حاله في تلك الفترة ـ :

(فما تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأدباء، وأشرف الخلق على الهلاك) [3].

ولكنه يعود، فيقول لنفسه: (متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة، ومصادفة هذه الظلمة، والزمان زمان فترة، والدور دور الباطل؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم؟ فكيف تعايشهم؟) [4]

ولكن خاطر الإيمان يجيبه، فيقول:(لا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والإستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق، والله تعالى يقول: ﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: 1، 2)[5]

هذا هو المحرك الأصلي للغزالي لترك عزلته، وقد ذكره عبد الغافر الفارسي في ترجمته له في قوله: (ثم سألناه عن كيفية

---

[1] ابن العربي، العواصم من القواصم، ص30.
[2] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص138.
[3] المرجع السابق، ص139.
[4] المرجع السابق، ص139.
[5] المرجع السابق، ص139.

رغبته في الخـروج من بيتـه، والرجـوع إلى مـا دعي إليـه من أمـر نيسابور)، فقال – معتذرا عنه ـ : (ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الـدعوة ومنفعـة الطـالبين بالإفـادة، وقـد حـق علي أن أبـوح بالحق، وأنطق به، وأدعو إليه)[1]

وأضيف إلى هذا أسباب أخـرى كـانت مسـاعدة على رجوعـه للتدريس ذكرها الغزالي منها:

1 ـــ ورود أمـــر إلـــزامي لـــه من الســـلطان بالتـــدريس في المدرسة النظامية بنيسابور.

2 ـــ مشـاورته جماعـة من (أربـاب القلـوب)، فـاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية.

3 ـ رؤى كثيرة متواترة من الصالحين تشهد بأن هذه الحركـة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس المائة الخامسة[2].

وأهم أعمال الغزالي في هذه الفترة:

1 ـ تدريسه في المدرسة النظاميـة، ولم تجـدد لنـا المصـادر مدتها، ولكن ذلك ربما يكون قـد امتـد من سـنة 499هــ إلى سـنة 500هـ، وبذلك تكـون فـترة تدريسـه قصـيرة قـد لا تتجـاوز بضـعة أشهر[3].

وقد قارن الغزالي بين تدريسـه من قبـل في نظاميـة بغـداد، وبين تدريسه في نظامية نيسابور قـائلا: (وأنـا أعلم إني إن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت، لأن الرجـوع عـود إلى مـا كـان، وكنت في الزمان أنشـر العلم الـذي يكسـب الجـاه، وأدعـو إليـه بقـولي وعملين وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلى العلم الـذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه) [4] ويضيف: (هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي يعلم الله ذلك مني)

2 ـ تأسيسه مدرسة للعلم وخانقاه للصوفية، بعد ما لاحظ أن السياسة كانت تلقي بأوزارهـا على التعليم، فبتغـير الحـاكم يتغـير الأستاذ، ويتغير البرنامج، وتتغير المذاهب نفسها، فهذه مصر كانت سـنية إبـان الحكم العباسـي، ولكنهـا في زمانـه فاطميـة تـدين بالمذهب الإسماعيلي، وتنشره في جميع أروقة مدارسها بـدءا من الأزهر الشريف، فأراد أن يؤسس مدرسة لا يكـون للحكـام عليهـا

---

[1] السبكي، الطبقات الكبرى، ج4، ص109.
[2] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص140 .
[3] ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص663.
[4] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص140 .

سلطة، فأسس مدرسته، وأسس بجوارها الخانقاه ليجمع بين العلم والتربية.

وقد ذكر ابن كثير أنه اتخذ في بلده طوس دارا حسنة، وغرس فيها بستانا أنيقا[1]، وقد كان لطلبته نعم القدوة، فهو (موزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم للقرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه من الفائدة) [2].

وكانت خاتمة أمره –كما يذكر عبد الغافر الفارسي ـ : (إقباله على حديث المصطفى ﷺ، مجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين، وذلك لا يعني أنه لم يسمع الأحاديث قبل ذلك، وإنما اشتغل بها في آخر عمره وتفرغ لها)، ويضيف عبد الغافر: (ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله)[3]

وفاته:

في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الاخرة سنة 505هـ مضى إلى رحمة الله تعالى، وقد نقل السبكي قصة وفاته قائلا: (قال أحمد أخو الإمام الغزالي: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد، وصلى وقال: علي بالكفن)، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه، وقال (سمعا وطاعة للدخول في الملك)، ثم مد رجليه واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار –قدس الله روحه ــ.[4]

وروى ابن كثير أن سائلا سأله، وهو في حال الاحتضار، فقال: أوصني، فأجابه الغزالي: عليك بالإخلاص، ولم يزل يكررها حتى مات –رحمه الله [5].

وقد رثاه الشعراء، ومن أفضل المراثي مرثية (أبي المظفر الأبيوردي) التي يقول فيها:

بكى على حجة الإسلام حين ثوى ... من كل عظيم القدر أشرفه

ومنها:

مضى وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الخلق يخلفه [6]

---

[1] ابن كثير، البداية و النهاية، ج12، ص663.
[2] ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج4، ص219 .
[3] المرجع السابق، ج4، ص219.
[4] السبكي، الطبقات الكبرى، ج4، ص105.
[5] ابن كثير، البداية و النهاية، ج12،ص663.

رحم الله أبا حامد الغزالي، وأسكنه فسيح جنانه.

[6] السبكي، الطبقات الكبرى، ج4، ص105.

الفصل الثاني

مفهوم الإصلاح الاجتماعي وضوابطه عند الغزالي

نتناول في هذا الفصل مقدمتين أساسيتين للتعرف على تصور أبي حامد الغزالي لماهية الإصلاح الاجتماعي والضوابط التي تحكمه من الناحية الشرعية، وذلك من خلال مبحثين:

1. مفهوم الإصلاح الاجتماعي.
2. ضوابط الإصلاح الاجتماعي.

أولا . مفهوم الإصلاح الاجتماعي

يعني الإصلاح الاجتماعي ـ في مفهومه البسيط، وبحسب ما تدل عليه اللغة[1] ـ مناقضة الفساد الاجتماعي، وإقامة مجتمع بديل عنه يبنى على أسس فكرية وعقدية سليمة، تنشأ عنها سلوكيات صحيحة، تشمل جميع المظاهر الاجتماعية[2].

ويختلف هذا المفهوم بين المصلحين نتيجة للاختلاف في تحديد العناصر الأساسية المكونة للإصلاح الاجتماعي، والاختلاف في علاقة الإصلاح الاجتماعي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة، لأنه على أساس ذلك تكون المواقف التفصيلية من القضايا المرتبطة بهذا الجانب.

وسنتناول كل هذه الأمور من وجهة نظر الغزالي في المطالب التالية:

1 ـ أركان العملية الإصلاحية:

من خلال استقراء ما ذكره الغزالي عند حديثه عن الإصلاح الاجتماعي يمكن أن نجد المكونات الأساسية التالية:

---

1) لغة: الصلاح، ضد الفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أقامه،وأصلح الدابة أحسن إليها فصلحت،والصلح :السلم وتصالح القوم بينهم (ابن منظور، لسان العرب،بيروت : دار صادر، 1995، 2/516، رقم : 1758)

2) انظر على سبيل المثال: د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة. البليدة: قصر الكتاب. 1990، ص138.

أ ـ الجهد الإصلاحي:

هو الركن الأساسي في كـل عمـل إصـلاحي، ويـرى الغـزالي شموليته للنواحي التالية:

التعريف بالأحكام الشرعية:

وهو تبيين تفاصيل الأحكام الشـرعية، وكيفيـة التعامـل معهـا، والاسـتدلال لهـا، والحكم والمقاصـد المناطـة بهـا،و لـذلك، فـإن العلماء باختلاف مراتبهم من مفتين ووعــاظ ومعلمين هم أول من يتعلق بهم هذا النوع من الجهد الإصلاحي.

لكن الغزالي مع ذلك يرى تعلقه بالعامـة من النـاس بحسـب معـارفهم الممكنـة، يقـول في ذلـك: (كـل عـامي عـرف شـروط الصلاة فعليه أن يعرف غـيره، وإلا فهـو شـريك في الإثم، ومعلـوم أن الإنسان لا يولـد عالمـا بالشـرع، وإنمـا يجب التبليـغ على أهـل العلم)[1]، ثم يعطي قاعــدة لــذلك هي: (أن كــل من تعلم مســألة واحدة، فهو من أهل العلم بها)[2]

ويبرر الغزالي ما ذكر من اختصاص هذا التكليف بالعلماء بـأن الإثم عليهم أشد، والتبعة عليهم أعظم،وذلك لسببين:

1 ـ أن قدرة العلمـاء في ذلـك أظهـر، وهـو بصـناعتهم أليـق، فـإن من شـروط التعريـف العلم بتفاصـيل المعـرف، وفي ذلـك دقائق لا يقدر عليها إلا العلمـاء،ولهـذا فــ (العـامي ينبغي لـه أن لا يحتسـب إلا في الجليـات المعلومـة كشـرب الخمـر والزنـا وتـرك الصلاة، وأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى مـا يطيـف بـه من الأفعال، ويفتقر إلى اجتهاد، فالعامي إذا خاض فيه كان ما يفسـده أكثر مما يصلحه)[3]

ولأجل هذا يدعو الغزالي إلى نشر العلوم المعلومة من الدين بالضرورة بين العامة، وتكوينهم فيها حتى تشتهر وتنتشر، باعتبارها لاعذر لأحد بجهلها.

2 ـ أن شأن الفقيـه والعـالم وحرفتهمـا تبليـغ مـا بلغهمـا عن رسول اللـه ﷺ،باعتبـارهم ورثـة الأنبيـاء، ويعـبر الغـزالي عن هـذه الوظيفــة بكونهــا حرفــة، وشــأن المحــترف أن يبحث عن مظــان اشتغاله بحرفته، يقول ـ معبرا عن دور الفقيه نحو هذه الحرفة ـــ:

---

[1] إحياء علوم الدين: 2/342.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق: 2/320.

(وليس للإنسان أن يقعد في بيته، ولا يخرج إلى المسجد لأنه يـرى الناس لا يحسـنون الصـلاة، بـل إذا علم ذلـك وجب عليـه الخـروج للتعليم والنهي، وكذا كل ما تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه، وهو قـادر على تغيـيره، فلا يجـوز لـه أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت، بل يلزمه الخـروج، فـإن كان لا يقدر على تغيير الجميع ويقـدر على البعض لزمـه الخـروج، وأما العامـة والمحـترفون فلـو تركـوا حـرفهم واشـتغلوا بالحسـبة لبطلت المعايش)[1]

ولهــذا، فــإن الغــزالي يعتــبر المــدارس أهم المؤسســات الإصلاحية لكونها مراكز التعريف بالدين وأحكامه وتربية المصلحين عليه، فمن الإصلاح التعليمي ينطلـق الإصـلاح الاجتمـاعي في رأي الغزالي.

استعمال وسائل التأثير:

كالوعـظ والـترغيب والـترهيب والقصـص ونحوهـا، والغـزالي يعتبر كل ذلك من الجهد الإصلاحي، ولكنـه يشـتد على القصاصـين الذين اتخذوا القص في النوادي والمساجد حرفة، ويعتبره بدعة.

ويسـتدل لـذلك بمـا ورد من نهي السـلف عن الجلـوس إلى القصاصـين، وينقــل في ذلــك عن (الأعمش)[2] أنــه دخــل جــامع البصرة، فرأى قاصا يقول: حدثنا الأعمش، فتوسط الحلقة وجعــل ينتف شعر إبطه، فقال القاص:يـا شـيخ، ألا تسـتح؟فقـال: لم؟ أنـا في سنة، وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدثتك[3].

ويعلل النهي عن ذلك بأن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صـدقا، ومن فتح هـذا البـاب على نفسـه اختلـط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار، ولـذلك لا يـرى بأسـا إن كـان القاص صادقا صحيح الرواية مبتعدا عن الحكايات الـتي تـومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العـوام عن إدراكهـا، فـإن العـامي يتمسك بـذلك في مسـاهلاته وهفواتـه، ويمهـد لنفسـه عـذرا فيـه، ويحتج بأنه حكي فيه كذا وكذا.

---

[1]) المرجع السابق: 2/342

[2]) هو أبو محمد سليمان بن مهـران الأسـدي ، من علمـاء التـابعين، حافـظ ثقة، تـوفي سـنة 148ه انظـر: الـذهبي، تـذكرة الحفـاظ، بـيروت: دار الكتب العلمية 1/154.

[3]) إحياء علوم الدين: 1/34

ويذكر الغزالي بـأن من النـاس من يسـتجيز وضـع الحكايـات المرغبة في الطاعات، ويـزعم أن قصـده منهـا دعـوة الخلـق إلى الحق، وذلك من نزغات الشـيطان، فـإن في الصـدق مندوحـة عن الكذب، وفيما ذكر الله تعـالى ورسـوله ﷺ غنيـة عن الاخـتراع في الوعظ[1].

وكـذلك الأمـر بالنسـبة للوعـاظ، فـالغزالي ينفي عن معظم وعاظ زمانه وصف الإصلاح، باعتبارهم عدلوا عن الأسلوب الأمثـل في الوعظ، فاشتغلوا بالطامات[2]والشطح[3]وتلفيق كلمات خارجـة عن قـانون الشـرع والعقـل طلبـا للإغـراب، أو شـغفوا بتسـجيع الألفاظ وتلفيقها، مـع أن همـة الواعـظ ينبغي أن تكـون مصـروفة إلى (أن يـدعو النـاس من الـدنيا إلى الآخـرة، ومن المعصـية إلى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهـد، ومن البخـل إلى السـخاء، ومن الغرور إلى التقوى)[4]

فالتأثير عند الغزالي يرتبط بمدى علمية وسيلة ذلـك، فـالحق وحده مهما كان ظـاهره قاسـيا أو جافـا أو غـير محبب إلى النفس هو الوسيلة الوحيدة للتأثير، وهو يرينا مدى الخطأ الذي وقعت فيه كتب المواعظ والرقائق من اعتماد الأحاديث الموضوعة والقصص الطويلة الغريبـة، والكلمـات المنمقـة المسـجوعة، ولم تسـلم من ذلك بعض كتب الغزالي المنسـوبة إليـه أو المشـكوك في نسـبتها كالدرة الفاخرة، ومنهـاج العابـدين وغيرهـا، وهي من دلائـل دسـها عليه.

ولكن الغزالي مع ذلك يذكر أحيانا بعض القصـص المسـتغربة التي أنكرها عليه بعض العلمـاء كـابن الجـوزي وابن القيم والفيض الكاشاني وغيرهم، وهي قليلة جدا مقارنة بمـا كـانت تعج بـه كتب الرقائق، ولعل مـا دعـا الغـزالي إلى ذكرهـا هـو محاولتـه اجتـذاب

---

[1] المرجع السابق 1/35

[2] عبارة عن كلمة عليهـا رائحـة رعونـة ودعـوى، وهي من زلات المحققين انظر: الجرجـاني، التعريفـات، تحقيـق محمـد بن عبـد الحكيم القاضـي، ط1، القـاهرة: دار الكتـاب المصـري، بـيروت:دار الكتـاب اللبنـاني، 1411ه ـ 1991م ، ص139، رقم 952.

[3] يريد بها الغزالي معنى الشطح زيادة على صرف الألفـاظ الشـرعية عن معانيها المفهومة بغير دليل ولغير حاجة، انظر: إحياء علوم الدين: 1/37.

[4] رسالة أيها الولد (ضمن القصور العوالي)، القـاهرة: مكتبـة الجنـدي، ص 140.

العامـة والبسـطاء إلى كتبـه، وهـو معـنى مقصـود في كـل كتبـه، فلذلك نراه يكثر من الأمثلة والتكرار والإطناب، بل ويؤلف رسائل وكتبا يمكن اعتبارها بحسب مستواها مؤلفات شعبية.

وهو لأجل ذلك قد يروي أحيانـا، وخاصـة في غمـرة تحقيقاتـه قصصا تدعو إلى الإنكار عليـه، ولكنـه لا يلبث أن يعقب عليهـا بمـا يبين موضع الاستشهاد منها، ويحذر من عواقب الفهم السـيئ لهـا، فقد حكى ـ مثلاـ أن من الصالحين من وضع الأسد يـده على كتفـه ولم يتحرك، ثم عقب على ذلك بقوله: (فقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه، فلاينبغي أن يغـرك ذلـك المقـام؛ فإنـه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغــير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات، وليس ذلـك شـرطا في التوكل)[1]

ومما يلفت النظـر هنـا أن الغـزالي تجنب كثـيرا ذكـر قصـص الكرامات وغيرها مما اهتم به المتأخرون، وأفـردوا لـه التصـانيف، وذلـك باعتبـار الكرامـات قضـايا فرديـة ليس لهـا حكم العمـوم، وموضع الشاهد منها لا يعدو كونهـا دلائـل على عنايـة اللـه بعبـاده، وتدبيره لأمر خلقه، ولذلك اقتصـر الغـزالي على ذكرهـا في كتـاب التوكل من الإحياء لاقتضاء المقام لذلك.

ومــع ذلــك كلــه فــإن القصــص لا تعــبر بالضــرورة عن رأي أوفكـرة، فيتوجـه النقـد إلى الفكـر من خلالهـا، كمـا فعـل د.زكي مبـارك في نقـده للغـزالي من خلال قصصـه، لأن في كـل قصـة موضع استشهاد أواستئناس، وقد يكون فيها مـا يـرفض، ومن هـذا الباب روى ابن عباس وغيره من الصحابة الكثير من الإسـرائيليات مع احتوائها أحيانا على مواضع استهجان ودلائل تحريف.

استعمال الشدة:

ويراه الغزالي جهدا إصـلاحيا معتـبرا إذا مـا روعيت المـراتب السابقة، يقول عن طريقة معالجته لأهل الشغب والمجـادلين بعـد تعريفهم الحق ودلالتهم عليه:(فإن لم يقنعه لبلادته وإصـراره على تعصـبه ولجاجـه وعنـاده عالجتـه بالحديـد، فـإن اللـه تعـالى جعـل الحديد والميزان قريني الكتاب)[2]

و يستدل لذلك بفعل السلف ،فقد سأل رجل عمر عن آيــتين

---

[1] إحياء علوم الدين: 4/279 ـ 280.

[2] القسـطاس المسـتقيم، تحقيـق فيكتـور شـلحت، ط2، بـيروت: دار المشرق، ص90، 91.

متشابهتين في القرآن الكريم، فعلاه بالدرة، قال الغزالي: (وكذلك فعل السلف كلهم) [1]

ومع قول الغزالي بجواز استعمال الشدة لكل المكلفين إلا أنه يرى أن السلاطين أولى بذلك، يقول عند بيانه لعلاقة العلماء بالسلاطين: (العلماء أطباء، والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليتصرف فيه كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال، ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس)[2].

وهذا النص يبين المقصد الذي يراه الغزالي من استعمال الشدة، فهي علاج للداء،لا عقاب لمريض؛ وهو يرجح بذلك كون الحدود الشرعية زواجر عن الإثم وتطبيب للآثم، لا انتقام منه أو تشديد عليه.

هذه هي النواحي الثلاثة المكونة للجهد المثمر في نظر الغزالي، وهي بذلك تجمع كل الوسائل الإصلاحية الممكنة، من كل أصناف الناس بدءا بالعامة وانتهاء بالعلماء والحكام.

ب ــ الأسس الفكرية والعقدية المكونة للمجتمع البديل:

إن كل مجتمع لابد أن يقوم على أسس فكرية وعقدية تنبثق منها سلوكياته ومواقفه الاجتماعية، وبحسب تلك الأسس يكون تصنيفه، فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع القائم على أساس العقيدة الإسلامية المنطلقة من المصادر الشرعية، والمتغلغلة في جميع الكيان الإنساني والاجتماعي.

و قد أصاب هذه العقيدة في نظر الغزالي الكثير من الانحرافات تحت تأثير الانحرافات التي تسربت للأمة نتيجة اختلاطها بالأمم الأخرى، وما نشأ في الرد عليها من جدل أبعد المجتمع عن الفهم الحقيقي لها ولمقاصدها، فأصبحت علما يدرس أو جدلا تعقد له المناظرات وتؤلف فيه المصنفات بدل أن تكون روحا تقلب الفرد والمجتمع وتبعث فيهما الحياة، ولذلك يرى الغزالي ضرورة جعل الإيمان أو العقيدة أو المعرفة منطلقا وغاية لكل عمل إصلاحي، وإلا كان مجرد هدر للجهد لا طائل من ورائه.

---

1) المرجع السابق .

2) إحياء علوم الدين: 4/51.

وقد اختار الغزالي التصوف بديلا للطروحات العقدية القائمة في عصره، وذلك بعد جولا نه في الطوائف وبحثه في أسرار الفرق ومقاصدها [1]، لأن التصوف اهتم بالجانب التحققي والذوقي من العقيدة، وهو تصوف ـ كما سنرى ـ سني النزعة، يعتمد في طريق التصوف أو ثماره على المصادر الشرعية من الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح معتبرا ذلك هو الركن الغائب الذي بسببه حل الفساد الاجتماعي.

فتصور الغزالي للأسس الفكرية سلفي من حيث رجوعه الدائم إلى المصادر الشرعية، وصوفي من حيث اهتمامه بالحياة الروحية، وعقلي من حيث تحكيمه الدائم للعقل واعتماده عليه في الاستنباط والبرهنة ونصرة الشريعة، وسنرى ذلك ببعض التفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث.

ج ـ الظواهر السلوكية:

وهي منبثقة من الأسس العقدية التي يبنى عليها المجتمع، وتختلف نظرات المصلحين في توجيه تلك الظواهر أو الاهتمام بها، وإن اتفقت في الأساس الفكري، والغزالي بنزعته الصوفية يرى وجوب الاهتمام بالأخلاق الباطنة باعتبارها ممدة للسلوكيات الظاهرة، فالخلق عنده (هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية)[2]

فلا يكفي تطهير ظاهر المجتمع دون الولوج إلى بواطن أفراده ونزع الصفات المهلكة التي قد تسبب خراب المجتمعات، كما وصف رسول الله ﷺ الشح، وهو مرض واحد من أمراض القلوب بأنه قد تسبب في هلاك أمم من الناس، يقول الرسول ﷺ: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة،واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم)[3]

ومع اهتمام الغزالي بالباطن تطهيرا أو تحقيقا دعا إلى إصلاح الظاهر كثمرة طيبة للقلب السليم أو طريقا للتحقق، أما إن كان مجردا عن الأخلاق الباطنية فهو رياء أو غرور، ولذلك ينتقد

---

[1] المنقذ من الضلال، ص81.

[2] إحياء علوم الدين: 3/53.

[3] مسلم ، الجامع الصحيح، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني(كتاب البر والصلة والآداب)، 4/1996، رقم 4675.

الغـزالي الكثـير من الظـواهر الاجتماعيـة الـتي قـد تبـدو إيجابيـة، باعتبــار أصــحابها لا ينطلقــون من نيــات ســليمة، فمن أصــناف المغترين الذين يذكرهم الغـزالي (المغـترين من أربـاب الأمـوال)، فمنهم (من يحــرص على بنــاء المســاجد والمــدارس والرباطــات والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبـون أسـاميهم بـالآجر عليهـا ليخلـد ذكـرهم،ويبقى بعـد المـوت أثـرهم) [1]، ومن المغـترين من (ينكـر على النـاس ويـأمرهم بـالخير وينسـى نفسـه، وإذا أمـرهم بـالخير عنـف وطلب الرياسـة والعـزة، وإذا باشـر منكـرا رد عليـه غاضبا)[2]

وهكذا يدخل الغـزالي في صـميم الظـواهر الاجتماعيـة محللا نفسيات الناس مبينا منابع سلوكياتهم، فالإصـلاح عنـده هـو البحث في الأعماق وتطهيرها وزرع الخصال الطيبة فيها.

انطلاقا من هذا فإن الإصلاح الاجتماعي يعـني عنـد الغـزالي: [**بذل جميع الجهود الممكنة من كل أصناف النـاس، كـل حسب طاقتـه وعلمـه للقضـاء على الفسـاد الاجتمـاعي ظاهره وباطنه، وإقامة مجتمع صالح قـائم على عقيـدة صحيحة وإيمان متين تنبثق عنه سلوكيات إيمانيـة طيبـة كتلك السلوكيات التي كان عليهـا الصـالحون الـذين هم النموذج المثالي للمجتمع الإسلامي**]

وقد استعمل الغزالي مصـطلح (الإصـلاح) كثـيرا في كتبـه [3]، وإلى جانبــه اســتعمل مصــطلحي (الأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكــر) و(الحســبة)،وســنرى ــ فيمــا يلي ــ علاقتهمــا بالإصــلاح الاجتماعي.

2 ـ علاقة الإصلاح بـالأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة:

أ ـــ تعريـــف الأمـــر بـــالمعروف والنهي عن المنكر:

لغة:

المعروف: ضد النكر، وهو كل مـا تعرفـه النفس من الخـير

---

[1] إحياء علوم الدين: 3/407.

[2] المرجع السابق : 3/42.

[3] انظر: على سبيل المثال: إحياء علوم الدين: 3/396.

وتطمئن إليـه، وهـو اسـم جـامع لكـل مـا عـرف من طاعـة اللـه والتقرب إليه والإحسان إلى الناس.

ويعني كذلك النصفة وحسن الصـحبة مـع الأهـل وغـيرهم من الناس، ويأتي بمعنى الجود. وعرفه:طيبه وزينه.والتعريـف التطيب من العرف، وقوله تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَـا لَهُمْ﴾ (محمـد: 6) أي زينها[1].

المنكر: النكر والنكراء: الدهاء والفطنة. ورجل نكر من قوم مناكير: داه فطن. والإنكار: الجحود. والمناكرة: المحاربة. ونـاكره: قاتلـه، لأن كـل واحـد من المتحـاربين ينـاكر الآخـر: أي يداهيـه ويخادعه، ويقال فلان يناكر فلانا وبينهما مناكرة: أي معاداة. وأنكـر الأصـوات أقبح الأصـوات. والنكـرة:إنكـارك الشـيء وهـو نقيض المعرفـة. وأنكـره:جهلـه. والمنكـر من الأمـر خلاف المعـروف، وهوكل ما قبحه الشرع وحرمـه وكرهـه. والتنكـر:التغـير عن حـال تسرك إلى حال تكرهها منه. والنكير والإنكار: تغيير المنكر.[2]

اصطلاحا:

المعروف والمنكر عامان كما هو متبادر، يتناول أولهما كل ما هو صلاح وخير ونفع من أخلاق وعادات وأعمال تعود فائـدتها على الأفـراد والمجمـوع معـا، ليس فيهـا جنـف ولا بغي ولا إفـراط ولا تفريط،ويتناول الثاني كل ما هو متعارف على أنـه شـر وضـار من أخلاق وعادات وأعمال يعود ضررها على الأفـراد والمجمـوع معـا، وهما بهذا يتناولان جميع مظاهر الحياة ما يتعلق منها بالـدين، ومـا يتعلق منها بالدنيا، فهما من الكثرة كمـا يقـول الغـزالي: (بحيث لا مطمع في حصرها واستقصائها) [3]

ونشـير إلى أن الجـزء الـذي خصـه الغـزالي في (الإحيـاء) و(الأربعين في أصـول الـدين) لدراسـة النـواحي الفقهيـة للإصـلاح الاجتماعي أطلق عليه هـذا الاصـطلاح [4]، فـالنواحي الفقهيـة عنـد الغــزالي تمــتزج بغيرهــا من النــواحي النفســية أو الفلســفية أو الاجتماعية، ولذلك يمكن اسـتنتاج الكثـير من النظـرات الإصـلاحية

---

[1] ابن منظور، لسان العرب 9/236، رقم 5774.

[2] المرجع السابق : 5/232، رقم 3288.

[3] إحياء علوم الدين: 2/335.

[4] انظر: إحيـاء علـوم الـدين: 2/307 ـ 357، والأربعين في أصـول الـدين، الجزائر: شركة الشهاب 65 ـ 68.

في ثنايا تلك الدراسات.

ب ـ تعريف الحسبة:

لغة:

الحِسبة:مصدر احتسابك الأجر على الله، تقول: فعلته حسبة، واحتسبت فيه احتسابا؛ والاحتساب:طلب الأجر، والاسم الحسبة، وهو الأجر، وتأتي مادة [حسب] بمعنى الكرم والشرف الثابت في الآباء أو في الفعل، والحسَب:الفعل الصالح، والحسْب العد والإحصاء، وقدر كل شيء كقولك: الأجر بحسْب ماعملت، وحسْبك ذلك أي كفاك ذلك[1].

اصطلاحا:

هي نظام من أنظمة الدولة الإسلامية غرضه تخصيص دعاة مهمتهم الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله[2]، وقد كان المحتسب عاملا من عمال الدولة له ولاية تسمى ولاية المحتسب، لها من السلطات ما ليس للقاضي نفسه.

فللمحتسب من السلطة فيما يتعلق بالمنكرات الظاهرة ما ليس للقاضي، لأن الحسبة تقوم على الرهبة، فلا تجافيها الغلظة واتخاذ الأعوان، أما القضاء فموضوع لإنصاف الناس، واستماع البينات حتى يتبين المحق من المبطل، فكان الملائم له الأناة والوقار والبعد عن الغلظة والخشونة والرهبة [3]، وقد امتدت واجبات المحتسب لتشمل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ للضعفاء والمحتاجين، بالإضافة إلى منع المنكر الظاهر كتعاطي المسكرات والتجسس والغيبة وترك الصلاة والفطر في رمضان.

وللمحتسب الإشراف على أهل الحرف والتجار ليراقب التقصير والخيانة، وكذلك أصحاب الحرف كالأطباء والمعلمين ومنع أئمة المساجد من إطالة الصلاة، ويمنع والي الحسبة وضع المقاعد في الأسواق على نحو يضر بالمارة[4].

بل إن للمحتسب أحيانا التدخل في التصرفات الشخصية البحتة والاستعانة بالقضاء لتنفيذ الأحكام الصالحة لذلك، ويضرب الغزالي مثالا على ذلك بمن لا يملك إلا مائة دينار وله عيال ولا

---

[1]) ابن منظور، لسان العرب 1/310، رقم: 341.

[2]) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص174.

[3]) المرجع السابق : ص120.

[4]) إحياء علوم الدين: 2/339.

منفق عليهم سواه، ومع ذلـك يبـالغ بالإنفـاق في الـولائم وغيرهـا، فإن للمحتسب منعه، وللقاضي الحجر عليه[1].

وهنا نرى مـدى التكامـل القـائم بين السـلطتين الشـرعيتين: سلطة الحسبة، وسلطة القضاء، وهو ما يمنح المصلح سندا ماديا، زيـادة على السـند المعنـوي المتمثـل في الأجـر الأخـروي الـذي يحتسبه عند اللـه، والاحـترام الـذي يلقـاه في المجتمـع الإسـلامي لشخصه ولوظيفته.

والغزالي يمنح هذه السلطة لكل من توفرت فيه الأهلية حتى ولو لم يكن معينا من طرف الولاة [2]، كما سنرى عند الحديث عن شروط القائم بالإصلاح.

ج ـ العلاقة بين المصطلحات الثلاثة:

من خلال هذا العرض المختصـر لكـل من هـذه المصـطلحات الثلاثة التي استعملها الغزالي نرى تطابقها جميعا من حيث الهدف العـام لكـل منها[3]، خاصـة إذا علمنـا أن الغـزالي لا يقصـر ولايـة المحتسب على إذن السلطة، بل يجعلها حقا لكل مكلف[4]، ولو أن الغـزالي يسـتعمل عـادة (الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر) و(الحسبة) في الأمر بالمعروفات الظاهرة والنهي عن المنكـرات الظـاهرة، أمـا مصـطلح (الإصـلاح)، فلا يسـتعمله إلا في الإصـلاح الجذري التدريجي العميق، ولذلك اخترنا هذا الاصطلاح.

ثانيا: ضوابط الإصلاح الاجتماعي

---

[1] المرجع السابق : 2/341.

[2] المرجع السابق 2/315.

[3] إن جـاز أن يكـون هنـاك خلاف بين المصـطلحات الثلاثـة فهـو لا يتعـدى المعاني اللفظية لها دون أن يكون له أثر في المصطلح عليه، وذلك لأن لفـظ (الإصـلاح الاجتمـاعي) يـدل على الغايـة من العمـل الإصـلاحي، وهـو حصـول الصلاح في المجتمع، أما (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر) فيتعـرض إلى تفاصيل الإصلاح المراد تنفيذه في المجتمع، وأما مصطلح (الحسبة) فيتعـرض إلى الغاية الشخصية للمحتسب من وراء عمله الإصلاحي.

[4] إحياء علوم الدين: 2/315.

إن أي إصلاح اجتماعي يستدعي بالضرورة توفر أربعة أركان هي: القائم به، وموضوعه، والمخاطبون به، ومراتبه المكونة لحقيقته.

وقد تحدث الغزالي عن هذه الأركان الأربعة محددا ضوابطها الشرعية، فأصالة الإصلاح عنده تقتضي ربط فروعه ومسائله بالأحكام الفقهية المستندة للأدلة الشرعية التفصيلية، ونلاحظ مسبقا كثرة تفريعات الغزالي في هذا الميدان، فهو كما يقول أبو زهرة: (لو لم يشتهر بالحكمة والتصوف وعلم الكلام لاشتهر بالفقه، فإن الفقه كان الأمر الذي اتجه إليه في صدر حياته العلمية،ولم يتركه حتى في حياة التصوف التي عاشها من بعد) [1]، كما نلاحظ أيضا ربطها بالنواحي النفسية والاجتماعية، وهذا ما يخرجها عن كونها مجرد فروع فقهية اتفق أو اختلف فيها الفقهاء.

1ـ القائم بالإصلاح:

يفرق الغزالي بين الإصلاح العميق الجذري الذي يحتاج إلى علوم كثيرة وخبرة واسعة وإيمان عظيم ويعبر عن القائم به بـ (الشيخ المربي)[2]، ويشتد في شروطه، ويرى أنه أندر وأعز من الكبريت الأحمر[3]، وبين الإصلاح العام الذي يتناول الأمر بالمعروف الظاهر والنهي عن المنكر الظاهر.

وهنا نلاحظ الغزالي يقول بعموم الإصلاح[4]، وشموله لكل المكلفين به، وهو ينطلق في رأيه ذلك من النصوص الشرعية الدالة على التكليف به، كقوله ﷺ: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[5]، فإن لفظ (من) كما يقرر الأصوليون من ألفاظ العموم [6]، وذلك يقتضي الوجوب بكل حال، ولا يخصص العام إلا بدليل شرعي، يقول الغزالي: (وعموم الأمر بالمعروف والنهي

---

1) محمد أبو زهرة، الغزالي الفقيه (ضمن : مهرجان الغزالي)، ص 527.

2) إحياء علوم الدين: 3/64.

3) رسالة أيها الولد (ضمن القصور العوالي) ص192.

4) العموم في أصول الفقه هو شمول الحكم لكل فرد من أفراد الحقيقة، والعام هو اللفظ الموضوع لمعنى كلي بشرط شمول الحكم لكل فرد من أفراده. انظر المستصفى من علم الأصول، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 2/32 ـ 34.

5) الجامع الصحيح (كتاب الإيمان) 1/50 رقم 70.

عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال، ونحن إنما نستثني بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه)[1]

ولكن تلك المخصصات قد تجد مجالا رحبا للآراء المعطلة لذلك الوجوب، فلذلك لا يدخل في المخصصات عند الغزالي إلا ما ظهر ظهورا جليا، وكان دليله قويا، وذلك لا يكون إلا في أمرين:

الإجماع:

وهو لقوته من المخصصات لكل العموميات باتفاق[2]، والغزالي ينقل الإجماع بالتخصيص لثلاثة شروط هي الإسلام والعقل والبلوغ.

ولكنه مع ذلك يجيز للصبي المميز ــ وإن لم يكن مكلفا ـ إنكار المنكر ولو باليد، وإذا فعل ذلك نال به ثوابا، ولم يكن لأحد منعه من حيث أنه ليس بمكلف، وقد كان الغزالي في هذا الحكم مخيرا بين جعل الحسبة قربة محضة كالصلاة والإمامة، فلا يشترط فيها البلوغ لصحة الفعل، أو يجعلها ولاية كالقضاء والحكم لما للمحتسب من ولاية شرعية تخول له تغيير المنكر، فيشترط لها البلوغ، وقد اختار جعلها قربة لتغليبه المقصد الشرعي بعمومية الإصلاح، بل إنه يستحبها حتى ولو كانت ولاية [3].

القياس:

وذلك لأن الإصلاح حكم تعليلي مفهوم العلة؛ والحكم ــ كما يعبر الفقهاء ـ يدور مع علته وجودا وعدما، ويعبر الغزالي عن علة الإصلاح بقوله: (إن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور، فإذا علم اليأس عنه، فلا فائدة فيه)[4]

انطلاقا من هذا، يناقش الغزالي بعض الشروط التي انتشرت بين الناس وكان لها سهم في الحد من تعميم الإصلاح، وتلك الشروط هي:

---

[6]) المستصفى من علم الأصول، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية 2/61، وانظر: ابن جزي، تقريب الوصول إلى علم الأصول، ط1، الجزائر: دار التراث الإسلامي 1410ه ، ص75.

[1]) إحياء علوم الدين: 2/320.

[2]) يعتبر الغزالي الإجماع من أقوى الأدلة الشرعية، فيه يعرف ثبوت النص وبه تحدد دلالته، ولذلك لا يجوز خلافه، انظر: المستصفى، ط2، 1/198.

[3]) إحياء علوم الدين: 2/315.

[4]) المرجع السابق : 2/320.

أ ـ العدالة:

وفي تعريفها خلاف بين الفقهاء ذكره الغزالي، خلاصته أن الحنفية ذهبوا إلى أن العدالة عبارة عن إظهار الإسلام فقط مع سلامته عن كل فسق ظاهر، فكل مسلم مجهول عندهم عدل، أما الشافعية، ومنهم الغزالي، فقد ربطوا العدالة بخبرة باطنه، ومعرفة سيرته وسريرته، والتأكد من سلامته من كل ما يحكم عليه بالفسق[1].

ولترجيح الغزالي قيمة كبرى من حيث التأكد من سلامة المعرفين بالدين من محدثين وفقهاء وغيرهم، وعدم الانخداع بظاهر سلوكهم، يقول الغزالي: (إن المفتي المجهول الذي لايدرى أنه بلغ الاجتهاد أم لا، لايجوز للعامي قبول قوله، وكذلك إذا لم يدر أنه عالم أم لا) [2]

وهذا يدل على اشتراط الغزالي للعدالة في الجانب التعريفي من الإصلاح، أما في غيره من الجوانب فإنه يرى جواز الإصلاح بل وجوبه، وينتقد توقف الكثير من الورعين أو ممن يتذرع بالورع عن الدعوة إلى الإصلاح بحجة عدم صلاح نفوسهم واستقامتها،مستدلين على ذلك ـ كما يذكر الغزالي ـ بما يلي:

1. بعض النصوص الشرعية الدالة على قبح ذلك، كقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالِبِر وَتَنسوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة:43)، وقوله تعالى: ﴿ كبرمقتاًعِندَ الله أن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:3)،وبما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:(مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت:ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم) [3]
2. بقياس مفاده كما يذكر الغزالي: (أن هداية الغير فرع للاهتداء وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح)[4]
3. استبشاع الطبع السليم لذلك وكراهيته له.

والغزالي يرد على هذه الاستدلالات معتبرا أنها مجرد

---

[1] المستصفى 1/157.

[2] المرجع السابق : 1/158.

[3] أحمد، المسند، بيروت: دار الفكر 3/313.

[4] الإحياء 2/320.

توهمات، ويرى أن للفاسق أن يحتسب، ويستدل لذلك بما يلي:

1. أن اشتراط العدالة حسم لباب الاحتساب، فلا عصمة للصحابة فضلا عمن دونهم، ولا يخلو إنسان من ذنب إلا من عصمه الله، وقد تنبه السلف إلى خطورة اشتراط ذلك فقال سعيد بن جبير[1]: (إن لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء) [2].
2. أن تلك النصوص التي استدلوا بها تنكر عليهم من حيث تركهم للعمل بالمعروف لا من حيث أمرهم به، لأن (أمرهم به يدل على قوة علمهم، وعقاب العالم أشد، لأنه لا عذر له مع قوة علمه [3].
3. أن القول بترتب إصلاح الغير على صلاح النفس تحكم، وذلك لأن الشرع، وهو المرجع في ذلك، لم يرتب أحدهما على الآخر كما رتب كثيرا من التكاليف على بعضها.
4. أن استنكار الطبع لذلك واستشناعه له غير معتبر، وذلك (لأن الحق قد يكون شنيعا، والباطل قد يكون مستحسنا بالطبع، والمتبع هو الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات، يقول الغزالي مستغربا: (من الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر) [4].
5. أنه لا يبعد عقلا ولا عادة، كما لم يبعد شرعا أن يفعل الإنسان منكرا، ثم ينهى غيره عنه حرصا عليه، واحتسابا لله في ذلك؛ وينقل الغزالي هنا صورة عن حال هذا النوع من الناس بقوله: (بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشرب؛ ويقول يجب علي الانتهاء والنهي، فمن أين يلزمني من العصيان بأحدهما أن أعصي الله تعالى بالثاني؟ وإذا كان النهي واجبا علي فمن أين يسقط وجوبه بإقدامي؟)[5]

---

[1] هو أبو عبد الله من كبار علماء التابعين وصالحيهم له حكم ومواقف كثيرة، منها موقفه البطولي مع الحجاج، استشهد سنة 94هـ، انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، بيروت: دار الجيل 2/50.

[2] إحياء علوم الدين: 2/314.

[3] المرجع السابق : 2/320.

[4] المرجع السابق .

[5] المرجع السابق .

ومع ترجيح الغزالي لعدم اشتراط العدالة في الإصلاح إلا أنه يقر أن لها تأثيرا في بعض أنواعه، ومن ثم يكون لاشتراطها وجه مقبول، وذلك لأن النهي قد يكون بالموعظة أو بالقهر، وبما أن الفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه وبالتالي عدم تأثير وعظه، فليس عليه الحسبة في ذلك لعدم جدواها.

أما النهي بالقهر والتغيير باليد للقادر عليه فإن ذلك لا يسقط عليه وجوب الحسبة، ويستدل الغزالي على ذلك بقياس الحسبة على الجهاد (إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام، ولم يمنعوا من الغزو لا في عصر رسول الله ﷺ ولا بعده)[1]، ووجه قياسه هذا اعتباره الجهاد نفسه حسبة بالنهي عن الكفر.

وهذا من الغزالي غاية الإنصاف، فإن تصدر الفاسق للوعظ والدعوة مهدر لقيمتها، ومضعف لأثرها، ولكن ذلك لا يعني الاستغناء عنه فهو مسلم، وفي استطاعته أن ينصر الدين بماله من إمكانيات، وقد قال ﷺ: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) [2]

ب ـ إذن السلطة:

وقد كان هذا الشرط من أهم الأسباب التي جعلت فريضة الإصلاح قصرا على فئة معينة، مع أن المحتسب المعين من طرف الوالي أثناء قيام الخلافة الإسلامية لم يكن إلا جزءا من أدوات الإصلاح، وقد كان بجانب هذا المحتسب من أطلق عليه اسم (المتطوع)، وهو كل من يقوم بالإصلاح من غير إذن الوالي [3].

والغزالي يرد اعتبار هذا الشرط ويرى فساده لأنه ينافي قوله بعمومية الإصلاح، ويستدل على فساده بما يلي:

1. أن تخصيص العموم الوارد في النصوص الشرعية بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له، فليس في النصوص ما يدل على ذلك، ولا تخصيص بدون مخصص.أما اعتقاد أن المخصص هنا هو كون الحسبة ولاية، وهي لا تثبت لأحد داخل الدولة إلا بتعيين من حاكمها، فيرى الغزالي فساده

---

[1] المرجع السابق 2/313.

[2] البخاري، الجامع الصحيح، المطبعة السلطانية،(كتاب التفسير)، 6/179، رقم 3062، ومسلم، (كتاب الإيمان)، 1/105، رقم 178.

[3] عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة ص180.

لأن (آحاد المسلمين يستحقون هذا العز بالــدين والمعرفــة، وما فيه من عــز الســلطنة والاحتكــام لا يحــوج إلي تفــويض كعز التعليم والتعريف) [1]، وذلك لأنه لا خلاف في أن تعريف الأحكام الشرعية لمن يجهلها لا يحتاج إلى إذن الــوالي، مــع أن في ذلك عز الإرشاد، وعلى المعرف ذل التجهيل.

2. أن الوالي نفسه يحتاج إلى الحسبة فكيف ينتظــر تفويضــه؟ وذلك لأن موقف الحاكم من تلك الحسبة إما أن يكون رضــا أو سخطا، فــإن كــان راضــيا فــذاك، (وإن كــان ســاخطا لــه، فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فيــه، فكيــف يحتــاج إلى إذنه في الإنكار عليه؟)[2]
3. ورود الروايات الكثــير عن الســلف في الحســبة على الــولاة مما يقطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض، وقد جمع الغــزالي الكثــير من تلــك الروايــات، وضــمنها (كتــاب الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر) من (إحياء علوم الدين)، ولــه فيها مصنف آخر سماه (مقامات العلمــاء بين أيــدي الخلفــاء والأمراء)

هذه بعض الأدلة التي يستند إليها الغــزالي في قولــه بعــد مــا ذكر اشــتراط إذن الســلطة للإصــلاح، ولكن الســؤال الــذي يطــرح نفســه بعــد هــذا هــو:مــا دامت الحســبة ذات مــراتب كثــيرة، وفي بعضها ما قد يؤدي إلى الفتنة إن لم يكن هنــاك إذن من الســلطة، فهل يحتسب في ذلك أيضا من غير إذن؟

وجــواب الغــزالي عن هــذا الســؤال دليــل على ســعة أفقــه، وتقديمه للمصــلحة المنجــرة عن الإصــلاح على كــل مصــلحة، فهــو يرى بأن المحتسب لا يحتاج إلى الإذن في جميع مــراتب الإصــلاح، ســواء كــانت بالوعــظ أو القهــر أو التخويــف والتهديــد، أو حــتى بمباشرة الضرب له حتى يمتنع العاصي عما هو عليه [3]، ولكن كل ذلك مرتبط بمدى علمه بنجاعة حسبته وتأثيرهــا مــع عــدم حصــول مفسدة أكبر من المفسدة التي يريد إزالتها.

بل إن الغزالي يقرر اجتهادا رائدا بقوله بجواز الاســتعانة على إزالة المنكر، يقول في (الإحياء):(لا يحتاج إلى الإذن ـ وهو الأقيس

---

[1]) إحياء علوم الدين: 2/315.

[2]) المرجع السابق .

[3]) المرجع السابق .

ـ لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف، وأوائل درجاته تجر إلى ثوان، والثواني إلى ثوالث، وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب، والتضارب يدعو إلى التعاون، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه) [1]

ثم يعطي قاعدة تبين مذهبه في كل ذلك، وهي: (كل من قدر على دفع منكر، فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه)[2]

ج ـ القدرة:

لقد اعتبرت الشريعة القدرة أو الاستطاعة شرطا في أداء الكثير من الأحكام الشرعية إما بنصوص خاصة، أو بحجج عامة كقوله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (البقرة:286)، وقوله تعالى: وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (البقرة:195)

والغزالي يرى أن الناس قد حملوا هذه النصوص ما لا تحتمل وخاصة في مجال الحسبة، حتى أن البعض قد يكره كلمة تسيء إليه، فيظن أن ذلك كاف لسكوته عن المنكر[3]، ولذلك يقسم العجز إلى ثلاثة أنواع:

العجز الحسي:

وهو أن تعتري المكلف آفة تمنعه عن الإصلاح باليد أو باللسان أو بالانتقال إلى محل الفساد لإصلاحه، وذلك يسقط عنه وجوب الحسبة، وعليه تفسر الآيات، ولكنه يبقى مطالبا بحسبة القلب، وهي تغيره عند رؤية المنكر، وينقل الغزالي في ذلك عن ابن مسعود قوله: (جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا) [4].

خوف المكروه:

وله عند الغزالي ضابطان:

طريق العلم به: وذلك إما أن يكون عن تحقق أو عن شك وتوهم، والغزالي يشترط أن يكون ناتجا عن علم أو ظن غالب، ولا يكفي فيه مجرد الشك أو التوهم.

---

[1]) المرجع السابق : 2/333.

[2]) المرجع السابق .

[3]) المرجع السابق : 2/321.

[4]) المرجع السابق 2/319.

تحديد المكروه: ويرى أن التعويل فيه على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج، أما من فسد مزاجه، وخرج عن حد الاعتدال، فلا عبرة بتحديده؛ فإن الجبان ضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده، ويرتاع منه، والمتهور يبعد وقوع المكروه بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل وكلاهما نقصان، (وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة) [1]

أما ما يعتبره الكثير من الناس أذية مثل الغيبة والسب ونحوها، فإن الغزالي يقول في ذلك: (لو تركت الحسبة بلوم لائم، أو باغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا) [2]

ثم يعقب على ذلك بقاعدته في عموم الحسبة، وهي: (وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة، وعظم الخطر في السكوت عنها ؛ فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره ؛ والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها، فأما مزايا الجاه ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له)[3].

وهذا كله إن كان المكروه متعلقا به، أما إن كان عارضا لغيره فهو دفع لمنكر يفضي إلى منكر آخر، وهو لا يجوز، فيسقط عنه الوجوب لذلك.

العجز عن التأثير:

والغزالي يعتبره، مستدلا بأن مقصد الشارع من الأمر بالصلاح هو حصول الصلاح؛ فإن تيقن المصلح عدم جدوى إصلاحه رخص له في السكوت [4].

ويظهر أن مراد الغزالي بحصول المقاصد لا يعني حصولها في الحين، فإن ذلك لا يمكن كل حين، وقد قص الله تعالى علينا في القرآن الكريم دعوات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وإلحاحهم مع صدود أقوامهم وتكبرهم.

بعد هذا البيان لأقسام العجز، وحكم كل قسم؛ فإنه يحصل من اعتبار القسمين الأخيرين أربعة صور:

الصورة الأولى: أن يجتمع كلا القسمين، بأن يعلم أنه لا

---

[1] المرجع السابق :2/323.

[2] المرجع السابق 2/323.

[3] المرجع السابق : 2/319.

[4] المرجع السابق .

ينفع تغييره، ومع ذلك يناله مكروه، وهذا لا تجب عليه الحسبة عند الغزالي، بل تحرم في بعض المواضع، لأنه زج بنفسه إلى التهلكة في غير مصلحة شرعية.

ومع ذلك، فإن الغزالي يرى أنه يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر، لأن في ذلك تكثيرا لسواد العاصين، وربما جره الحضور إلى الانغماس في المعصية، ويرى كذلك أنه لا تجب عليه الهجرة إلى موضع آخر إلا إذا كان يرهق إلى الفساد، أو يحمل على مساعدة الظلمة من الحكام وغيرهم، وحينذاك تلزمه الهجرة إن قدر عليها، فإن الإكراه لا يكون عذرا بحق من يقدر على الهروب منه [1].

الصورة الثانية: أن ينتفي كلا المعنيين، بأن يعلم بأنه يمكن أن يؤثر في إزالة المنكر بقوله أو بفعله، ومع ذلك لا يناله مكروه،وهذه هي (القدرة المطلقة)[2] كما يعبر الغزالي، ولا عذر لصاحبها في ترك الحسبة.

الصورة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد بحسبته ولا يستطيع التأثير في المنكر بالإزالة، ومع ذلك لا يخاف مكروها، وهذا لا تجب عليه الحسبة لعدم جدواها، ولكنها تستحب لـ((إظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين) [3].

الصورة الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه نتيجة احتسابه، ولكن المنكر يبطل بفعله، وهو بذلك متردد بين عدم الوجوب لأن المكلف هنا في حكم العاجز، وعدم الحرمة لأن حسبته قربة، والغزالي يرى نتيجة لذلك أنه مستحب بدليل ما ورد في فضل قول كلمة الحق عند السلطان الجائر [4]، فهي قد لا تؤثر في إصلاح السلطان، ومع ذلك قد ينتج عنها إذية كبيرة للداعية، فكيف إذا أيقن تأثير إصلاحه، فإن الاستحباب حينئذ يشتد.

2 ـ المخاطبون بالإصلاح

يرى الغزالي هنا ـ أيضا ـ اتساع مجال الأفراد الذين يشملهم

---

[1] المرجع السابق .

[2] المرجع السابق 2/319.

[3] المرجع السابق .

[4] الترمذي، السنن، ط1، بيروت دار الكتب العلمية، (كتاب الفتن)، رقم 2100.

خطاب الإصلاح، فلا يشترط فيهم التكليف[1]، بل يرى مجرد كونهم بشــرا يكفي لأن يحتســب عليهم لأن المنكــر أعم من المعصــية، يقــول الغــزالي: (وقــد عــدلنا عن لفــظ المعصــية إلى هــذا [لفــظ المنكــر]لأن المنكــر أعم من المعصــية،إذ من رأى صــبيا أو مجنونــا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه)[2]

وليس الغرض من ذلك هو صــفاء صــورة المجتمــع الإســلامي الظاهرة فقط، وإنما تربية المجتمع الإسلامي بجميــع أفــراده على الغيرة من أن تنتهك محارم الله تعالى فيه حتى ولو كان ذلــك من صبي لم يكلــف أو مجنــون لا يعقــل، يقــول الغــزالي: (وليس ذلــك لتفاحش صورة الفعــل وظهــوره بين النــاس، بــل لــو صــادف هــذا المنكر في خلــوة لــوجب المنــع منــه)[3]، وفي هــذا الإنكــار احــترام لإنسانية الصبي والمجنون، وصيانة له من التدنس بالمعصــية، ولــو لم يكن مكلفا [4].

وما دام الشرط الوحيد للمحتسب عليــه هــو(الإنســانية) فــإن الإصلاح يشمل كل أفــراد المجتمــع بــدءا بالأقــارب وانتهــاء بــأعلى جهاز في الدولــة، يقــول الغــزالي مبينــا شــمولية الإصــلاح في هــذا الجــانب: (فتثبت ولايــة الحســبة للولــد على الوالــد، والعبــد على المولى،والزوجة على الزوج، والتلميذ على الأســتاذ، والرعيــة على الوالي.. كما تثبت للوالد على الولــد، والســيد على العبــد، والــزوج على الزوجة، والأستاذ على التلميذ، والسلطان على الرعية) [5]

والفرق الوحيد بين حسبة الأدنى على الأعلى، وحسبة الأعلى على الأدنى هو في مراعاة مراتب النهي حفظا للحرمات، وإعطاء للولايات الشرعية حقها من الاحترام.

فللولــد أن ينكــر على والــده، ولكن في المرتبــتين الأولــيين فقــط:التعريــف، ثم النصــح بــاللطف، وليس لــه الحســبة بالســب والتعنيف والتهديد أو بمباشرة الضرب.

---

[1] شروط التكليــف الــتي نص عليهــا الفقهــاء هي: العقــل والبلــوغ وحضــور الذهن وعدم الإكراه والإسلام أو بلوغ الدعوة، انظر : المستصــفى 1/83 ومــا بعدها.

[2] إحياء علوم الدين: 2/327.

[3] المرجع السابق : 2/324.

[4] المرجع السابق 2/328.

[5] المرجع السابق 2/318،317 (بتصرف).

ونفس الأمـر ينطبـق على الزوجـة مـع زوجهـا أو العبـد مـع سـيده، فهمـا قريبـان من الولـد في الولايـة [1]، وذلـك لأن مقصـد الشارع هو حفظ قيام بناء المجتمع على ما هو عليه، فـإذا مـا أدى إنكـار المنكـر أو الأمـر بـالمعروف إلى تهـد يم هـذا البنـاء وجب السـكوت؛ لأن المضـرة المنجـرة عن الإنكـار أكـبر من المصـلحة المتوقعة منه.

والأمر بالنسـبة للـولاة أشـد، فليس للرعيـة معهم ــ في رأي الغزالي ــ إلا التعريـف والنصـح، ويـبرر ذلـك بقولـه: (من حيث أن الهجوم على أخذ الأموال من خزانته وردها إلى الملاك، وكسر آنية الخمور في بيته، يكاد يفضي إلى خـرق هيبتـه، وإسـقاط حشـمته، وذلـك محظـور ورد النهي عنـه، كمـا ورد النهي عن السـكوت عن المنكر)[2]

زيادة على أن ذلك قد يفضي إلى إذية كبيرة للمنكر، والشرع قد جعله في حل حين يتعرض لذلك، أما الإنكـار باللسـان فـواجب على العلمـاء لا مندوحـة عنـه، وقـد روي من إنكـار الغـزالي على أمـراء عصـره وحكامـه الشـيء الكثـير، ومن ذلـك كتابـه (التـبر المسـبوك في نصـيحةالملوك) الـذي ألفـه بالفارسـية للسـلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، ويعتبر من الكتب الرائدة في الفقه الدستوري مما يكسب الغـزالي مـع كتبـه السياسـية الأخـرى لقب (الفيلسـوف السياسـي)[3]، وقـد بين في هـذا الكتـاب عشـرة من أصول العدل والإنصاف تتضمن كثيرا من النظريـات في السياسـة الشرعية[4].

ولا بد من التنبيه هنا إلى قضيتين يركز عليهما الغـزالي كثـيرا في كتبه هما:

أ ـ وجوب التنقل للمخاطبين:

فالمصلح ليس مدرسا ينتظر مجيء تلاميذه، وإنما هـو داعيـة يبحث عن مجال لدعوته وإصلاحه، يقول الغزالي: (وليس للإنسـان أن يقعد في بيته، ولا يخرج للمسجد لأنه لا يرى الناس لا يحسنون

---

[1]) المرجع السابق 2/318.

[2]) إحياء علوم الدين: 2/318.

[3]) د. محمد عبد المعز نصر، فلسفة السياسة عن الغزالي، (ضمن مهرجان الغزالي)، ص428.

[4]) إحياء علوم الدين: 2/342.

الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي، وكذا كل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام، أو في وقت بعينه، وهو قادر على تغييره، فلا يجوز أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت، بل يلزمه الخروج، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع ويقدر على البعض لزمه الخروج)[1]، وذلك اقتداء بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ فإنهم ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء، ويطلبون واحدا واحدا ويرشدونهم [2]، فقد كان ﷺ يأتي مجالس قريش، ويدعوهم ويخرج إلى القبائل في منازلها، ويدعوها، ولو استدعى ذلك الرحلة أو السير لمسافات الطويلة[3].

ب ـ انتهاج الأساليب المناسبة لكل صنف من الناس:

وذلك لأن البشر مختلفو المشارب والتصورات،و مختلفو الطبائع والعادات، ولذلك، فإن (على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة ليكون انشغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة، والاشتغال بوعظه فيما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان) [4]

ولأجل هذا الاختلاف نجد الغزالي في جميع كتبه يهتم بالبحث عن طوائف الناس ومواقفهم حول كل قضية من القضايا ليعطي بعد ذلك العلاج الذي يراه مناسبا لكل طائفة.

ففي (معراج السالكين) مثلا يجعل عدد الناطقين بكلمة الشهادة سبع فرق، ولكل فرقة ما تساس به[5].

وفي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) يذكر مقامين للحديث عن المتشابهات، ولكل مقام حكمه اللائق به[6].

وفي (الاقتصاد في الاعتقاد) قسم الناس باعتبار اعتقادهم

---

[1] المرجع السابق 3/45.

[2] المرجع السابق .

[3] انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، القاهرة: مطبعة بولاق 2/31 ـ 32.

[4] إحياء علوم الدين: 4/55.

[5] معراج السالكين (ضمن الرسائل الفرائد) ص222.

[6] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (ضمن القصور العوالي) ص160.

للحق إلى أربعة فرق، ولكل فرقة سياستها النافعة لها [1].. وهكـذا في جميع كتبه ورسائله.

والذي يهمنـا هنـا هـو تبـيين أصـناف النـاس بحسـب أسـلوب الإصلاح الممارس نحوهم، وقد ذكر الغـزالي ذلـك ببعض التفصـيل في كتابـه (القسـطاس المسـتقيم) حين سـأله رفيـق التعليم عن أصناف الخلق وكيفية علاجهم، فذكر أنهم ثلاثة: (عـوام، وهم أهـل السلامة، وخواص هم أهل البصيرة وخـواص الـذكاء، ويتولـد بينهم طائفـة هم (أهـل الجـدل والشـغب) [2]، وتكـاد معظم التقسـيمات الأخرى التي ذكرها الغزالي ترجع إلى هذه الأصناف.

وهـو يسـتند في هـذا التقسـيم إلى قولـه تعـالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ﴾ (النحـل:125)قـال الغـزالي: (فـأدعو هـؤلاء [العـوام] بالموعظـة، وأهل البصيرة بالحكمة، وأدعو أهل الشغب بالمجادلة) [3]

وسنرى هنا طريقة تعامل الغزالي مع هذه الأصناف:

العوام:

و يعرفهم الغزالي بأنهم أصحاب السـلامة الـذين ليسـت لهم فطنة لفهم الحقائق، ولو كـانت لهم هـذه الفطنـة ليس لهم معهـا داعيـة الطلب لأن الحـرف والصـناعات شـغلتهم عن ذلـك، وليس فيهم أيضا داعية الجدل.

والأفضل لهم في رأيه هو الاشتغال بـالحرف والصـناعات عن البحث في المتشابه من أصول الدين أو المختلف فيه من فروعه، وذلك لأنهم بالسؤال متعرضـون لمـا لا يطيقونـه، وخائضـون فيمـا ليسوا أهلا له[4].

ويبين علة هذا الوجوب بـ (أن العامي لا يخلو من سؤال عالم أو جاهل)، فإن سأل جـاهلا زاده جوابـه جهلا، بـل ربمـا ورطـه في الكفر من حيث لا يشعر، وإن سأل عالما عجز عن تفهيمـه، وذلـك

---

[1] الاقتصـاد في الإعتقـاد، تحقيـق عـادل الغـوا، ط1، بـيروت: دار الأمانـة، 1388ه، ص76،75.

[2] القسطاس المستقيم ص85.

[3] المرجع السابق .

[4] إلجام العوام عن علم الكلام ص63.

لأنه صرف عمره لغير العلم، فكيف يكون أهلا للخوض فيه؟) [1]

وانطلاقا من هذا يعطي الغـزالي قاعـدة لا تـزال تـتردد وهي (كـل كبـيرة تجـري على العـامي أهـون من أن يخـوض في العلم، فيكفر من حيث لا يدري)[2]

ومن خلالها يحدد إطارا لدعوة العوام وتعليمهم يقيهم غوائــل الخوض فيما لا يطيقون، وذلك في أصول الدين وفروعه.

أما في أصول الدين، فليس على العامي أن يعتقد إلا مــا في القرآن الكريم من (أن الله واحد حي عالم خبير سميع بصير غفـار ليس كمثله شيء، إلى جميع ما ورد في القـرآن الكـريم، والسـنة الشريفة، واتفقت عليه الأمة، فذلك كاف في صـحة الـدين.. وأمـا إن خطر له متشابه، فليس عليه إلا أن يقـول: آمنـا باللـه،كـل من عند ربنا)[3]

فإن أخذ هذا العامي يجادل في هذه الصفات، أي يثير الشــبه نحوها كأن يقول:علمت أن الله عالم، ولكن لا أدري هل هـو عـالم بالذات،أم بعلم زائد عليـه؟ أو أخـذ يتكلم في صـفات اللـه تعـالى، فقـد خـرج عن كونـه عاميـا والتحـق بأهـل الجـدل، ولهم علاجهم الخاص بهم.

أما في فروع الدين، فينهى الغزالي أن يخاض مع العامــة في الخلاف الوارد فيها، لأن في المتفق عليه غنيـة (وقـد اتفقت الأمـة على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع، وأن الكسب الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا والسـرقة والخيانـة وغـير ذلـك من المحظورات حرام، وأن الفرائض كلها واجبة، فلذلك يقتصـر معهم على تعليم العبـادات والأمانــة في الصــناعات الــتي هم بصــددها، وتملأ قلوبهم بالرغبة والرهبة دون أن تحرك في نفوسهم شـبهة[4]، فإن طالب بالمختلف فيه قبل أداء المتفق عليه فهو جــدلي وليس بعامي.

وأما إن فرغ من حدود التقوى، وأشكلت عليه بعض الخلافات الفقهية فإن الغزالي ينصحه بالأخذ بـالأحوط، لأن جميـع المـذاهب

---

[1] القسطاس المستقيم ص86.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق .

[4] إلجام العوام عن علم الكلام ص53.

تشترك في القول به [1]، فإن ثقل عليـه، أو لم يمكن الجمـع، فـإن الغزالي ينصحه أن يجتهد مع نفسه، فينظر أي الأئمة أفضل عنده، أو صوابه أغلب على قلبه،فيلتزم مذهبـه، كمـا يلـتزم كـل شـخص الطبيب الذي يثق فيه أو يراه مناسبا له[2].

وما ذكره الغزالي وغيره، بل كاد يجمع عليه المتــأخر ون من ضــرورة الــتزام العــوام ومن هــو في حكمهم المــذاهب الفقهيــة المعتــبرة حــل لكــل الإشــكالات الفقهيــة الــتي تعترضــهم وتنظيم للمجتمع الإسلامي وتوحيد له، فإنه لو فتح باب الاجتهاد للعـوام، أو لكل من يشم في نفسه رائحة العلم من غير تمكن منه لجـر ذلـك إلى خطـر عظيم على الفقـه الإسـلامي، بـل الشـريعة الإسـلامية نفسها.

الخواص:

وهم عند الغزالي من اجتمعت فيهم القريحة النافذة والفطنة القوية مع خلو باطنهم عن التقليد والتعصب، مع الثقة في المصلح (فلا هداية إلا بعد إيمان .. ومن لم يؤمن بأنـك تعـرف الحسـاب لا يمكن أن يتعلم منك) [3]

والغزالي يدعو إلى التعامـل مـع هـؤلاء بالحكمـة، وهي عنـده وصف للعلم اللدني[4] الذي هـو هبـة من اللـه تعـالى، قـال تعـالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْـرًا كَثِـيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)، يقول الغزالي: (وحقيقـة الحكمة تنال من العلم اللدني، وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبـة لا يكون حكيما، لأن الحكمة من مواهب الله تعالى)[5]

ويحرم الغزالي أن توضع هذه الحكمـة في غـير أهلهـا، وذلـك لعدم قدرتهم على فهمها، وقد سمى كتبـه ورسـائله الحاويـة على

---

[1] القسطاس المستقيم ص87.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق ص85.

[4] استمد الصوفية، ومن بينهم الغزالي هذا المصطلح من قوله عن الخضـر عليه السلام : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف: 65)، فهم يعتبرون الخضر عليه السلام غير موحى إليه، وإنما حصلت لـه تلـك العلـوم بـالتعليم الربـاني، انظر: الرسالة اللدنية ص117.

[5] الرسالة اللدنية (ضمن القصور العوالي) ص118.

ذلك بـ: (المضنون به على غير أهله) [1]

وقـد أشـار إلى هـذه الرسـائل في كثـير من كتبـه، ونهى أن توضع بين أيدي العامة، فإنه (تكل عنه أكثر الأفهـام، ويستضـر بـه الضعفاء، بـل لا يصـلح إظهـاره إلا لمن أتقن علم الظـاهر، وسـلك في قمـــع الصـــفات المذمومـــة من النفس وطـــرق المجاهـــدة، فاستقامت نفسه على سواء السبيل، فلم يبق له حـظ في الـدنيا، ولم يبق له طلب إلا الحق، ورزق مـع ذلـك فطنـة وقـادة وقريحـة منقادة وذكاء بليغا وفهما صافيا) [2]،ويضيف قائلا: (وحرام على من يقــع ذلــك الكتــاب بيــده أن يظهــره إلا على من اســتجمع هــذه الصفات) [3]

ويستند الغزالي لذلك بالأخبار والآثار الكثيرة، كقول عيســى ـ عليه السلام ـ: (لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير، فإن الحكمة خير من الجوهر، ومن كرهها فهو شر من الخنازير)[4]، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل:أما سمعت رسـول اللـه ﷺ قال: (من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار) [5]، فقــال:(اتــرك اللجــام واذهب، فــإن جــاء من يفقــه وكتمتــه فليلجمني، فقد قال الله تعـالى:: ﴿ وَلَا تُؤْتُـوا السُّـفَهَاءَ أَمْـوَالَكُمُ ﴾ (النساء:5) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسـده ويضـره أولى) [6]

---

[1] بقيت مجموعة من هذه الرسـائل ولكن الكثـير من البـاحثين يشـكك في صحة نسـبتها إلى الغـزالي لاحتوائهـا على بعض المسـائل الـتي أنكرهـا أو رد عليها كالقول بقدم العـالم، ونفي العـالم القـديم بالجزئيـات ، وقـد أشـار إلى ذلك ابن الصلاح وأيده السبكي (انظر: السـبكي، الطبقـات الكـبرى،4/132)، ولذلك فإن الرسائل التي بين أيدينا والمسماة (المضنون به على غير أهله) لا تحتـوي على أي إشـارة لـذلك، بـل تتحـدث عن الربوبيـة والملائكـة والـروح والمعجـزات وغيرهـا، (انظـر: المضـنون بـه على غـير أهلـه،(ضـمن القصـور العوالي)، ص302 ـ 362).

[2] جواهر القرآن ص43.

[3] المرجع السابق .

[4] إحياء علوم الدين: 1/58.

[5] ابن ماجة، السنن، القـاهرة: دار الكتـاب المصـري، بـيروت: دار الكتـاب اللبناني، (المقدمة)،ص1/93. رقم 261.

[6] إحياء علوم الدين: 1/58.

وينبه الغزالي إلى أن هذه الحكمة أو الحقائق والأسرار الـتي يحـرم منهـا غـير أهلهـا لا تنـاقض الظـاهر (فمن قـال:إن الحقيقـة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفـر أقـرب منـه إلى الإيمـان) [1]،ولكن سـر إخفائهـا أو منعهـا غـير مسـتحقيها يرجع عنده إلى سببين:

سبب ذاتي: يرجع إلى دقة بعض العلوم الحكمية بحيث تكل أكـثر الأفهـام عن إدراكهـا، ويسـتحيل مـع ذلـك تبسـيطها، أو أن تبسيطها يزيل نضارتها وقوتهـا، فيختص بإدراكهـا الخـواص حديـدو الذكاء، شفافو الأرواح،ولهذا لم يـذكر رسـول اللـه ﷺ من صـفات الله تعالى إلا ما ظهر ظهورا جليا للأفهام، ولو ذكر ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة لم يفهموه[2]، وكان في مخاطبته يفـرق بين مستويات الناس في ذلك.

سبب مصلحي: وهـو لا يعـود إلى دقـة المعلـوم أو صـعوبة فهمه فهو مفهوم في نفسه، لكن ذكره يضر بالعامة، ومن هـو في حكمهم، كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش، ويضرب الغزالي مثلا لذلك بالحديث عن القدر(فإنه لو أفشي لأوهم عند أكثر الخلق عجزا، إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم)[3]

المجادلون:

وهم عند الغـزالي أحـد اثـنين: (إمـا من فيهم فطانـة ظـاهرة ترقوا بها عن العوام ولكنها ناقصـة، أو كـانت في الفطـرة كاملـة، ولكن باطنهم مشحون بالخبث والعناد والتعصب والتقليد)[4]

ووجود مثل هذا الصنف خطر على المجتمع باعتبارهم مصـدر الشبهات والأباطيل المنتشرة فيه، وهم أيضا مطلب لدعاة السوء، يتخذونهم مطية لمحاربة الحـق، أو إشـاعة الفسـاد، ولـذلك ينصـح الغزالي معاملتهم بما يلي:

المجادلة الحسنة:

ويعني بها الغـزالي أخـذ الأصـول الـتي يسـلم بهـا المجـادل، واستنتاج الحـق منهـا، مـع الإبتعـاد عن اللجاجـة والمـراء والجـدال

---

[1] المرجع السابق 1/100.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق 1/101.

[4] القسطاس المستقيم ص90.

المنهي عنه[1].

وفي هذا التعريف تفريق دقيق بين الجدل الذي نص عليه القرآن الكريم، وبين المراء المنهي عنه في النصوص الكثيرة، وقد ذكر الغزالي مستنده في هذا التعريف وهو إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع خصمه الكافر، يقول الغزالي: (وليته كانت له أسوة حسنة بإبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ حيث حاج خصمه،فقال: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة:257)، فلما رأى أن ذلك لا يناسبه، وليس حسنا عنده عدل إلى الأوفق بطبعه والأقرب لفهمه، فقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة:257)) [2]

والمجادلة الحسنة تحتاج إلى مران طويل وصبر عظيم، وقد جعل الغزالي كتابه (القسطاس المستقيم) نموذجا لها، فقد جاء على شكل حوار بينه وبين رجل من الباطنية، وقد استهله بقوله: (إخواني،هل فيكم من يعيرني سمعه لأحدثه بشيء من أسماري، فقد استقبلني رفيق من رفقاء (أهل التعليم)، وغافصني [3] بالسؤال والجدال مغافصة من يتحدى باليد البيضاء والحجة الغراء) [4]، ثم ذكر الحوار الذي دار بينهما، والذي شمل الكتاب جميعا.

والذي يدل على أن قصد الغزالي ليس الرد على((التعليمية) فحسب، وإنما ذكر نموذج للمجادلة الحسنة قوله في آخر الكتاب: (وهاكم ـ إخواني ـ قصتي مع رفيقي، تلوتها بعجرها وبجرها[5] لتقضوا منها العجب،وتنتفعوا في تضاعيف هذه المحادثات بالتفطن لأمور هي أجل من تقويم مذهب أهل التعليم، فلم يكن ذلك من غرضي) [6].

وكتابه (تهافت الفلاسفة)نموذج جيد لها أيضا، فقد كان

---

[1] المرجع السابق ص90،89.

[2] المرجع السابق ص42.

[3] المغافصة: هي الأخذ على غرة، انظر: ابن منظور، لسان العرب 7/61، رقم 4424.

[4] القسطاس المستقيم ص41.

[5] تعبير شائع في اللغة العربية يقصد به: أفضيت بأمري كله، انظر: ابن منظور، لسان العرب، 4/39 رقم:2637.

[6] القسطاس المستقيم ص101 .

يلزمهم بأقوالهم وأقوال غيرهم التي لا يعتقدها حتى يبين تهافت ما ذهبوا إليه، لأن مقصد المجادلة لا ينحصر في دعوة المجادل إلى الحق، فتلك غاية عليا، وتعصب المجادل يحول ـ أحيانا كثيرة ـ دون تحقيقها، ولكنها مع ذلك تقصد إلى رد الشبهات وتفنيدها وحماية المجتمع منها.

ولرد الشبهات التي تحاول الانحراف بالمجتمع الإسلامي عن مساره الصحيح يجعل الغزالي وجود المتكلمين الذين يتكفلون بمحاجة الكفار ورد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات فرضا كفائيا يجب أن لا يخلو منه المجتمع الإسلامي، يقول في (الاقتصاد في الاعتقاد): (فوجب أن يكون في كل قطر من الأقطار أو صقع من الأصقاع مشتغل بهذا العلم يقاوم دعاة المبتدعة، ويستميل المائلين عن الحق ويصفي قلوب أهل السنة عن عوارض الشبهة، فلو خلا عنه القطر حرج به أهل القطر كافة، كما لو خلا عن الطبيب والفقيه) [1].

تعليمه الحق:

وتعريفه به والبرهنة له عليه وتعليمه موازين ذلك، وذلك كله إن كانت فيه فطنة، وكان فيه نوع من القبول للحق[2]، وهو بذلك يكاد يلتحق بقسم الخواص.

استعمال الشدة:

فإن أصر هذا المجادل على عناده، وتعدى خطره إلى المجتمع فينبغي في رأي الغزالي أن يشتد معه، يقول الغزالي: (فإن لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه ولجاجه وعناده عالجته بالحديد، فإن الله تعالى جعل الحديد والميزان قريني الكتاب) [3].

هذا هو تقسيم الغزالي لأصناف المخاطبين بالإصلاح بحسب الأسلوب الممارس نحوهم، ولهذا التقسيم قيمة كبيرة في تفهم آراء الغزالي ومواقفه، والتي قد تبدو متعارضة ظاهر الأمر، وذلك أنه يتكلم في كل مسألة بحسب الصنف الذي يتوجه إليه، وقد أشار إلى هذا العامل ابن طفيل في قوله:((وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي، فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع

---

[1] الاقتصاد في الاعتقاد ص77.

[2] القسطاس المستقيم ص90.

[3] المرجع السابق .

ويحل في آخر، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها)[1]

3 ـ موضوع الإصلاح

يختلف موضوع الإصلاح في رأي الغزالي بحسب مستوى المخاطبين، فلكل صنف من الناس الموضوع الذي يناسبه، ولكن الغزالي مع ذلك يضع ضوابط للمنكر العام الذي تتعلق به الحسبة الشرعية، وسنذكر هنا تلك الضوابط، ثم نعقب عليها بنماذج لمواضيع طرقها الغزالي في نقده لواقعه الاجتماعي كتصوير لشمولية الإصلاح عنده.

أ ـ ضوابط المنكر:

يشترط الغزالي للمنكر الذي تجب إزالته أربعة شروط هي:

إنكار الشرع له:

لا العقل ولا العادة ولا الهوى، والمتكلمون والأصوليون تبع لهم يبحثون هنا مسألة (التحسين والتقبيح) [2]، وهل هي بالعقل أم بالشرع، والغزالي ينتصر فيها للمذهب الأشعري القائل بأن التحسين والتقبيح من الله تعالى، وأنه لا تكليف قبل ورود الشرع [3]، ويهتدي أثناء تلك النصرة إلى نظرية (سبق الوهم إلى العكس الاقترانية الشرطية) [4]، يقول فائز الحاج ـ الباحث المتخصص في هذه النظرية ـ: (فالغزالي صاحب نظرية سبق الوهم إلى العكس

---

[1] ابن طفيل، حي بن يقظان، تحقيق جميل صليبا وكامل عباد، دمشق: مطبعة جامعة دمشق،1962، ص14، وهو ما اختاره الكثير من الباحثين المتأخرين متأثرين في ذلك برأي د.سليمان دنيا في كتابه الحقيقة في نظر الغزالي، حيث يقول: (لقد فهمت الغزالي باحثا يشرف على الناس من عل، فيراهم مختلفين في الإستعداد والمدارك، ويرى أن ما يليق بواحد منهم أو بجماعة قد لا يليق بالآخرين، فيقدم لكل منهم ما يليق به)، انظر: د. سليمان دنيا، الحقيقة في نظر الغزالي،ط4، القاهرة: دار المعارف ص89.

[2] ذكر الغزالي لهذا المصطلح ثلاث مدلولات هي: ــ الحسن ما وافق غرض الفاعل، والقبيح ما خالفه – الحسن ماحسنه الشرع والقبيح ما نهى عنه – الحسن ما أباحه الشرع والقبيح ما نهى عنه، انظر: المستصفى 1/56.

[3] إحياء علوم الدين: 2/325.

[4] يريد الغزالي بهذا المصطلح ما تجده النفس من اقتران بين الأشياء، كنفرة من نهشته حية عن الحبل المبرقش اللون لتذكره عند رؤيته الأذى الذي عرض له، انظر: المستصفى 1/59.

الاقترانيــة الشــرطية، قــد ســبق بــافلوف [1] وغــيره من علمــاء الاشتراط بقرون طويلة)[2].

وليس هذا مجال البحث في التحسين والتقـبيح وأدلـة ذلـك، وإنمـا غرضـنا بيـان أن الشــرع هــو المحتكم إليــه في التحســين والتقبيح، والمفتي بذلك هم العلماء، وهذا يجعل من العلمـاء قـادة للأمة وأهل التوجيه فيها، وهو ينبهنا إلى خطورة تسارع الكثـير من الدعاة إلى الفتوى بعلم أو بغير علم.

وجود المنكر في الحال:

فلا ينبغي الحسبة على منكر لم يحـدث بعـد إلا إذا علم عـزم المنكر عليـه على ارتكابـه، وحينـذاك يكتفي بوعظـه بلين، وبـدون تشدد، بل إن الغزالي لا يرى جواز ذلك إن أنكـر عزمـه على فعـل تلك المعصـية (فـإن فيـه إسـاءة ظن بالمسـلم، وربمـا صـدق في قوله، وربما لا يقدم على ما عزم عليه)[3]، وللمعصية عند الغــزالي بهذا الاعتبار ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن تكون قد مضـت، فليس للمحتسـب إلا أن يعظ مرتكبها بعدم العودة، وليس لـه أن يقيم الحـد أو التعزيـر لأن ذلك للولاة لا للآحاد [4]، وهذه مسؤولية القضاء لا المحتسب.

الصورة الثانية: أن تكـون تلـك المعصـية راهنـة، وصـاحبها مباشر لها (فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن، مـا لم يـؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها) [5].

الصورة الثالثة: أن يكون المنكر متوقعا، فلا يجوز الإنكـار ـ كما بينا ـ إلا إذا علمت منه تلك المعصية بالعادة، ويضرب الغـزالي لــذلك مثــالا بوقــوف الأحــداث على أبــواب حمامــات النســاء (فـإنهم،وإن لم يضـيقوا الطريـق لسـعته، فتجـوز الحسـبة عليهم لإقامتهم من الموضع، ومنعهم من الموقف)[6]

والغزالي يطلق الحكم في هذه المسألة قياسـا على الخلـوة

---

[1] إيقاف بافلوف (1849 ـ 1936)، عالم بيولوجي روسي نال جائزة نوبـل سنة 1904م لأبحاثه في الغدد الهضـمية، انظـر: منـير البعلبكي، معجم أعلام المورد، بيروت: دار العلم للملايين، ص91

[2] د. فائز الحاج، نظرية سبق الوهم إلى العكس، د.ت،د،ط، ص355.

[3] إحياء علوم الدين: 2/324.

[4] المرجع السابق .

[5] المرجع السابق .

بالأجنبية، فإنها في نفسها معصية، لأنها مظنة الوقوع في المعصية (وتحصيل مظنة المعصية معصية)[1]، وهذا ما يطلق عليه الأصوليون (سد الذرائع)[2]

ظهور المنكر للمحتسب:

وذلك من غير تجسس، لأن المضار التي قد تترتب على ذلك التجسس أكبر من المنكر نفسه، ففيه إساءة ظن بالمسلم، واقتحام لحرزه الذي جعله الله له، ولو فتح باب ذلك لانتشرت الفوضى، وتسور كل واحد بيت من شاء متى شاء بحجة إزالة المنكر.

ويروي الغزالي في هذا قصة عمر حين تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة، فأنكر عليه، فقال: (يا أمير المؤمنين، إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد، فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه)، فقال: (وما هي؟)، فقال: (قد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (الحجرات:12)، وقد تجسست، وقال تعالى: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (البقرة:189)، وقد تسورت من السطح، وقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ (النور:27)، وما سلمت)، فتركه عمر، وشرط عليه التوبة[3].

وهذا يدل على ما للآداب والأخلاق من قيمة في الإصلاح، فإصلاح الغاية يستلزم إصلاح الوسيلة، فالغاية في الإصلاح لاتبرر الوسيلة.

ولكن ما حد الظهور والاستتار الذي يناط به وجوب الإزالة؟

يجيب الغزالي على ذلك بإعطاء قاعدة عملية هي أن (التجسس طلب الأمارات المعرفة، فالأمارة المعرفة إن حصلت

---

[6] المرجع السابق .

[1] المرجع السابق .

[2] عرفه الأصوليون بأنه: جسم مادة الفساد بقطع وسائله، والذرائع هي الوسائل، وهي إما معتبرة إجماعا كسب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله، أو غير معتبرة إجماعا كالمنع من الشركة في سكنى الدار مخافة الزنا، أو مختلف فيه كبيوع الإجال، انظر: محمد بن علي الشوكاني. إرشاد الفحول في تحقيق الحق من علم الأصول، بيروت: دار المعرفة، 1399ه، 1979م، ص246 ـ 247. و ابن جزي، تقريب الوصول إلى علم الأصول ص 149.

[3] إحياء علوم الدين: 2/325.

وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها، فأما طلب الأمارة المعرفة فلا رخصة فيه أصلا)[1]

ولتوضيح ذلك ذكر بعض الأمثلة، ومنها أن من أغلق باب داره، أو تستر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية إلا إذا ظهرت ظهورا يعرفه من هو خارج الدار،كارتفاع أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم، أو فاحت رائحة الخمر، أو إذا رئي فاسق، وتحت ثوبه شيء، ولا يجوز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة؛ فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر[2].

وهذا كله حذرا من اختلاط الإصلاح بأي إساءة للأدب، أو تعرض لحريات المسلمين التي كفلها الله لهم في الحدود المشروعة.

الإجماع على إنكاره:

فأما إن كان محل اجتهاد، أو وقع فيه الخلاف بين العلماء، فلا يجوز الإنكار فيه، يقول الغزالي ضاربا بعض الأمثلة على ذلك: (ليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر، وتناوله ميراث ذوي الأرحام)[3]

وقد اشتهر عن الغزالي في هذه المسألة القول بأن (كل مجتهد في الظنيات مصيب وأنها ليس فيها حكم معين من الله)[4]

وهنا يحتد الخلاف بين من يرى رأي الغزالي من أن جهود الإصلاح ينبغي أن توجه إلى الأصول قبل الفروع، وإلى القطعي قبل الظني، وإلى المجمع عليه قبل المختلف فيه، بل إنه لا يحتسب في المختلف فيه أصلا، وتدعوا إلى احترام الرأي الآخر مادام مؤسسا على أدلة، أو قال به أحد علماء الأمة المعتد بهم، وبين المدرسة السلفية الحديثة التي تنطلق من أن الحق واحد، والمصيب بالتالي واحد، ولذلك تدعو إلى الأرجح الذي تراه من المختلف فيه، وتدعو إلى الاجتهاد العام، وتعتقد أن الانتماء المذهبي بدعة حادثة في الدين يجب إزالتها.

---

[1] المرجع السابق .

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق .

[4] المستصفى من علم الأصول 2/364.

وهذه المسائل وجدت حقها من العناية عند الغـزالي، بـل إن رأيـه فيهـا، مـع اشـتداد التعصـب المـذهبي في عصـره،وقيـام المناظرات بين العلماء لنصرة مذاهبهم، وانتقال ذلك إلى العامـة، وتخاصمهم أحيانا في سبيل ذلك من الغرابة بمكان، بل لعله الرأي الأمثل الـذي يرفـع حـدة الخلاف ويوجـه عنايـة الأمـة إلى الأجـدى والأصلح، ويقضي على التعصب بجميع أشكاله.

وقد ذكر الغـزالي الشـبهات الـتي ينطلـق منهـا الـذين يـرون الحسبة في المختلف فيه من الفروع، ومن تلك الشبهات:

1. أن القول بتصويب جميع المجتهـدين محـال،لأنـه يـؤدي إلى الجمـع بين نقيضـين، فيكـون قليـل النبيـذ حلالا وحرامـا، والنكاح بلا ولي صحيحا وباطلا[1].
2. دلالـة بعض النصـوص الشـرعية الذامـة للاختلاف كقولـه تعـالى: ﴿ وَاعْتَصِـمُوا بِحَبْـلِ اللَّهِ جَمِيعًـا وَلَا تَفَرَّقُـوا ﴾ (آل عمران:103)، وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُـوا مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَهُمُ الْبَيِّنَـاتُ ﴾ (آل عمـران:105)، وبإجمـاع الأمة على الحث على الألفة والموافقة، والنهي عن الفرقـة والاختلاف [2].
3. ما ورد عن السلف الصالح من الحذر من الخطأ وإجمـاعهم على ذلك[3].

ومن أجوبة الغزالي عن تلك الشبهات:

أولا ـ أن الحكم الشرعي يتعلق بأفعـال المكلفين، لا بأعيـان الأشياء، وبذلك قد يحل لشخص ما يحرم على غيره، فالميتةــ مثلا ـ تحل للمضطر دون المختار، والصـلاة تجب على الطـاهر وتحـرم على الحائض.

وما دام الأمر كذلك، فليس هناك تناقض، لأن التناقض يحصل عندما (يجتمع التحليل والتحريم في حالة واحدة لشخص واحد في فعل واحد من وجه واحد، فإذا تطرق التعدد والانفصال إلى شـيء من هذه الجملة انتفى التناقض)[4]، وما أوهم التنـاقض هـو اعتقـاد تعلق التحليل والتحريم بأعيان الأشياء، وذلك غـير ممكن، لأنـه لـو

---

[1] المرجع السابق 2/367.

[2] المرجع السابق 2/374.

[3] المرجع السابق 2/374،375.

[4] المرجع السابق 2/367.

كان الأمر كذلك لما حرم الشيء بعد تحليله، فأعيان الأشياء ثابتة، وما يعرض لها هو المتغير.

ويضرب الغزالي مثالا على ذلك بقوله: (لو صرح [الشرع]، وقال:من غلب على ظنه أن النبيذ بالخمر أشبه فقد حرمته عليه،ومن غلب على ظنه أنه بالمباحات أشبه فقد حللته له لم يكن هذا التصريح متناقضا) [1]

ثانيا ــ أن التفرق المنهي عنه هو التفرق في الأصول لا الفروع، بدليل تفرق الصحابة واختلافهم، وزيادة على ذلك (إجماع الأمة على أنه يجب على المختلفين في المسائل الاجتهادية أن يحكم كل واحد بما هداه إليه دليله،ولو كان مخالفا لغيره، (والأمر باتباع المختلف أمر بالاختلاف)[2]

ثالثا ـ أن ما ورد عن السلف من الحذر من الخطأ يرد إلى جملة اعتبارات كخوفهم من مخالفة دليل قطعي،أو عدم استفراغ تمام وسعهم في البحث، أو خوفهم أن لا يكونوا أهلا للنظر..وغير ذلك من الاعتبارات[3].

ولعل رأي الغزالي بأن (كل مجتهد مصيب) مهما توجه إليه النقد، أو تطرق إليه احتمال الخطأ أقرب قول لرفع الخلاف بين الأمة في المختلف فيه، لأنه إذا قلنا بأن الحق واحد، وأن الراجح أحد المذاهب دون غيره أدى ذلك إلى الشحناء والتعصب، أو إلى تفريغ الجهود في غير مواضعها.

وقد قرر كل العلماء المنصفين أن الإنكار لا يكون إلا في المجمع عليه، لا في المسائل المختلف فيها، يقول (عبد الوهاب الشعراني)[4]: (ووسع على الأمة كما وسع عليهم نبيهم ﷺ واعتقد

---

[1] المرجع السابق .

[2] المرجع السابق 2/374.

[3] المستصفى 2/375.

[4] هو أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني (ت973هـ)، فقيه شافعي، وقف جهده على التصوف، له (الجواهر والدرر الكبرى) و(لوقح الأنوار) وغيرها من الكتب في الحديث والتصوف والفقه وقد تبع الشعراني الغزالي في قوله بأن كل مجتهد في الفروع مصيب. بل حاول أن يطبقه على جميع الفروع الفقهية في كتابه العظيم (ميزان مذاهب الأئمة الأربعة)، يقول عن هذا الميزان: (وصاحب الذوق لهذا الميزان يرى جميع مذاهب الأئمة المجتهدين وأقوال مقلديهم كأنها شريعة واحدة لشخص واحد، لكنها ذات مرتبتين كل من عمل بمرتبة منها بشرطها أصاب)(عبد الوهاب الشعراني ،ميزان مذاهب الأئمة

أن الإنسان لو ترك العمل بكل ما لم تصرح به الشريعة المطهرة، فلا حرج عليه ولا لوم في الدنيا والآخـرة إلا أن تجمـع عليـه الأمـة فحينئذ يحرم خرقه)[1]

هذا فيما يتعلق بـالخلاف في الظنيـات والفـروع، أمـا الخلاف البدعي المتعلق بأصول الدين، فـإن الغـزالي يـرى وجـوب الإنكـار فيه، يقول في ذلك: (والبدع كلهـا ينبغي أن تحسـم أبوابهـا، وتنكـر على المبتـدعين بـدعهم، وإن اعتقـدوا أنهـا الحـق، كمـا يـرد على اليهود والنصـارى كفـرهم، وإن كـانوا يعتقـدون أن ذلـك حـق، لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد)[2]

ولكن إنكار البدع مع أهميته ووجوبه وكـون الحسـبة فيـه أهم من الحسـبة في كـل المنكـرات، فيـه تفصـيل من حيث عموميـة الحسبة أو الاحتياج إلى إذن السلطان، فـالغزالي يـرى أن البدعـة إن كـانت غريبـة، والنـاس كلهم على السـنة، فلهم الحسـبة عليهـا بغير إذن السلطان، وأما إذا انقسم أهل البلد إلى مبتدعة وسنيين، وكان الاعتراض مثـيرا للفتن، فـالغزالي يـرى حرمـة الاعـتراض إلا لمن توفرت فيهم الشروط اللازمة لإنكار البدع[3].

ب ـــ نمـــاذج عن نقـــد الغـــزالي لواقعـــه الاجتماعي:

نظـرا لحاجـة المحتسـب إلى معرفـة المعـروف الـذي يتعين عليه الدعوة إليـه والمنكرالـذي يتعين عليـه النهي عنـه، فقـد اهتم الغزالي ببيان ذلك، فهو في معظم كتبه ينقد الظواهر السلبية في مجتمعه، وهو في نقده ذلك لا يكتفي بالظاهر، وإنما يعبر منـه إلى الباطن، فيحلل نفسيات أصناف الناس، ويـبين مكـامن الخطـأ في بواطنهم، وما يظهر منهـا بعـد ذلـك على سـلوكهم، وهـو لا يكتفي كـذلك بالجلائـل، بـل يعـبر منهـا إلى الـدقائق، فالكـل عنـده يجب إصلاحه، مع مراعـاة المـراتب في ذلـك، وسـننقل هنـا نمـاذج عن نقـده لواقعـه الاجتمـاعي كأمثلـة على شـمولية موضـوع الإصـلاح عنده.

الأربعة، مخطوط بمكتبة الأستاذ عمر محمد عبد الكريم بأولاد جلال، ص12)

[1]) عبد الوهاب الشعراني، كشف الغمة عن جميع الأمة،ط1/ مصـر: مكتبـة المشهد الحسيني 1/8.

[2]) إحياء علوم الدين: 2/327.

[3]) المرجع السابق .

المنكرات الظاهرة:

اهتم الغـزالي بنظافـة محيـط المجتمـع الإسـلامي وسـريان النظام فيه، فلذلك اعتبر من المنكرات الـتي يجب تغييرهـا (وضـع الأسـطوانات وبنـاء الـدكات متصـلة بالأبنيـة المملوكـة.. ووضـع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق، فكل ذلـك منكـر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المـارة[1]،ويعلـل ذلـك بأن الشوارع مشتركة المنفعة، وليس لأحد أن يختص بهـا إلا بقـدر الحاجة)

ومن المنكرات (طرح القمامـة على الطـرق، وتبديـد قشـور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه الـتزلق والتعـثر، وإرسـال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة، فإن ذلك ينجس الثياب، أو يضيق الطرق [2]..

وغيرها من الأمثلة التي عبر عنها الغزالي بأنها من (منكــرات الشوارع)، وهي لا تختص بواقعه فقط، بل إن الكثير منهـا موجـود في مجتمعاتنــا ومــدننا، ويضــيف الغــزالي إلى ذلــك (منكــرات الضيافة) و(منكرات الأسواق) و(منكرات الحمامات) وغيرها.

وغرض الغزالي من التدقيق في هذه القضايا هو عدم اهتمام الناس بهـا أو عـدم تنبههم لهـا من جهـة، ومن جهـة ثانيـة اشـتهار المنكرات الدينية الصرفة كترك الصـلاة وتـرك الصـيام وغـير ذلـك مما علم من الدين بالضرورة.

المنكرات الباطنة:

خصـص الغـزالي الربـع الثـالث من (الإحيـاء) لعـد وتحليـل المنكرات الباطنة باعتبارها أعظم خطرا من المنكـرات الظـاهرة، ولــذا وجب أن يكــون في الأمــة من يحتســب لهــذا النــوع من المنكــرات، فقــد قــال تعــالى: ﴿ وَذَرُوا ظَـاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَـهُ ﴾ (الأنعام:120)

ومن أمثلة المنكرات الباطنة التي اهتم بها الغزالي (الغرور)، فمن الغـرور مثلا غـرور العصـاة من المؤمـنين بقـولهم: إن اللـه كريم، وإنا نرجو عفـوه، واتكـالهم على ذلـك، وتسـميتهم غـرورهم وأمانيهم رجاء[3]، مع أن الرجاء مقام محمـود في الـدين، ولكنـه لا

---

[1]) المرجع السابق 2/339.

[2]) المرجع السابق .

[3]) المرجع السابق 3/384.

يصدق إلا على (محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلـة تحت اختيـار العبد، ولم يبق إلا مـا ليس يـدخل تحت اختيـاره، وهـو فضـل اللـه تعالى بصرف القواطع والمفسدات)[1]

ومن المغترين من العبـاد فرقـة أهملـوا الفـرائض، واشـتغلوا بالنوافل، وربمـا تعمقـوا في الفضـائل حـتى خرجـوا إلى العـدوان والسـرف، وفرقـة غلبت عليهم الوسوسـة في نيـة الصـلاة، فلا يدعهم الشـيطان يعقـدون نيـة صـحيحة، بـل يشـوش عليهم حـتى تفـوتهم الجماعـة وتخـرج الصـلاة عن وقتهـا، وفرقـة تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكـار من مخارجهـا، وفرقة ارتضوا بقراءة القرآن يهذونه هذا، وربما يختمونه في اليوم والليـل مـرة، ولسـان أحـدهم يجـري بـه، وقلبـه يـتردد في أوديـة الأماني، وفرقة اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة، وهم فيهـا لا يحفظـون ألسـنتهم عن الغيبـة وخـواطرهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام، وفرقة اغـتروا بـالحج فيخرجـون إلى الحج من غير خروج عن المظـالم وقضـاء الـديون واسترضـاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وغيرهم من فرق المغترين[2].

4 ـ مراتب الإصلاح:

يضـع الغـزالي للإصـلاح ثمـاني مـراتب، لابـد من مراعـاة التسلسل بينها، وهي:

أ ـ التعرف:

وهو البحث عن أدلة وجود المنكر، لأن الإنكار ـ كما علمنا ـ لا يكـون إلا على منكـر معلـوم واقـع، ولـذلك البحث عنـد الغـزالي طريقان:

شرعي: وهو العلم اليقيني بوجود المنكـر، وذلـك إن اشـتهر وجهـر بـه أو دلت عليـه الأدلـة الظـاهرة، وفي هـذه الحالـة يجب التغيـير بحسـب مراتبـه، يقـول الغـزالي: (وكـل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه، وهو قادر على تغييره، فلا يجوز أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت) [3]

غير شرعي: وهو الظن أو الشك في جريـان المنكـر الـذي لم يدل عليه دليل ظاهر، فليس للمصـلح أن يسـترق السـمع على

---

[1] المرجع السابق 4/143.

[2] المرجع السابق 3/400 ـ 402.

[3] المرجع السابق 2/342.

دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يستفسر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره، فإن ذلك كله من التجسس المنهي عنه، وهو هتك لحرمة المسلم بدليل ظني [1].

ب ـ التعريف:

وهو دلالة المنكر عليه على حرمة ما يفعله، لأنه يقدم عليه بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه [2]، ولما في التعريف من إيذاء للمعرف بنسبته إلى الجهل، فإن الغزالي يدعو إلى نصحه باللطف من غير عنف، ويضرب مثالا على ذلك بتعريف جاهل بوجوب الطمأنينة في الصلاة، فيقول له:إن الإنسان لا يولد عالما، ولقد كنا ـ أيضا ـ جاهلين بأمر الصلاة، ولعل قريتك خالية من أهل العلم.. وهكذا يترفق به ليحصل التعريف من غير إيذاء.

ويشبه الغزالي من يعرف غيره بغير أدب بمن يغسل الدم بالبول، يقول في ذلك: (ومن اجتنب محظور السكوت على المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول على التحقيق)[3]

وينصح الغزالي بأن يعتمد المصلح كل الوسائل التوضيحية لتعريف الناس الحق وأمرهم به، فإن كان الخطاب مع نجار لا يحسن إلا النجر، وكيفية استعمال الآلة (وجب على مرشده أن لا يضرب له المثل إلا بصناعة النجارة ليكون ذلك أسبق إلى فهمه، وأقرب إلى مناسبة عقله)[4]

ج ـ الموعظة:

وذلك فيمن يقدم على المنكر مع علمه بكونه منكرا، أو من أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا، وقد ذكر الغزالي الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ مع الخلق منتقدا ما صار إليه الوعظ في عصره، ومن تلك الطرق:

الاعتماد على ما ورد في القرآن الكريم والأخبار والآثار من مواعظ:

---

1) المرجع السابق : 2/329.

2) المرجع السابق .

3) المرجع السابق 2/330.

4) معيار العلم،ط2 بيروت : دار الأندلس 1978، ص25.

فالقرآن الكريم مليء بالمواعـظ كقولـه تعـالى عن لقمـان ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُـهُ يَـابُنَيَّ لَا تُشْـرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:12)، وكـذا الأخبـار والآثـار، (فعلى الواعظ أن يستكثر منها إن كان وارث الرسول ﷺ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما، وإنما خلف العلم والحكمة، ووراثة كل عالم بقدر ما أصابه)[1]

الموعظة بالقصة:

فـإن لهـا تـأثيرا كبـيرا على النفـوس، ولـذلك أولاهـا القـرآن الكريم قيمة كبيرة، بل أمر بها، يقول تعالى: ﴿ فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:176)، وكذلك في السنة، فقـد وردت قصـص كثـيرة في أحـاديث الرسـول ﷺ، وعلى ضـوء هـذا الهـدي القرآني والنبوي أولى الغزالي اهتمامـا كبـيرا بـالقص، مـع انتقـاده للقصاصين الذين اتخذوا القص حرفة، ويعلل ذلك بأن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر ولو كان صدقا، ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكـذب والنـافع بالضـار،ولـذلك لا يرى بأسا إن كان القاص صادقا صحيح الرواية [2].

ذكر تأثير المعاصي الدنيوي:

وذلك لأن تعجيل العقوبات في الدنيا متوقع على الذنوب، فما يصيب العبد من المصائب هـو بسـبب جناياتـه، وهـذا من الغـزالي فقه للواقع وإدراك لنفسيات النـاس، فـإن منهم (من يتسـاهل في أمر الآخرة،ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لجهله)[3]، ولذلك ورد عن السلف الصالح الآثار الكثيرة في بيان تعجيل الله العقوبـة في الدنيا على المعاصي.

ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب:

كالخمر والزنا وغيرها مع من يـراه متصـفا بهـا مسـتدلا على ذلك بقرائن الأحوال، فـ (العالم كالطبيب الحـاذق يسـتدل بـالنبض والسـحنة ووجـود الحركـات على العلـل الباطنـة)[4]، وذلـك اقتـداء بالرسول ﷺ الذي كان يعامل وينصح كل فرد بحسب ما يصلح لـه، ولهذا اختلفت الآثار ـ حتى أنها قد تبدو متعارضة ـ في بيان فضـائل

---

[1] إحياء علوم الدين:1/35 .

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق 4/53.

[4] إحياء علوم الدين: 4/55 .

الأعمال ومراتبها.

أما إن كان الواعظ يتكلم في جمع، أو من لا يعلم حاله، فـإن عليه (أن يعظهم بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه، إما على العموم، أو على الأكـثر، لأن في الشـرع أغذيـة وأدويـة، (فالأغذيـة للكافة، والأدوية لأرباب العلل)[1]

وفي الأخـير يحـذر الغـزالي أن يكـون هم الواعـظ أن يتـأثر الناس تأثرا عاطفيا محدودا، بـل ينبغي أن تكـون همتـه (أن يـدعو النـاس من الـدنيا إلى الآخـرة، ومن المعصـية إلى الطاعـة، ومن الحـرص إلى الزهـد، ومن البخـل إلى السـخاء، ومن الغـرور إلى التقوى) [2].

د ـ القول الغليظ:

ولا يعدل إليه إلا عند العجز عن المنع باللطف، أو حين تظهـر مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، ويستدل الغزالي لذلك بقولـه تعـالى عن إبـراهيم ﵇: ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَـا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنبياء:67)،ولهذه الرتبة أدبان:

الأدب الأول: أن لا يقدم عليها إلا عند الضـرورة، مـع يقينـه بتأثيرها في ردع المنكر عليه، فإن علم أن خطابـه بهـذه الكلمـات الزاجرة لا يؤثر فيه، فلا ينبغي أن يطلقها، بـل يقتصـر على إظهـار الغضب، والاستحقار له، والازدراء لمحله لأجل معصيته.

الأدب الثاني: أن لا ينطـق إلا بالصـدق مقتصـرا على قـدر الحاجة، فإن تطويل اللسان بالكذب أو فوق الحاجة ربما يزيـد من ترسيخ المنكر، ومن الأمثلـة الـتي ذكرهـا الغـزالي على ذلـك: (يـا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله)، فـ (كـل فاسـق أحمـق وجاهل، ولو لا حمقه ما عصى الله تعالى)[3]

هـ ـ التغيير باليد:

وهـو أن يسـتعمل القـوة في دفعـه ككسـر الملاهي وإراقـة الخمـر ومنعـه من الجلـوس على الحريـر وإخراجـه من الـدار المغصوبة، وذلك لا يمكن إلا في المعاصي الظـاهرة، أمـا معاصـي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصـية

---

[1] المرجع السابق .

[2] رسالة (أيها الولد)،(ضمن القصور العوالي)، ص139.

[3] المرجع السابق 2/331،330.

تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة [1]، ولهذه المرتبة ـ أيضا ـ أدبان:

الأدب الأول: أن لا يباشر التغيير بيده ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه بذلك، فإن قدر على أن يكلفه بإراقة الخمر أو كسر الملاهي، وغير ذلك فلا ينبغي له أن يفعل ذلك بنفسه.

الأدب الثاني: أن يقتصر في تغييره على القدر المحتاج إليه، فإن زيادة الأذى مستغنى عنها، (فيتوقى عند إراقة الخمر كسر الأواني، ولا يأخذ بلحيته في الإخراج، ولا برجله إذا قدر على جره)[2]

و ـ التهديد بالضرب والتخويف به:

إذا لم تجد كل المراتب السابقة، فحينذاك يلجأ معه إلى أسلوب التهديد والتخويف بقوله ـ مثلا ـ: (دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك، أو لأضربن رقبتك)[3]، فإن من الناس من لا يعتبر إلا بهذا، ولا حرج عليه في الكذب في ذلك الوعيد إذا لم ينفذه إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه.

وليس ذلك ـ كما يرى الغزالي ـ من الكذب المحظور، بل المبالغة في ذلك معتادة، ومثله مبالغة المؤمن في الإصلاح بين شخصين والتأليف بين الضرتين، وذلك مما قد رخص فيه للحاجة، وهذا في معناه، وأدب هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله: (لأنهبن دارك، أو لأضربن ولدك، أو لأسبين زوجتك، وما يجري مجراه)[4]

ز ـ مباشرة الضرب من غير إشهار سلاح:

يرى الغزالي جواز ذلك من غير إذن السلطة بشرط الضرورة مع الاقتصار على قدر الحاجة، وهذا مع مراعاة التدرج في كل المراتب السابقة، مع أمن الفتنة.

ويضرب مثالا على ذلك بفاسق يريد اغتصاب امرأة، (وكان بينه وبين المحتسب حائل، (فيأخذه قوسه ويقول له: خل عنها، أو

---

[1] إحياء علوم الدين: 2/331.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق 2/332.

[4] المرجع السابق .

لأرمينـك؛ فـإن لم يتخـل عنهـا لـه أن يـرمي، وينبغي أن لا يقصـد المقتل، بل الساق والفخذ وما شابهه) [1]

ح ـ اتخاذ الأعوان:

يرى الغزالي أنه عند عجز المنكر للمنكر عن مباشرة الإنكـار بنفسه يجوز له الاستعانة، بل وجوبها خاصة عند اسـتعانة الفاسـق بأعوانه (لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بـالمعروف، وأوائـل درجاتـه تجـر إلى ثوان، والثواني إلى ثوالث، وقد ينتهي لا محالـة إلى التضـارب والتضـارب يـدعو إلى التعـاون، فلا ينبغي أن يبـالي بلـوازم الأمـر بالمعروف)[2]،وهذا بشـرط عـدم أدائـه إلى فتنـة أكـبر من المنكـر الذي يريد تغييره ـ كما سبق بيانه ـ

هـذه هي المـراتب الـتي يراهـا الغـزالي للإصـلاح الاجتمـاعي وهي ترينا مدى اتساع مفهوم الإصلاح عنـده، فليس هـو بـالتعريف الفقهي وحده، ولا بالوعظ المؤثر فقط، وإنما بكل ما يمكن اتخاذه من وسـائل وهـو مـا يعـبر عنـه بقولـه: (كـل من قـدر على دفـع منكر،فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه)[3]

هذه هي الضوابط التي يضعها الغـزالي للإصـلاح الاجتمـاعي، وهي ترينـا مـدى اتسـاع تصـوره لمفهـوم الإصـلاح، بحيث يتعلـق التغيير عنده بكل المنكرات، ويعم القيام به كل المكلفين، ويشمل خطابه جميع البشر، وينتهج في سبيل تحقيقه كل الوسائل.

---

[1] المرجع السابق .

[2] إحياء علوم الدين: 2/333.

[3] المرجع السابق .

الفصل الثالث

أصول المنهج الإصلاحي

نتناول في هذا الفصل الأصول الكبرى التي يعتمد عليها الغزالي في عمله الإصلاحي، وهي أربعة أصول:

1. حقائق القرآن الكريم ومقاصده.
2. السنة النبوية علما وعملا.
3. التصوف: سلوكا ومعرفة.
4. أحكام العقل، والانفتاح الثقافي.

وقد خصصنا كل أصل منها بمبحث من المباحث.

أولا. حقائق القرآن الكريم ومقاصده

لاحظ الغزالي ما آل إليه التعامل مع القرآن الكريم في عصره، وما قبله من العصور، من حصر معانيه في ظواهر التفسير المتلقاة بالنقل، أو المجتهد فيها بالرأي، والتوقف عندها، وعدم الغوص في حقائقه الكبرى التي تشير إليها مبانيه وظواهره.

وقد زاد في عزلة حقائق القرآن عن عامة الأمة ومتطلبات حياتها تلك العلوم الكثيرة المرتبطة به، وهي وإن كانت الضرورة دعت إليها إلا أن زيادة التعمق فيها باعتبارها مقصودة لذاتها جعلها حجابا دون تفهم حقائقه المرتبطة بكل فرد على حدة، وبكل شأن من شؤون الحياة، فأصبح القرآن بذلك كتابا تاريخيا أو أثرا أدبيا لاموجها وهاديا ومربيا.

وقد دعا الغزالي إلى تعامل جديد مع القرآن ا لكريم بدل ذلك يقوم على تدبر آياته واستنباط المعارف الإيمانية منها، وإلى رعاية مقاصد ه وعدم الانشغال عنها بالدراسات المتعلقة به، باعتباره منبع العلوم بظاهره وباطنه، وتصريحاته وإشاراته.

1 ـ العلاقة بين مباني القرآن وحقائقه:

يقسم الغزالي العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم إلى قسمين: علوم آلية، يعبر عنها بالصدف، باعتبارها الغشاء الخارجي الذي

يحمي الجوهر، ولا يتوصل إلى الجواهر إلا بفتقه، وتلك العلوم هي المواد الأساسية المكونة للتفسير الظاهر.

وهي ـ عند الغزالي ـ خمسة علـوم: علم اللغـة، وعلم النحـو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر.

والغزالي ينتقد الاقتصار على هذه العلوم باعتبارهـا مقصـودة لذاتها وإهمال معاني القرآن الأساسية التي أنزل من أجلها[1].

ومن مظاهر هذا الاقتصار ما انتهى إليه جهل طائفة ظنـوا أن القــرآن هــو الحــروف وبنــوا عليهــا أنــه مخلــوق، لأن الحــروف والأصوات مخلوقة [2]، أما التفسير الظاهر فبه ـ كما يرى الغــزالي ـ قنع أكثر الخلق (وما أعظم غبنهم وحرمانهم إذ ظنوا أنــه لا رتبــة وراء رتبتهم)[3]

ولذلك يدعو الغزالي إلى الاقتصاد في هذه العلوم، والاقتصار منها على ما تمس إليه الحاجة، لأن كـل مـا يطلب لغـيره لا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه.

و هو يوصي بأن يقتصر من علم اللغة على ما يفهم منه كلام العرب وينطق به، ومن غريبها على غريب القـرآن والحـديث، دون التعمق في ذلك، ومن النحو على ما يتعلـق بالكتـاب والسـنة، أمـا التفسير فيكتفى بما يبلغ ضعف القـرآن الكـريم أو ثلاثـة أضـعافه، أما ما زاد على ذلك فهو ـ كما يقول الغزالي ـ (استقصاء مستغنى عنه)[4]

وقـد دعـا بـدل ذلـك إلى النظـر في مقاصـد القـرآن الكـريم وحقائقه الباطنة باعتبارها الجوهر الذي يغطيه الصـدف، أو اللبـاب الذي يحميه القشر.

الرد على المحرمين للتفسير بالرأي:

لكن الغزالي يصـطدم في دعوتـه هـذه مـع القـائلين بتحـريم تفسـير القــرآن بغـير مـا ورد في التفسـير الظـاهر المنقـول عن الرسـول ﷺ والسـلف من الصـحابة وغـيرهم، والـذين يسـتدلون ببعض النصـوص الشـرعية الدالـة على تحـريم التفسـير بـالرأي، والتشديد في ذلك كقوله ﷺ: (من قـال في القـرآن برأيـه فليتبـوأ

---

1) جواهر القرآن ص21.

2) إحياء علوم الدين: 1/287.

3) المرجع السابق 1/288.

4) المرجع السابق 1/288.

مقعده من النار)[1]وقوله: (من قال في القرآن برأيه، فأصاب فقـد أخطـأ)[2]، ومنهـا موقـف السـلف من التشـدد في البعـد عن هـذا الاتجاه، وأقوالهم الكثيرة في ذلـك [3]، وقـد رد الغـزالي على ذلـك بأدلة كثيرة منها:

الدليل الأول:

أن الاعتصام بالنقـل وحـده لا يكفي، بـدليل مـا روي من آثـار عن اتساع مجال الفهم في القـرآن النـاتج عن التـدبر، ومن الآثـار التي ينقلها الغزالي قول علي: (ما أسر إلي رسـول اللـه ﷺ شـيئا كتمه على الناس إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه) [4]، وقولـه: (من فهم القرآن فسر به جمل العلم)[5]، وعقب الغزالي على ذلك بقوله: (أشار به إلى أن القرآن الكـريم يشـير إلى مجـامع العلـوم كلها)[6]

وفسـر ابن عبـاس الحكمـة في قولـه تعـالى: ﴿وَمن يـؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:269) بـالفهم في القـرآن [7]،وقــول بن مســعود:(من أراد علم الأولين والآخــرين فليتــدبر القرآن)[8]

الدليل الثاني:

أن النـــبي ﷺ دعـــا لابن عبـــاس بقولـــه:(اللهم فقهـــه في الـدين،وعلـمــه التأويـل)[9]، والتأويــل هـو الرجـوع إلى الأصل[10]، وفي(لـســـان العــرب):(الأول، الرجــوع، آل الشــيء يــؤول أولا

---

1) الترمذي، السنن، (أبواب التفسير) 2/157، رقم: 2874.

2) المرجع السابق (أبواب التفسير) 2/157، رقم 2875.

3) إحياء علوم الدين: 1/288، وانظر في ذلك: بكـري الشـيخ أمين، التعبـير الفني في القرآن، بيروت: دار الشرق ص113.

4) إحياء علوم الدين: 1/289.

5) المرجع السابق .

6) المرجع السابق .

7) المرجع السابق 1/290.

8) المرجع السابق 1/289.

9) أحمد، المسند، (مسند بني هاشم) 2/450، رقم 2393.

10) الجرجاني، التعريفات، بيروت: مكتبة لبنان 1978.ص71.

ومـآلا:رجـع.وأول إليـه الشـيء رجعـه، وأول الكلام وتأولـه: دبـره وقدره... والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، ولولاه ما ترك ظاهر اللفظ)[1].

وقد أشار الجر جـاني إلى الفـرق بين التفسـير والتأويـل في قوله: (التأويل في الأصل الـترجيع، وفي الشـرع صـرف الآيـة عن معناهـا الظـاهر إلى معـنى يحتملـه إذا كـان المحتمـل الـذي يـراد موافقـا بالكتـاب والسـنة مثـل قولـه تعـالى: يخـرج الحْيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (الأنعام:95)، إن أراد به إخـراج الطـير من البيضـة كـان تفسيرا، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العـالم من الجاهـل كان تأويلا)[2]

فالتأويل غير التفسير، ولـذلك خص بـه النـبي ﷺ ابن عبـاس، يقول الغزالي: (فإن كان التأويـل مسـموعا كالتنزيـل، فمـا معـنى تخصيصه بذلك؟)[3]

الدليل الثالث:

أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير الكثـير من آيـات القرآن الكريم، فقـالوا فيهـا أقـوالا مختلفـة لا يمكن الجمـع بينهـا، ويسـتحيل سـماع جميعهـا من الرسـول ﷺ، فتـبين بـذلك أن كـل مفسـر قـال في المعـنى بمـا رجح لـه، فقـالوا مثلا في الحـروف المقطعة في أوائل السور: (إن ألر (يوسف: 1) هي حروف من الرحمان، وقيل إن الألـف:اللـه، واللام: لطيـف، والـراء:رحيم، وقيل غير ذلك والجمع بين الكـل غـير ممكن، فكيـف يكـون الكـل مسموعا؟)[4].

الدليل الرابع:

أن الله عز وجـل قـال: لعلمـه الـذِينَ يَسْـتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (النسـاء:83)، فـأخبر أن لأهـل العلم اسـتنباطا، وهـو غـير مرتبـط بالنقل [5].

مفهوم الرأي المذموم:

---

[1] ابن منظور، لسان العرب 11/32، رقم 6637.

[2] الجرجاني، التعريفات ص71.

[3] إحياء علوم الدين: 1/289، وانظر: القرطي، الجامع لأحكام القرآن،ط4، بيروت: دار الكتب العلمية 1988، 1/109.

[4] المرجع السابق .

[5] إحياء علوم الدين: 1/289.

ونتيجة لهذا، فإن الغـزالي يحمـل (الـرأي) في الحـديث على الرأي المذموم وينزله على أحد وجهين:

أ ـ أن يكون للمفسر في الشيء رأي، وإليـه ميـل من طبعـه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، وذلـك إمـا مـع العلم كاحتجاج المبتدعة لآرائهم مع علمهم أنه ليس ذلك مـراد الآيـة، أو مع الجهل بذلك، بأن يميل إلى الوجه الذي يراه موافقا له، فيكون رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير[1].

ب ـ أن يتسارع إلى تفسـير القـرآن بظـاهر العربيـة من غـير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيـه من الألفاظ المبهمة والمبدلة (فلا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسـرار القـرآن ولم يتقن التفسـير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، لأن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم)[2]

العلوم التي يحتاجها المفسر:

ومن العلوم القرآنية الظاهرية التي يشترطها الغزالي تعلمهـا ومراعاتها:

الإيجاز بالحذف والإضمار:

قد ورد كثيرا في القرآن الكريم، وهو حذف كلمة أو جملـة أو حرف لدلالة باقي الكلام عليها، ومن الأمثلة التي يـذكرها الغـزالي لذلك قولـه تعـالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـا ثَمُـودَ النَّاقَـةَ مُبْصِـرَةً فَظَلَمُـوا بِهَا﴾ (الإسراء:59)، يقول الغزالي: (معنى ذلـك: آيـة مبصـرة، فظلمـوا أنفسهم بقتلها، النـاظر إلى ظـاهر العربيـة يظن أن المـراد بـه أن الناقـة كـانت مبصـرة ولم تكن عميـاء، ولم يـدر كـذلك أنهم بمـاذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم)[3]

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْـرِهِمُ ﴾ (البقـرة:93) أي حب العجـل، ومثلـه قولـه تعـالى: ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَـاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِـعْفَ الْمَمَـاتِ﴾ (الإسـراء:75) أي ضـعف عـذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى.

المنقول المنقلب:

---

[1] المرجع السابق 1/290.

[2] المرجع السابق 1/291.

[3] المرجع السابق .

أي المنقـول عن اللفـظ الـذي ورد بـه أولا، كقولـه تعـالى: وِطُورِ سِينِيَن (التين:2) أي طور سيناء وقوله تعالى: سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (الصافات:130) أي على إلياس ﷺ.

المقدم والمؤخر:

كقولـه تعـالى: وَلَـوْ لَا كَلِمَـةٌ سَـبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَكَـانَ لِزَامًـا وأَجَلٌ مُسَـمًّى (طـه:127) معنـاه لـولا الكلمـة وأجـل مسـمى، وقوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَـا (الأعـراف:187) أي يسألونك عنها كأنك حفي بها.

المبهم:

وهو اللفظ المشترك بين معـان من كلمـة أو حـرف، كلفظـة القرين، قال الله تعالى: وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيـدٌ أَلْقِيَـا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (ق:23 ـ 24) أراد بـه الملـك الموكـل بـه، وقال تعالى: قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَـا مَـا أَطْغَيْتُـهُ وَلَكِنْ كَـانَ فِي ضَلَـلٍ بَعِيدِ (ق: 27) أراد به الشـيطان، ولفـظ الأمـة ورد على ثمانيـة أوجه، فالأمة هي الجماعة وأتباع الأنبياء والدين والزمـان والقامـة، وغيرها [1].

فهذه العلوم وغيرها يشترط الغزالي سماعها وتعلمهـا لتجنب التفسـير بـالرأي المـذموم، يقـول الغـزالي: (كـل من اكتفى بفهم ظاهر العربيـة وبـادر إلى تفسـير القـرآن، ولم يسـتظهر بالسـماع والنقل في هذه الأمور، فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه) [2]

ضوابط الاستفادة من الحقائق القرآنية:

والنتيجة التي نخلص إليها من علاقة الباطن القرآني بظـاهره في رأي الغزالي هي أنه يلزم المتدبر للقرآن والمتفهم له أمران:

توافق العقل والنقل:

أي أن لا يفهم من القـرآن الكـريم أمـرا يخـالف العقـل أو النصـوص الشـرعية أو يحمـل ألفـاظ القـرآن مـا لا تحتمـل (فـإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصـام فيـه بنقـل من صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تـدعو إليـه من دليـل العقـل اقتضى ذلـك بطلان الثقـة بالألفـاظ، وسـقط بـه منفعـة كلام اللـه تعالى وكلام رسوله ﷺ)[3]

---

[1] المرجع السابق 1/291 ـ 291.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق 1/37.

و يضـيف: (وبهـذا الطريـق توصـل الباطنيـة إلى هـدم جميـع الشريعة بتأويل ظواهرها وتبديلها على رأيهم)[1]

وهو يشـبه من يسـتجير هـذه التـأويلات مـع علمـه بأنهـا غـير مراده بالألفاظ، ويزعم أن قصـده منهـا دعـوة الخلـق إلى الخـالق بمن يستجير وضع الأحاديث على رسول الله ﷺلما هـو في نفسـه حق ولكن لم ينطق بـه الشـرع)، فـذلك ظلم وضـلال ودخـول في الوعيـد المفهـوم من قولـه ﷺ: (من كـذب علي متعمـدا فليتبـوأ مقعده من النار) [2]

بل إنه يـرى أن الشـر في تأويـل هـذه الألفـاظ أعظم خطـرا لأنهـا مذهبـة للثقـة في الألفـاظ وقاطعـة لطريـق الاسـتفادة من القرآن الكريم [3].

توافق الظاهر والباطن:

أي أن لا يعتقـد أن فهمـه واسـتنباطه هـو عين المـراد دون غيره، بل يبقي الظاهر على حاله، ويعـبر منـه إلى البـاطن، يقـول الغزالي في (مشكاة الأنوار) بعد كلام له في الموازنة بين الظـاهر والباطن: (لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثلة رخصـة مني في رفع الظـواهر واعتقـادا في إبطالهـا حـتى أقـول مثلا: لم يكن مـع موسـى نعلان، ولم يسـمع الخطـاب بقـول:اخلـع نعليـك؛ حاشا لله، فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الـذين نظـروا بـالعين العـوراء إلى أحـد العـالمين، وجهلـوا جهلا بالموازنـة بينهمـا، فلم يفهموا وجهه، كما أن إبطـال الأسـرار مـذهب الحشـوية[4]، فالـذي يجرد الظاهر حشوي، والذي يجـرد البـاطن بـاطني، والـذي يجمـع بينهما كامل)[5]

ولكن هذه الفهوم الراقية العميقة التي يصفها الغزالي لا تنال بمجرد حضور القلب مع القرآن، أو بمجرد التدبر الظاهر لألفاظـه،

---

1) المرجع السابق .

2) البخاري، (كتاب العلم)، 1/200 رقم 1071، ومسـلم (المقدمـة) 1/10، رقم 5،4.

3) إحياء علوم الدين: 1/38.

4) لقب أطلـق على المحـدثين الـذين جمـدوا على الظـاهر في العقيـدة، وانطلقوا القول بالتأويـل. وهـو بالنسـبة للعقيـدة كالظاهريـة بالنسـبة للفقـه، انظرا: الغزالي، مشكاة الأنوار،(ضمن القصور العوالي)، ص210.

5) مشكاة الأنوار ص210.

بل بوجود محل مستعد لذلك الفهم، وإنما حرمت العقول والقلوب من إدراك معاني القرآن ـ كما يرى الغزالي ـ بأربعة حجب:

الحجـاب الأول: انصـراف الهم إلى ظـاهر التلاوة بتحقيـق مخـارج الحـروف والتعمـق فيهـا، والتعبـد بالألفـاظ دون ملاحظـة المعاني.

الحجاب الثاني: التقليد، ويعتبره الغـزالي الحجـاب الأعظم الحائل بين القلب وإدراك الحقائق، فمن جمد على مـذهب سـمعه بالتقليد، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع من غير تحقيق وتبصرة، يصير نظره موقوفا على سمعه (فإن لمع بـرق على بعـد وبـــدا لـــه معـــنى من المعـــاني حمـــل عليـــه شـــيطان التقليـــد حملة،وقال:كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟)[1]، وهو يحمل هذا المعنى على قول الصوفية كما ينقله: (إن العلم حجاب) مريدين بذلك العلم (العقائد التي استمر عليها أكثر النـاس بمجـرد التقليـد أو بمجـرد كلمـات جدليـة حررهـا المتعصـبون للمـذاهب وألقوها إليهم)[2]، أما العلم الحقيقي، الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة، فكيف يكون حجابا وهو غاية المطالب؟

الحجاب الثالث: الإصرار على الذنوب، وخاصة الكـبر وحب الدنيا، فقد قال تعـالى سَأَصْـرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (الأعراف:146)، يقول الغزالي: (وقـد شـرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتـذكير، فقـال تعـالى: تَبْصِـرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (ق:8)، وقال: وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (غافر:13)،وقال: إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ   (الزمر:9)، فالـذي آثر غرور الدنيا ليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسـرار الكتاب) [3]

الحجاب الرابع: الاقتصار على التفسير الظاهر.

2 ـ مراتب العبور إلى حقائق القرآن:

كعادة الغزالي في إعطاء الطـرق العمليـة لتحصـيل المعـاني الشـرعية المجملـة، فإنـه يصـف الطريـق الـذي بـه يتـدرج قـارئ القرآن من الترتيل الظاهرـ الذي حدد آدابه ـ إلى المعاني الباطنـة غير المحدودة، وتلك المراتب هي:

---

1) إحياء علوم الدين: 1/284.

2) المرجع السابق .

3) المرجع السابق 1/285.

استحضار عظمة القرآن:

لما لها من تأثير نفسي على القارئ، لأن عظمة الرسالة بقدر عظمة مرسلها، والقرآن الكريم هو رسالة الله وكلامه إلى عباده، ولو لا لطف الله سبحانه بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته لما أطاق كلامه شئ [1].

وهذا الاستحضار النفسي له عند الغزالي خصوصا، والصوفية عموما، تأثير كبير في تلقي التالي واستعداده للفهوم التي يفيضها الله على عباده العارفين بعظمة كلامه، وذلك لأن فيها فتحا لمجالات مطلقة للقرآن الكريم لا يحدها التركيب اللغوي المحدود[2].

استحضار عظمة الله تعالى:

وذلك بأن يعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولهذا كان بعض الصحابة ـ كما ينقل الغزالي ـ إذا نشر المصحف غشي عليه، ويقو ل: (هو كلام ربي، هو كلام ربي)[3]

وطريق ذلك ـ كما يرى الغزالي ــ هو أن يحضر بباله عند بداية التلاوة العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، ويعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضته، مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله [4].

وهذا التعظيم التمهيدي هو غاية ــ عند الغزالي ــ في نفس الوقت، لأنه بقدر تعظيمه عند القراءة يكون فهمه عن الله، وبقدر فهمه عن الله تكون معرفته ويزداد تعظيمه.

حضور القلب:

وهو ترك حديث النفس والانشغال بالقرآن عن غيره، وذلك ـ كما يرى الغزالي ــ يتولد عما قبله من التعظيم، فإن المعظم

---

[1] المرجع السابق 1/281.

[2] يقول شهاب الدين السهرودي: (للصوفي بكمال الزهد في الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد) انظر: شهاب الدين السهرودي، عوارف المعارف،(ملحق الإحياء)، 5/50.

[3] إحياء علوم الدين: 1/281.

[4] المرجع السابق .

للكلام الذي يقرؤه يسر به ويستأنس ولا ينتقل عنه، زيادة على احتواء القرآن الكريم على كل ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له (فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره، وهو في متنزه ومتفرج؟، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها)[1]

وهو أيضا مرتبط بمدى علم القارئ بسعة القرآن الكريم التي هي فيض من مصدره الإلهي، فلذلك يقرأ كل مرة كلاما جديدا، ويفهم فهما جديدا، وتفاض على قلبه أحوال جديدة، وذلك كله ناف لصفة التكرار المسببة للغفلة وعدم حضور القلب، وذلك كله لا يكون ـ كما عبر عنه الغزالي في كل مناسبةـ إلا بالجد، وهو التجرد له عند القراءة وانصراف الهم له عن غيره، ويفسر قوله تعالى: يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ (مريم:12) بالجد والاجتهاد[2].

التفهم:

وهو المقصود الأصلي من القراءة، وكل ما قبله تمهيد نفسي وعقلي له، لأن القرآن الكريم يحوي ــ كما يعبر الغزالي ــ كل العلوم، ولكنه لا يمنح علومه إلا لمن يتأمله ويفكر فيه، أو كما يقول ابن مسعود:(من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن)[3]

ويضرب الغزالي الأمثلة الكثيرة عن كيفية استنباط الفهوم من القرآن الكريم، فإذا قرأ القارئ قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (الواقعة:58) يتأمل المني، وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكتف وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة أو الدميمة، ويتأمل هذه العجائب ليرقى منها إلى ما هو أعجب، وهو الصفة التي صدرت منها تلك الأعاجيب (فلا يزال ينظر إلى الصنعة، فيرى الصانع) [4]

وإذا قرأ أسماء الله تعالى (يتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا

---

1) المرجع السابق 1/282.

2) المرجع السابق 1/281.

3) المرجع السابق 1/283.

4) المرجع السابق .

للموقنين) [1]
والغزالي ـ كالصوفية جميعا ـ يعتبرون أسماء الله الحسنى المفاتيح التي تفهم بها حقائق الكون وتستكنه أسراره، فلذلك يوليها العناية التامة لتفهم حقائق القرآن الكريم.
وهكذا إذا قرأ القارئ أحوال الأنبياء، وما حصل لهم من أنواع البلاء يستنبط منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر ذلك في ملكه شيئا [2].

التخصيص:

وهو أن يقدر أنه المخصوص بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا أو وعيدا فمثل ذلك، (وكيف لا يقدر هذا، والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ خاصة، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين) [3]
ونتيجة ذلك ـ كما يرى الغزالي ــ أن لا تتخذ دراسة القرآن عملا، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله، ويعمل بمقتضاه، وينقل الغزالي في ذلك عن مالك بن دينار[4] قوله: (ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟.. إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن القرآن ربيع الأرض)[5]
ولا يكون ذلك إلا بالتعامل الجدي مع القرآن الكريم، واعتبار كل ما فيه حكمة وفائدة في حق كل شخص بعينه، فليست قصصه ــ مثلا ــ سمرا غير مقصود، وإنما هي عبر وتثبيت لمن تأملها، ولأجل هذا أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة القرآن الكريم باعتبار نزوله غير مختص به ﷺ، بل هو متعلق بكل مكلف، فقد قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ

---

[1] المرجع السابق .
[2] المرجع السابق .
[3] إحياء علوم الدين: 1/284.
[4] هو أبو يحي مالك بن دينار من كبار عباد البصرة وصالحيها ، له حكم كثيرة، توفي سنة 131ه، انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة 2/165.
[5] إحياء علوم الدين: 1/285، وانظر أقوالا له أخرى في ذلك في : ابن الجوزي، صفة الصفوة 2/166،165.

الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ (البقرة:231)[1]

التأثر:

وهو تفاعل النفس مع القرآن الكريم بحيث يتأثر بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيرها.

ويذكر الغزالي أمثلة توضيحية لذلك: فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله تعالى وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته، وعند ذكر الكفار وما يستحيل على الله عز وجل يغض صوته وينكسر في باطنه، وعند ذكر الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها [2].

وبذلك يشترك في القراءة اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ.

وهذا التفاعل الوجداني مع القرآن الكريم هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فقد روي أن رسول الله ﷺ أمر ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عليه من سورة النساء إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء:41)، فالتفت إليه، فرأى عينيه تذرفان بالدمع[3]، ويعلق الغزالي على هذا الحديث بقوله: (وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية)[4]

الترقي:

وهو عدم التوقف عند حد معين أو مقام مخصوص لا يتجاوزه، فكما أنه في تفهم القرآن يترقى عند كل قراءة إلى فهم جديد ومعان جديد لم تكن تخطر له، فكذلك في علاقته مع القرآن الكريم يترقى إلى أن يستشعر سماعه من الله تعالى، فيرى في

---

1) إحياء علوم الدين: 1/285.

2) المرجع السابق .

3) الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحقيق إبراهيم عكاشة، الجزائر: الشركة الجزائرية، (كتاب التفسير)، 2/404 رقم 1733.

4) إحياء علوم الدين: 1/286.

الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصـفات، فلا ينظـر إلى نفسـه، ولا إلى قراءته، بل يكـون مقصـور الهم على المتكلم موقـوف الفكـر عليه كأنه مستغرق بمشاهدته عن غيره [1].

وهذه الدرجة كما يرى الغـزالي هي درجـة المقـربين، ودونهـا درجة أصحاب اليمين، وهي أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والضـراعة، أو أن يشــهد بقـلبــه كـأن اللـه عـز وجـل يـراه ويخاطبـه بألـفاظــه ويناجيـه بإنعامـه، فمقامـه عنـد ذلـك الحيـاء والتعظيم والإصـغاء والفهم، وما خرج عن هـذا يعـبر عنـه الغـزالي بـدرجات الغـافلين، وهم الذين ليس لهم حظ من القرآن غير ترتيل اللسان [2].

التبري:

وهو خاتمة مراتب التدبر المكونة لحقيقته، وفيهـا يعـود العبـد إلى أصله بعـدما تـرقى في معـارج العرفـان والفهـوم، فيستشـعر حياء العبودية، فيتبرأ من حولـه وقوتـه والالتفـات إلى نفسـه بعين التعظيم والرضا، فإذا قرأ آيـات الوعـد ومـدح للصـالحين لا يشـهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصـديقين، ويتشـوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم [3].

وهذا الشعور، وهو عودة التالي إلى عبوديته، هو البـاب الـذي منه تلوح أنوار الكشوفات والفهـوم، فهي كمـا يقـول الغـزالي: (لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليهـا وإلى هواهـا) [4]، فالعبد إذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كـانت رؤيتـه سبب قربه [5].

هذه هي المراتب التي يضـعها الغـزالي للعبـور إلى الحقـائق القرآنية، وهي ـ كما رأينا ـ تنبع من منهجه الإصلاحي المعتمـد على

---

[1] المرجع السابق 1/287.

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق 1/288.

[4] المرجع السابق .

[5] وقد اتفق على هذا المبدأ السلوكي كل الصوفية كما يعبر على ذلـك ابن عطاء الله السكندري في حكمـة بقـول : (أصـل كـل معصـية وغفلـة وشـهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعـة ويقظـة وعفـة عـدم الرضـا منـك عنهـا)، انظـر: عبـد المجيـد الشـرلولي، شـرح الحكم العطائيـة، تحقيـق عبـد الفتـاح البزم،ك1، عين مليلة: دار الهدى 1991،ص45 .

إعطاء الطرق العملية للحقائق التي يتحدث عنها دون الغلو في المسائل النظرية، وذلك ما يتيح للعامة والخاصة ـ على حد سواء ـ الاستفادة من الحقائق التي لا يكفي فيها مجرد الإجمال أو الوعظ.

3 ـ مقاصد القرآن الكريم:

رأينا في المطلب السابق ضرورة استعمال آلية التدبر بمراتبها المختلفة للوصول إلى حقائق القرآن الكريم، ولكن تلك الحقائق تختلف بحسب مقاصد المتدبرين واهتماماتهم، ولذلك قد توصف بالعمق أحيانا والسطحية أحيانا أخرى، والسبيل الذي يراه الغزالي لتعميق الحقائق القرآنية هو ربطها بمقاصدها، لأن شتات الفروع تتوحد في نقطة المقصد.

وربما يكون للغزالي السبق فيما يسمى ــ اليوم ــ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وذلك أثناء تقسيمه القرآن إلى محاور أساسية تدور عليها آياته، ثم الحديث عن تلك المحاور كما وردت فيه، وقد جمع في كتابه (جواهر القرآن) سبعمائة وثلاث وستين آية تتعلق بالمعرفة الإلهية، وسبعمائة وإحدى وأربعين آية تتعلق بالسلوك لله تعالى، وقد سمى النوع الأول بالجواهر، وسمى النوع الثاني بالدرر، و(الأول علمي، والثاني عملي، وأصل الإيمان العلم والعمل) [1]

ثم شرح جمل القسم الثاني في كتابه (الأربعين في أصول الدين)وضمه إلى كتابه (جواهر القرآن)، وأجاز كتابته مفردا [2].

وهو ينطلق في تحديده لمحاور القرآن ومقاصده من هدف القرآن الكريم الأساسي ـ في رأيه ـ وهو (دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة والأولى) [3]، فالقرآن هو المعرف بالله والداعي له،ولذا يحصر مقاصد القرآن ـ على أساس ذلك ـ في ستة أنواع، ثلاثة هي الأصول المهمة، وثلاثة هي التوابع المتمة، وهذه المقاصد هي:

المقاصد الأصلية:

وهي التي تهدف إليها آيات القرآن الكريم بالدرجة الأولى، وتشمل في رأي الغزالي المعارف الأساسية الدالة على الحقائق

---

[1] جواهر القرآن ص85.

[2] الأربعين في أصول الدين ص6.

[3] جواهر القرآن ص23.

الكلية الكبرى، وهي:

معرفة الله تعالى:

فالقرآن الكريم هو الدليل الأكبر على الله، والمعرف الأعظم به، وهو كما يقول الإمام جعفر الصادق [1]: (والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون)[2] والمقاصد القرآنية المتعلقة بالله عند الغزالي هي:

معرفة الذات:

وهي أهم المعارف وأعزها وأضيقها مجالا وأعسرها منالا وأعصاها على الفكر، ولا يحوي القرآن الكريم منها إلا على تلميحات وإشارات ترجع في رأي الغزالي إلى أمرين:

التقديس المطلق:

وهو تنزيه الله تعالى عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير [3]، ولذلك عرف الله تعالى ذاته لعباده بقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(الشورى:11)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾ (الإخلاص:1 ـ4)

التعظيم المطلق:

وهو امتلاء القلب مهابة لله وشعورا بالعجز والضآلة أمامه، نتيجة لفرط عدم إحاطة العقل بكنه حقيقته [4]،كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأنعام: 100، 101)

والتفكر في جلال الله وعظمته بالجمع بين هذين الأمرين هو الذي يثمر المعارف ولأحوال الإيمانية، دون التفكر في المتشابه من الصفات، فإنه لا يثمر عند الجمهور من الناس إلا التشبيه والتمثيل، ولهذا لم يرد في الأذكار الشرعية المسنونة عن رسول الله ﷺ إلا ما يشير إلى ذلك.

---

[1] هو جعفر بن محمد الباقر (80 ـ 148هـ)،من أئمة آل البيت، كان مشهورا بالعلم والصلاح والتسامح، لقي الاحترام من كل الطوائف سنية وشيعية، انظر : الزركلي، الأعلام 2/26.

[2] إحياء علوم الدين: 1/287.

[3] المقصد الأسنى ص55.

[4] المقصد الأنى ص96.

وقد أشار الدهلوي إلى ما ذكره الغـزالي، وأيـده بـأن مـا ورد من الأذكار عن رسـول اللهﷺ لا يشـير إلا للتنزيـه والتعظيم فيمـا يتعلق بذات الله تعـالى،يقـول الـدهلوي: (..ومنهـا [أي من الأذكـار الشـرعية] سـبحان اللـه وحقيقتـه تنزيهـه عن الأدنـاس والعيـوب والنقائص، ومنها الحمد لله، وحقيقتـه إثبـات الكمـالات والأوصـاف التامة له؛ فـإذا اجتمعتـا في كلمـة واحـدة كـانت أفصـح تعبـير عن معرفة الإنسان بربه، لأنه لا يستطيع أن يعرفه إلا من صـفات ذات يسلب عنها ما نشاهده فينـا من النقـائص، ويثبت لهـا مـا نشـاهده فينا من كمالات من جهة كونه كمالا)[1]

والغزالي ينتقد بشدة المشبهة الذين ينكرون التنزيه المطلـق للـه عن كـل صـفات الحـوادث (حـتى قـال بعض الحمقى من العوام:إن هذا وصف لبطيخ هندي لا وصف إله، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء)[2]

ويرد سبب ذلك إلى أن الإنسان لا يعرف إلا نفسـه ولا يعظم إلا نفسه، وكل ما لا يساويه في صفاته لا يفهم العظمـة فيـه، (بـل لو كان للذباب عقـل، وقيـل لـه: ليس لخالقـك جناحـان ولا يـد ولا رجل ولاطيران، لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مـني؟)[3]

معرفة الصفات:

وهي المجال الفسيح الـذي يمكن الاطلاع عليـه دون إمكانيـة الإلمـام بـه، ولـذلك كـثرت الآيـات المشـتملة على العلم والقـدرة والحياة والكلام والسمع والبصـر وغيرهـا، هي ــ أيضـا ــ تسـتدعي الأمـرين السـابقين: التنزيـه والتعظيم، فـإن صـفات اللـه تعـالت وتقدست أن تشابه صفاتنا، فلذلك يغلب على هذه المعرفة الإيهام والتشـبيه، ولهـذا (ينبغي أن تقـترن بنفي المشـابهة، ونفي أصـل المناسبة)[4]

وقـد أشـار إليـه قولـه تعـالى في: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ (الشـورى:11)، ثم عقب ببيـان صـفتين من صـفاته قـد توهمـان التشبيه هما السمع والبصر، لارتباطهما بالنسبة لنـا بـالأذن والعين،

[1]) الدهولي، حجة الله البالغة، بيروت: دار المعرفة 2/72.

[2]) إحياء علوم الدين: 4/434.

[3]) المرجع السابق .

[4]) المقصد الأسنى ص40.

قال تعالى: وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى:11)

ويرى الغزالي أنه بقدر معرفة المؤمن لصفات الله تعالى وتنزيهها وتعظيمها تكون معرفته بذاته تعالى، فمعرفة الصفات هي مدد معرفة الذات، ولذلك كثرت الأسماء الحسنى الدالة على عظمة صفات الله تعالى.

و هو يرى وجوب القول بتوقيفها بحيث لا نسمي الله إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله، مستدلا على ذلك بقياس مفاده أنه (إذا لم يكن لنا أن نسمي إنسانا، أي نضع له اسما، فكيف نضع لله اسما؟)[1]

أما القول في الصفات فمتسع، لأن الوصف إخبار، ويجوز الإخبار مادام صادقا وحاويا صفات المدح والجلال، (فلا نقول:يا موجود يا محرك يا مسكن، بل نقول: يا مقيل العثرات، يا منزل البركات، ويا ميسر كل عسير، وما يجري مجراه)[2]

معرفة الأفعال:

وهي المجال الأفسح والأيسر لمعرفة الله، فمنها يرقى المتفكر لمعرفة الصفات التي هي المعراج لمعرفة الذات، ولذلك حوى القرآن الكريم (الكثير من آيات الله وأفعاله، كذكر السماوات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر أسباب الحياة) [3]، وقد أمر الله تعالى بالتفكر في هذه المخلوقات، قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (آل عمران:190)

وقد انطلق الغزالي من الآيات التي تتحدث عن مخلوقات الله تعالى في كتابه (الحكمة في مخلوقات الله) إلى الحديث عن حكم تلك المخلوقات، بأسلوب يمتزج فيه العلم بالتذكير، وهو أسلوب القرآن الكريم في عد نعم الله على خلقه، وهو يستخدم

---

1) نقل الغزالي الخلاف في إطلاق الأسماء والصفات على الله تعالى والواقع بين الأشعري والباقلاني، فالباقلاني يرى جواز ذلك إلا ما منع منه الشرع، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى، وذهب الاشعري إلى القول بتوفيقها، واختار الغزالي التفصيل، انظر: المقصد الأسنى ص164.

2) المرجع السابق :ص 167.

3) جواهر القرآن ص26.

هذا الأسلوب في (الإحياء) وغيره كلما دعت الضرورة إلى ذلك[1].

وينبه الغزالي إلى سعة عالم الملكوت والغيب مقارنة بعالم الشهادة، يقول في مشكاة الأنوار: (اعلم أن عالم الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلى اللب، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور، وكالسفل بالإضافة إلى العلو، ولذلك يسمى عالم الملكوت،والعالم العلوي، والعالم الروحاني، والعالم النوراني)[2]

و هو ينبه إلى دور معرفة أفعال الله تعالى، سواء ما ظهر منها في عالم الشهادة،أو ما بطن في عالم الغيب والملكوت، في التحقق بمعرفة الله تعالى بقوله: (ليس من يعلم أنه تعالى عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض وخلق الأرواح والأجساد، واطلع على بدائع مملكته وغرائب الصنعة، ممعنا في التفصيل، ومستقصيا دقائق الحكمة، ومستوفيا لطائف التدبير)[3]

السلوك إلى الله تعالى:

وهو الطريق الذي يصفه القرآن الكريم للوصول إلى الله تعالى، ويرى الغزالي اجتماع كل سبل القرآن ومناهجه السلوكية في التبتل [4]، وهو الانقطاع التام لله تعالى والتفرغ له كما قال تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾(المزمل:8)

وعمدة السلوك القرآني أمران: الملازمة والمخالفة، أما الملازمة فهي الانشغال التام بذكر الله تعالى، وأما المخالفة فهي ترك كل ما يشغل عن الله، ونتيجة هذا السلوك هي بلوغ الفلاح كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾(الأعلى: 14، 15) [5]

وقد جمع الغزالي الآيات المرشدة إلى طريق السلوك في كتابه (جواهر القرآن ودرره)، ثم شرح تفاصيلها في (الأربعين في

---

[1] انظر على سبيل المثال: إحياء علوم الدين: 4/435 ـ 448.

[2] مشكاة الأنوار ص191.

[3] المقصد الأسنى ص43،42.

[4] التبتل ـ لغة ـ يعني الانقطاع ، يقال للعابد إذا ترك كل شيء، وأقل على العبادة قد تبتل، أي قطع كل شيء إلا أمر الله وطاعته، انظر: ابن منظور، لسان العرب 11/42 رقم 6643.

[5] جواهر القرآن ص28.

أصول الدين).

معرفة اليوم الآخر:

وهو المصير الذي يلقاه العارفون أو الجاحدون، ويشتمل القرآن منه على ذكر النعيم الذي أعده الله لأوليائه والخزي والعذاب الذي يلقاه المبعدون عنه، وفي هذا القسم ــ كما يرى الغزالي ـ مجال كبير للبحث والنظر باعتباره المصير الذي ينتظر البشرية جميعا، ولذلك أولاه القرآن الكريم العناية الكبرى، ويحصي الغزالي ما ورد فيه من الآيات بأنه ثلث القرآن [1].

المقاصد الفرعية:

وهي التي تتفرع عن المقاصد السابقة وتخدمها، وهي ــ عند الغزالي ـ ثلاثة مقاصد هي:

القصص القرآني:

سواء ما تعلق منها بالأنبياء والصالحين، أو ما تعلق بالكفار والمنافقين، وفائدة هذا القسم ـ كما يرى الغزالي ــ هي التشويق والترغيب فيما يتعلق بالمجيبين لدعوة الله السالكين سبيله، والاعتبار والترهيب فيما يتعلق بأحوال الناكلين والناكبين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم [2].

وكأن الغزالي يدعو من خلال هذا القسم إلى استنباط سنن الله في المجتمعات كما ينص عليها القرآن، كما رأينا ــ من قبل ـ دعوته إلى النظر في سنن الله الكونية، فكلاهما ميدان لمعرفة الله وسلوك سبيله، وكلاهما حث القرآن الكريم على النظر فيه والاعتبار به.

البراهين القرآنية:

وهذا القسم يتعرض لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح أباطيلهم وكشفها، وقد حوى القرآن الكريم كما يرى الغزالي على تفنيد ثلاثة أنواع من الأباطيل تعتبر من أصول الضلال الكبرى، وهي:

أ ـ ذكر الله تعالى بما لا يليق به من أن الملائكة بناته، وأن له ولدا وشريكا، وأنه ثالث ثلاثة.

ب ـ ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر أو كاذب، وإنكار نبوته، وأنه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن يتبع.

---

[1] المرجع السابق .

[2] المرجع السابق ص31.

ج ـ ذكـر اليـوم الآخـر وجحـد البعث والنشـور والجنـة والنـار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية[1].

ويرى الغزالي إمكانية الاستغناء ببراهين القرآن العلمية ـــ إذا ما تحققت آلية التدبر ـ عن أدلـة المتكلمين وبـراهينهم، بـل يمكن استنباط وجوه الحجج القاطعة التي يمكن الاسـتدلال بهـا فيمـا لم يذكره القرآن الكريم من شبهات[2].

الأحكام الفقهية:

ويشتمل هذا القسم على الحـدود الشـرعية الـتي تنظم أمـر المعاش بأسباب الحفظ لوجوده، وأسباب الدفع لمفسداته.

وبالتـدبر في هـذا القسـم يمكن اسـتنباط محاسـن الشـريعة ومصالحها وحكمها مما لا يوجد مثله في كتب الفقهاء [3].

ويبدي الغزالي اهتماما كبيرا ـ في هذا الموضع ـ ببيان مقاصد الشريعة وكلياتها، والتي ترجع إلى تنظيم أمـر المعـاش في الـدنيا حتى يتم أمر التبتل والانقطاع إلى اللـه تعـالى الـذي هـو المقصـد الحقيقي من الوجود الإنساني.

وذلـك التنظيم يسـتدعي أسـباب الحفـظ لوجـود ه، وأسـباب الدفع لمفسداته، وكل حدود الشريعة يمكن إرجاعها عنـد الغـزالي إلى هـذين القسـمين، وهـو لهـذا يعتـبر الفقـه من علـوم الـدنيا فـ (الفقيه هو العالم بقانون السياسـة، وطريـق التوسـط بين الخلـق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسـة الخلـق وضـبطهم لينتظم باسـتقامتهم أمـورهم في الدنيا)[4]

هذه هي المقاصد الستة التي تدور حولها جميع آيـات القـرآن الكريم في رأي الغزالي، وهو يـدعو من خلال عرضـها إلى التفكـر فيها واستنباط أصناف العلوم منها، فكل العلوم مغترفـة من بحـار القرآن الكريم[5].

---

[1] المرجع السابق : ص31 ـ 32.

[2] إحياء علوم الدين: 1/34،33.

[3] جواهر القرآن ص34.

[4] إحياء علوم الدين: 1/17.

[5] وذلك من حيث الجملة لا التفصيل فإن إقحام العلوم في القرآن وتحميل ألفاظه ما لا تحتمل تكلف ممقوت، وصـرف لألفاظـه وتراكيبـه عن مراداتهـا، انظر: الشاطبي، الموافقات في أصـول الشـريعة، القـاهرة: مطبعـة المكتبـة

ثانيا ـ السنة النبوية علما وعملا

يعتبر الغزالي التزام السنة النبويـة الشـريفة من أهم أصـول منهاجه في الإصلاح الاجتماعي، وذلك لأن دور المجدد أو المصلح ـ كما يتصوره ـ هو إعادة الثقة في النبوة وبما جاءت به علما وفهمـا وسلوكا.

يقول الغزالي عند بيانه لأسباب خروجه من عزلتـه: (ثم رأينـا فتـور الاعتقـادات في أصـل النبـوة، ثم في حقيقـة النبـوة، ثم في العمل بما شرحته النبوة) [1]

وقد أجرى استبارا [2] لأسباب سريان ذلك الـداء في المجتمـع الإسـلامي، فوجـده يكمن في أربـع طوائـف:الفلاسـفة ومبتـدعي الصوفية والباطنية والمتعالمين من الناس.

أما المتأثرون بالفلاسفة فأجابوه مبررين انصرافهم عنهـا بمـا نقله الغزالي عنهم من قـولهم: (لسـت أفعـل هـذا تقليـدا، ولكـني قرأت علم الفلسفة، وأدركت حقيقة النبوة، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ؛وأن المقصود من تعبداتها ضبط عـوام الخلـق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات) [3]، وأما الباطنية، فيزعمون الاكتفاء بالإمام المعصوم، وأما أدعياء التصوف فيزعمون أنهم قد بلغوا مبلغا ترقى عن الحاجة إلى العبـادة، وأمـا المتعالمون من الناس فقد كان انصرافهم عن الحق مع علمهم به هو الداء الأكبر الذي نشر الانحلال الاجتماعي[4].

زيادة على ذلك ظهر في عصر الغزالي وقبله من يجيز وضـع الحديث والكذب على رسول الله ﷺ زاعمـا أن قصـده الإصـلاح أو

التجارية 2/81.

[1] المنقذ من الضلال ص136.

[2] هــو إحــدى الأدوات الهامــة الــتي يســتخدمها البــاحثون في العلــوم الاجتماعية، وله تعاريف كثيرة منها: إنه تفاعل لفظي بين فـردين في موقـف المواجهة، ويحـاول أحـدهما أن يستشـير بعض المعلومـات لـدى الآخـر حـول خبراتــه وآرائــه ومعتقداتــه، انظــر: د. محمــد شــفيق، البحث العلمي،ط1، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 1985، ص105.

[3] المنقذ من الضلال ص137.

[4] المرجع السابق .

دعوة الخلق إلى الخالق[1].

انطلاقا من هذا الواقع، اعتبر الغزالي إحياء السنة بكل تفاصيلها ظواهرها وحقائقها، علمها وعملها أساسا لإعادة الثقة في النبوة، وأصلا من أصول منهاجه الإصلاحي، يقول في (الأصل العاشر) من (الأصول الأربعين) الذي خصصه لاتباع السنة: (اعلم أن مفتاح السعادة اتباع السنة والإقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته حتى في هيئة أكله وقيامه ونومه وكلامه، وفي جميع أمور العادات، فبذلك يحصل الاتباع المطلق قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:7)[2]

وبناء على ما أشاعت تلك الطوائف من شبهات أو ما أدخلت في السنة من انحرافات في الفهم أو في التطبيق دعا الغزالي إلى التزام مجموعة من الضوابط العلمية والعملية، تنفي عن السنة تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين [3]، وفي نفس الوقت تكسب الالتزام بالسنة أبعاده التربوية الإصلاحية، وسنتناول في هذا المبحث أهم هذه الضوابط.

1 ـ التثبت من صحة الأحاديث سندا ومتنا:

وذلك حسب الموازين العلمية الدقيقة التي وضعها المحدثون، والتي تشمل السند والمتن جميعا:

السند:

يرى الغزالي قبول أخبار الآحاد، ووجوب التعبد بها كما ذهب إلى ذلك جمهور المسلمين، يقول الغزالي: (والصحيح الذي ذهب إليه الجماهير من سلف الأمة من الصحابة والتابعين والفقهاء والمتكلمين أنه لا يستحيل التعبد بخبر الواحد عقلا، ولا يجب التعبد به عقلا، وأن التعبد به واقع سمعا) [4]

---

1) إحياء علوم الدين: 1/38.

2) الأربعين في أصول الدين، ص68.

3) جزء من حديث نبوي ذكره ابن القيم، وقواه لتعدد طرقه، انظر: ابن القيم، مفتاح دار السعادة ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1/163 ـ 164.

4) المستصفى من علم الأصول 1/148. وقد ذهب بعض العلماء، منهم الإمام أحمد والحارث المحاسبي والكرابيسي إلا أنه يفيد القطع ، انظر:

وعـدم وجـوب التعبـد بـه عقلا راجـع لاحتمـالات الضـعف أو الوضع أو النسـيان الكثـيرة الـتي تتعلـق بالحـديث [1]، أمـا وجـوب التعبد به سمعا، فينقل الغزالي من أدلة ذلك إجماع الصحابة على قبول أخبـار الآحـاد، وكـذلك مـا تـواتر من إرسـال رسـول اللـه ﷺ الولاة والرسل إلى البلاد وتكليفه إياهم وتصديقهم فيما نقلـوه من الشرع.

وهو يرى وجوب التعبد به، ولو فيما تعم بـه البلـوى [2]، خلافـا لأهل الرأي، وتحليله لأسباب ذلـك ينـبئ عن فهم عميـق لمـا يجب أن يشـاع من العلم، ومـا يمكن أن يظـل متـداولا بين الفقهـاء والخاصة، ولا ضرر على العوام من جهله، يقول في ذلك: (إن الله تعالى لم يكلف رسوله ﷺ إشاعة جميع الأحكام، بل كلفـه إشـاعة البعض وجوز له رد الخلق إلى خبر الواحد في البعض)[3]

وهـذا بنـاء على قاعدتـه في صـرف العـوام عن فـروع العلم لتفـريغهم لأصـوله، وللصـناعات الـتي هم بصـددها، وقـد قسـم ـ انطلاقا من ذلك ـ السمعيات بعد استقرائها إلى أربعة أقسام:

1. القرآن الكريم، وهـو الـذي اهتم الشـارع بحفظـه وإشـاعته بالدرجـة الأولى حـتى ورد النهي عن كتابـة الحـديث خشـية اختلاطه بالقرآن [4].
2. أصول الإسلام الكبرى، كالشهادة والصلاة والزكـاة وغيرهـا، وقد أشاع العلم بها ـ أيضا ـ حتى اشترك في معرفتها العـام والخاص.
3. أصـول المعـاملات غـير الضـرورية، كأصـل الـبيع والـزواج وغيرها من أنـواع العقـود، ولم يشـارك العـوام العلمـاء في

الأمدي، الأحكام، مطبعة المعارف 1914م، 1/108.

[1] علل النـووي عـدم قطيعـة خـير الآحـاد ولـو كـان صـحيحا بجـواز الخطـأ والنسيان على الثقـة، وغـير هـذا الـرأي لأكـثر المحققين، انظـر: جلال الـدين السيوطي، تدريب الراوي شرح تقريب النواوي،ط، مصر 1307هـ، ص41.

[2] هو ما يحتاج الناس إلى بيانه، إذا أن ما شأنه كذلك تتوافر الـدواعي على نقله بطريق التواتر أو الشهرة، انظر: وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسـلامي، ط1، دمشق: دار الفكر 1406ه، 1986، 1/470.

[3] المستصفى من علم الأصول 1/172.

[4] كقوله ﷺ:(لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غـير القـرآن فليمحـه، وحـدثوا عني ولا حرج)، انظر: مسـلم، الجـامع الصـحيح (الزهـد والرقـائق)، 4/2298 رقم 5326.

ذلك، بل فرض على العوام فيه القبول من العلماء.

4. تفاصيل الأصول السابقة، كمعرفة ما يفسد الصلاة والعبادات وينقض الطهارة وآحاد السنن، ولو كانت فيما تعم به البلوى، فلا استحالة فيه، ولا مانع من اقتصار النقل فيه على الآحاد [1].

ولكن الغزالي مع قبوله خبر الآحاد يشتد في وجوب نقدها، وتمحيص المقبول من المردود منها، وخاصة الموضوع، فهو ينتقد بشدة الوضاعين أومن يروي عنهم مع العلم بذلك، يقول في الإحياء: (وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال، وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد صحيح، وهو خطأ محض، إذ قال رسول الله ﷺ: (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)[2])[3]

ويرد على هذا بأن ما ورد في الآيات والأحاديث الصحيحة غنية، أما تلبيس الشيطان للوضاعين بأن النفوس أرغب في الجديد، وأن الملل يقع بسبب تكرار الأحاديث المشتهرة فـ (هوس، إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا) [4]،ويعقب على ذلك بقوله:(والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء) [5]

ولابد من التفريق ـ هنا ـ بين الكذب على رسول الله ﷺ الذي هو من الكبائر، وبين رواية الموضوع مع الجهل بوضعه، فإن ذلك لم يخلو منه حفاظ الحديث والمتفرغون له، فكيف بالعامة وغير المتخصصين من العلماء، وقد أصاب الغزالي من هذا النقد الشيء الكثير [6].

---

[1] المستصفى 1/172.

[2] مسلم، الجامع الصحيح، (الزهد والرقائق) 8/229 رقم 5326.

[3] إحياء علوم الدين: 3/139.

[4] المرجع السابق .

[5] المرجع السابق .

[6] ذكر ابن كثير بعض الذين شعوا على الغزالي إيراده لبعض الأحاديث المنكرة والغريبة والموضوعة، كأبي الفرج بن الجوزي، وابن الصلاح،

و يمكن تقسيم الأحاديث التي وردت في (الإحياء) بحسب قبولها وردها إلى الأقسام الثلاثة التالية:

الأحاديث المقبولة:

وهي الصحيحة بنفسها أو بغيرها، والحسنة بنفسها أو بغيرها [1]، ومثل هذه الأحاديث نجده يذكرها غالبا عند بيانه للأحكام الشرعية وأدلتها، فمثلا في كتاب (آداب السماع والوجد) من (الإحياء) عند بيان الدليل على إباحة الغناء يرجع إلى الصحيحين وينقل الخلاف في الروايات، يقول بعد بيانه ذلك:(فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين، وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام)[2]

الأحاديث الضعيفة:

وتشكل نسبة كبيرة من أحاديث (الإحياء) وأغلب مواضعها أبواب الفضائل منه، ويمكن الاعتذار له في روايتها بما يلي:

أ ـ أنه يذكرها استئناسا بعد التقديم لها بالنصوص القرآنية، وإحاطتها بغيرها من الأحاديث المقبولة والآثار عن الصحابة والتابعين، وأخيرا ببيان البرهان العقلي على فضيلة ما يتحدث عنه، وكأنه بذلك يشير إلى قبولها ـ عموما ـ بسبب عدم مصادمتها لنص صريح أو قواعد ثابتة، أو حكم عقلي[3].

ب ـ أن مراجعة أحاديث (الإحياء) الضعيفة من حيث الأسلوب

والمازري، وقد كان من أشدهم إنكار حتى أنه أراد أن يحرق الإحياء مع بعض المغاربة قائلين: هذا كتاب إحياء علوم دينه، أما ديننا فإحياء علومه كتاب الله وسنة رسوله، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 12/663 .

1) الصحيح بنفسه أو لذاته هو ما اشتمل من صفات القبول على أعلاها، أما الصحيح لغيره فهو ما صحح لأمر اجنبي عنه، (انظر: جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من قبول مصطلح الحديث، دمشق: مطبعة ابن زيدون 1925م ص56) أما الحسن لذاته فهو ماخف ضبط رحاله، وأما الحسن لغيره فهوا ما في إسناد مستور لم تتحقق أهليته، ولا عدم أهليته، غير أنه ليس مغفلا كثير الخطأ ولا متهما بالكذب، ويكون متنه معضدا بمتابع أو شاهد (الضر: محمد بن إسماعيل الصنعاني، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط1، القاهرة، 1/188).

2) إحياء علوم الدين: 2/278.

3) المشهور أن شروط العمل بالحديث الضعيف ثلاثة وهي: ألا يكون المروي شديد الضعف وأن يندرج تحت أصل كلي ثبت بالكتاب أو السنة الصحيحة. وألا يعارضه دليل أقوى منه. انظر:د. صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ط12، بيروت: دار العلم للملايين، 1981، ص212.

أو المعـنى العـام لا تشـير إلى أي ركاكـة لفظيـة أو معنويـة، على خلاف الأحــاديث شــديدة الضــعف الموجــودة في كثــير من كتب التذكير والوعظ، بل حتى كتب التفسير والحديث.

ج ـ أن الحديث الضعيف غير محكوم عليه بـالرد مطلقـا، بـل هو موضع احتمال لأنه يمكن أن يكون ذلك الـراوي قـد صـدق في ذلك الحديث، أو يكون مـا فيـه من إرسـال أو انقطـاع [1] موصـول في طرق أخرى، وكثيرا ما نـرى المتـأخرين يصـححون مـا ضـعفه الأولون، ولهذا فإن كثـيرا من الأحـاديث الـتي قـال عنهـا (الحافـظ العراقي) ـ مخرج أحاديث (الإحياء) ـ: (لا أصل لها) بين (الزبيــدي) ـ شارح (الإحياء) ـ أصلها، وكثيرا من الأحاديث التي حكم العراقي بضعفها بين الزبيدي قبولها من وجه آخر غير الوجه الذي رواها بـه العراقي.

د ـ أن أكثر العلماء يجيزون الاستدلال بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال، وقد اشتهر عن الإمام أحمد قولـه: (إذا روينـا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسـنن والأحكـام تشـددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال، ومـا لا يضـع حكما ولا يرفعه، تساهلنا في الأسانيد) [2]

وقــال الحافــظ (المنــذري) في مقدمــة كتابــه (الــترغيب والترهيب):(إن العلمـاء أسـاغوا التسـاهل في أنـواع من الـترغيب والترهيب،حتى إن كثيرا منهم ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله)[3]

وقال (عبـد الرحمـان بن مهـدي) [4]: (إذا روينـا عن النـبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجـال، وإذا روينــا في فضــائل الأعمــال والثــواب والعقــاب والمباحــات

---

[1] المرسل هو ما سقط من سند الصحابي وسبب ضعفه هو فقـد الاتصـال في سند (انظر: القاسمي، قواعـدي التحـديث، ص114)، أمـا المنقطـع فهـو الحـديث الـذي سـقط من إسـناده رجـل، أو ذكـر فيـه رجـل مبهم (انظـر: الصنعاني، التوضيح 1/289)

[2] نقلا عن: الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، حيـدر آبـاد: دائـرة المعارف العثمانية، 1357ه، ص133.

[3] الحافــظ المنــدري، الــترغيب والــترهيب تحقيــق محمــد علي قطب،ط 1،بيروت: دار القلم 1992م،1/13.

[4] هو عبد الـرحمن بن مهـدي البصـري اللؤلـؤي (135 ـ 198ه)، من كبـار حفاظ الحديث، أنه تصانيف. انظر: الزر الكلي، الأعلام 3/339.

والدعوات تساهلنا في الأسانيد)[1]

وقال ابن كثير عن الأحاديث التي يرويها الغزالي بعد ذكره لورود هذا النوع من الأحاديث في الإحياء: (كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمرا من غيره)[2]

فهؤلاء كلهم حفاظ للحديث ومتخصصون فيه، ومع ذلك أجازوا الأخذ بالحديث الضعيف، فكيف بالغزالي؟

الأحاديث الموضوعة:

وتشكل نسبة قليلة من (الإحياء)، مع الملاحظة التي أثبتناها من ضرورة مراجعة الزبيدي في شرحه (الإحياء) لأنه بين الأصول التي لم يتنبه لها العراقي، أما الأحاديث الموضوعة ظاهرة الوضع أو التي أجمع العلماء ـ بمدارسهم المختلفة ـ على وضعها فهذه يمكن طرحها من (الإحياء) بالتهذيب ـ وخاصة في النسخ المتبادلة بين العامة ـ فالغزالي أجاز التصرف في كتبه وتصحيح ما فيها، ويمكن الاعتذار للغزالي بأن التمكن من علم الحديث في ذلك العصر يستدعي التفرغ التام، فلم تظهر المراجع الميسرة للبحث والتخريج إلا عند المتأخرين المتفرغين.

وقد كان الغزالي مخيرا بين التفرغ للحديث نقلا وتصحيحا وبين الاهتمام بالجانب الثاني من الحديث، وهو الفهم والبحث عن الحقائق والأسرار، وذلك ما ارتضاه لنفسه وما ارتضاه له من بعده، وقد قال معتذرا عن نفسه:(أنا مزجي البضاعة في الحديث)[3].

أما أمر الأحاديث فهين لأن كل مطالع للإحياء ـ في هذا العصر وقبله ـ يجد تخريج الأحاديث أمامه، وبكل سهولة، فالضعيف مبين ضعفه، والموضوع مصرح بوضعه، فانتفى الخطر، ولا معنى للتحذير من (الإحياء) بعد هذا بهذه الحجة.

ب ـ الضبط:

وهو سماع الراوي بالرواية كما يجب، وفهمه لها فهما دقيقا، وحفظه لها حفظا كاملا لا تردد فيه، وثباته على هذا كله من وقت

---

[1] نقلا عن الحاكم النيسابوري، المستدرك، جيدر آباد: دار المعارف العثمانية ـ1334ه 1/490.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية 2/663.

[3] المرجع السابق : 12/663.

السـماع إلى وقت الأداء [1]، وأهم مرتبـة في الضـبط هي السـماع لتوقف غيرها من المراتب عليها، وقـد أصـبح في عصـر الغـزالي ـ كما يعبر عنه ــ مجـرد رسـوم وضـعها المحـدثون، (فـترى الصـبي يحضر في مجلس الشيخ، والحديث يقـرأ، والشـيخ ينـام، والصـبي يلعب، ثم يكتب اسم الصبي في السماع؛ فإذا كبر تصـدى ليسـمع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ، والشيخ الذي يقـرأ عليـه لـو صـحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به، ولم يعرفه) [2].

والغزالي يحرم التصريح بهـذا النـوع من السـماع لأنـه كـذب صريح، ولو جاز ذلك لجـاز أن يكتب سـماع المجنـون والصـبي في المهد [3]، والسبب الذي يراه الغزالي في انتشار هذه الظاهرة هـو ما كان للمحدثين من جاه وقبول، (فخاف المساكين أن يشـترطوا ذلك، فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم، وتقل أيضا أحاديثهم التي سمعوها بهذا الشرط)[4]

والسماع الذي يصح ويعتمد في النقل ــ كمـا يـرى الغـزالي ـ هو أن يصير (سـماعك عن الـراوي كسـماع من سـمع من رسـول اللــه ﷺ، وهــو أن تصـغي لتســمع فتحفـظ وتـروي كمـا حفظت، وتحفظ كما سمعت، بحيث لا تغير منه حرفا، ولو غـير غـيرك منـه حرفا، أو أخطأ علمت خطأه)[5]

ويلي الســماع الحفــظ، ولــه طريقــان:(أن تحفــظ بــالقلب وتستديمه بالـذكر،وهـذا هـو المقصـود الأصـلي من الحفـظ، أو أن تكتب كما تسمع، وتصحح المكتوب، وتحفظه حتى لا تصل إليـه يـد من يغيره) [6]، وهو يستدل لهذا التشدد في الضبط بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء:36)

ولكنه مع ذلك، وللضرورة، يرى جواز رواية الأحاديث بالمعنى

---

[1] المستصفى 1/165.

[2] إحياء علوم الدين: 3/397.

[3] المرجع السابق 3/398.

[4] المرجع السابق .

[5] المرجع السابق 3/397.

[6] المرجع السابق .

للعالم بمواقع الخطاب ودقائق الألفاظ، ويستدل على جوازه بالإجماع على جواز شرح الشرع للأعاجم بلسانهم، (فإذا جاز إبدال العربية بعجمية ترادفها فلأن يجوز عربية بعربية ترادفها وتساويها أولى، وكذلك كان سفراء رسول اللهﷺ في البلاد يبلغونهم أوامره بلغتهم)[1]، ولكن ذلك لا يكون إلا فيما لم نتعبد بلفظه كالتكبير والتشهد ونحوها.

2 ـ تفهم المعاني العميقة للأحاديث النبوية:

يرى الغزالي أن العلوم المرتبطة بالحديث الشريف تنقسم إلى قسمين ـ مثلها مثل العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم ـ:علوم الصدف، وعلوم الجوهر.

أما علوم الصدف أو القشر، فهي العلوم المرتبطة برواية الحديث وشرحه، (فدرجة الحافظ الناقل كدرجة معلم القرآن الحافظ له، ودرجة من يعرف ظاهر معانيه كدرجة المفسر، ودرجة من يعتني بعلم أسامي الرجال كدرجة أهل النحو واللغة، لأن السند والرواية آلة النقل، وأحوالهم في العدالة شرط لصلاح الآلة للنقل)[2]

وهو ينتقد استغراق محدثي عصره في سماع الأحاديث وجمع الروايات الكثيرة منها، وطلب الأسانيد الغريبة العالية، (فهمة أحدهم أن يدور في البلاد، ويرى الشيوخ ليقول:(أنا أروي عن فلان، ولقد رأيت فلانا، ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري)[3]

وكل ذلك مع الغفلة عن طلب المعاني وتفهم الحقائق، فهم كما يعبر الغزالي (كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة) [4]

وأما علوم الجوهر واللباب فآليتها التدبر ـ مثلما سبق بيانه عند الحديث عن القرآن الكريم ـ، وثمراتها العلوم والمعارف والفهوم، والأساس النفسي لذلك هو التعظيم بشقيه:

تعظيم الرسول ﷺ واعتقاد منزلته وكرامته عند الله تعالى :

---

[1] المستصفى 1/169.

[2] جواهر القرآن ص38.

[3] إحياء علوم الدين: 3/297.

[4] المرجع السابق .

تلك الكرامة التي لا يمكن تصورها أو التعبير عنها إلا بما عــبر به القرآن الكريم أو رسول اللهﷺ فـ (يستحيل أن يعرف النــبي إلا النبي،، وأما من لا نبوة له، فلا يعـرف من النبـوة إلا اسـمها، وأنهـا خاصية موجودة لإنسـان بهـا يفـارق من ليس نبيـا، ولكن لا يعـرف ماهية تلك الخاصة إلا النبي خاصة) [1]،ونلاحظ ـ في هـذا المجـال ـ تركيز الغزالي على خاصـية (النبـوة)، لأن شـرف الرسـل ــ عليهم الصلاة والسلام ـ وكرامتهم عند الله والعلوم الوهبية الحاصلة لهم، كلها نتيجة لتك الموهبة العظمى موهبة النبوة، وتفهم هذه الموهبة ـ والتي هي الأسـاس الأول في التفهم العميـق للسـنة الشـريفة ـ يستدعي السلوك وتطهير القلب أو (التصوف) كما يفهمه الغـزالي فمن لم يرزق منـه شـيء بالـذوق، لا يـدرك من حقيقـة النبـوة إلا الاسم [2].

تعظيم ما جاء به واعتقـاد أنــه ليس كلامـا أو تصرفا عاديا:

قد يصدر من أي شخص، بـل إن كـل كلمـة من كلماتـه بحـر من بحار العلم، يقول الغزالي: (إذا فهمت معـنى النبـوة، فـأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضـروري بكونـه على أعلى درجات النبوة) [3]

وهذا هو الطريق الذي يـراه الغـزالي سـبيلا للإيمـان بـالنبوة، وبكـل مـا جـاءت بـه، يقـول الغـزالي: (فمن هـذا الطريـق اطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعبانا، وشق القمر، فإن ذلــك إذا نظرت إليه وحـده ولم تنضـم إليـه القـرائن الكثـيرة الخارجـة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل) [4]

انطلاقا من هذا الشعور النفسي بالقيمة الكبرى لرسـول الله ﷺ ولكلامه ــ في رأي الغـزالي ــ تبـدأ الفهـوم والمعـاني العميقـة والأسرار تتنزل على قلـوب المهتمين بالسـنة المعظمين لهـا، لأن أكثر المعاني العميقـة وهبيـة لا كسـبية، ومحـل الكسـب منهـا هـو التطهير ورفع الحجب والتعظيم فقط ـ كما سبق بيانه ـ

---

[1]) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص40.

[2]) المنقذ من الضلال ص128.

[3]) المرجع السابق ص133.

[4]) المرجع السابق .

ولا يشترط في هذه الفهوم إمكانية التعبير عنها أو تحديدها بالألفاظ لأن أكثرها ذوقي و(الذوق كالمشاهدة والأخذ باليد) [1]، فهو علاقة وجدانية مع الرسول ﷺ وكلامه بحيث يظل طالب الفهم يستمد منه كل مرة فوائد تقصر العبارة عنها.

ويشترط الغزالي لصحة الفهم عدم (صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة [لأن]الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، وبغير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ)[2]

ومن الأمثلة التي يضربها الغزالي على ذلك تأويل قوله ﷺ: (تسحروا، فإن في السحور بركة) [3] بحمل السحور على الاستغفار، لأن مورد الحديث يدل على أن المراد بالتسحر طعام السحور، فقد كان ﷺ يتناول الطعام ويقول:(تسحروا) [4]، فمثل هذا التأويل يقول عنه الغزالي: (وكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شئ من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين) [5]

ويرى الغزالي أن أكثر الأخطاء في الفهم وأشنعها يرجع إلى تبديل معاني الألفاظ الشرعية التي تعارف عليها أهل القرن الأول بغيرها من المعاني حتى أصبحت الألفاظ الشرعية كسوة الانحرافات والبدع والضلالات، وأصبحت السنة بذلك دليلا لتلك الانحرافات، يقول الغزالي: (اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول)[6]

ومن الألفاظ التي كان لتبديل معانيها أثر سيئ على المجتمع الإسلامي ــ في رأي الغزالي ــ مصطلح (التذكير) و(مجالس الذكر) التي وردت الأحاديث الكثيرة في فضلها كقوله ﷺ: (إذا

---

[1] المنقذ من الضلال ص134.

[2] إحياء علوم الدين: 1/37.

[3] مسلم، الجامع الصحيح (كتاب الصيام) 2/770 رقم 18351.

[4] إحياء علوم الدين: 1/37.

[5] المرجع السابق .

[6] المرجع السابق 1/31 ـ 32 .

مررتم برياض الجنة فارتعوا) [1]، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: (مجالس الذكر) [2]، حيث نقل معناها إلى (ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه، وهو القصص والأشعار والشطح والطامات) [3]، أما معناها في عهد السلف ــ وكنموذج على ذلك ينقله الغزالي من الآثار المنقولة عن الحسن البصري ـ (فكان في الكلام في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، والتذكير بآلاء الله ونعمه وتقصير العبد في شكره وتعريف حقارة الدنيا وعيوبها وخطر الآخرة وأهوالها) [4].

والخلاصة أن تعظيم رسول اللهﷺ واستشعار أهمية وعمق وسعة كل حديث أو سنة تصدر عنه مع المحافظة على ظواهر الألفاظ الشرعية ينتج العلوم الكثيرة والفهوم العميقة، فقد كان ﷺلا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم:4)

3 ـ تتبع مواضع القدوة من السنن:

يعتبر الغزالي العمل بالسنة وتتبع مواضع القدوة منها الهدف الأصلي والثمرة الأخيرة من طلب علمها، ويحكي في ذلك عن بعض المشايخ أنه حضر مجلس سماع فكان أول حديث روي قوله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[5]، فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره[6].

وهو لذلك يفسر الاتباع المقصود في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران:31) بالاتباع المطلق للرسول ﷺ في جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته.

ولهذا يذكر في كل باب من أبواب العبادات أو العادات دقائق

---

[1] الرتع: الأكل بشره، شبه الخوض في ذكر الله بالرتع في الخصب، انظر: ابن منظور، لسان العرب، 8/112 رقم 5114.

[2] الترمذي، السنن، (كتاب الدعوات)، 5/2317، رقم 3432.

[3] إحياء علوم الدين: 1/34.

[4] المرجع السابق 1/35.

[5] ابن ماجة، السنن، القاهرة: دار الكتاب المصري،بيروت: دار الكتاب اللبناني،(كتاب الفتن) 2/1316،رقم 3976.

[6] إحياء علوم الدين: 3/398.

السنن الواردة فيها (فلا ينبغي أن تتساهل في ذلك، فتقول: هذا مما يتعلق بالعادات، فلا معنى للاتباع فيه، لأن ذلك يغلق عليك بابا عظيما من أبواب السعادة) [1]

وهو يعتبر الوارث الكامل للنبيﷺ من (اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا درجة واحدة هي درجة النبوة، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث)[2]

ومع هده الدعوة للالتزام بالسنن يناقش الغزالي الشبه التي يقع فيها الكثير من الحرفيين الذين لا يفرقون بين مواضع القدوة من السنن، وبين ما هو فعل للرسول ﷺ خاصة، وليس مقصودا به الاقتداء، ومن تلك الشبه:

1. الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:21)
2. أن رسول اللهﷺ نبي، وتعظيم النبي واجب، والتأسي به تعظيم.
3. أنه لو لم يتابع في أفعاله لجاز أن لا يتابع في أقواله، وذلك تصغير لقدره وتنفير للقلوب عنه.
4. الاحتجاج ببعض الأخبار عن السلف في اقتدائهم بأفعال الرسول ﷺ كتقبيل ا بن عمر للحجر الأسود وقوله:(إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولو لا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك)[3]

ومن الردود التي ذكرها الغزالي، ونستطيع من خلالها تصور موقفه من هيئة الالتزام بالسنة ما يلي:

1. أن الآية أمرت بالتأسي به ﷺ في الفعل الذي أوقعه على ما أوقعه، فإذا فعلنا على قصد الندب ما فعله ﷺ بنية الوجوب أو الإباحة لم نكن مقتدين به، كما أنه إذا قصد الندب فأوقعناه واجبا خالفنا التأسي (فلا سبيل إلى التأسي به قبل معرفة قصده، ولا يعرف قصده إلا لقوله أو بقرينة)

[1] الأربعين في أصول الدين ص69.

[2] إحياء علوم الدين: 1/142.

[3] الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، الدزائر: مكتبة الشهابة (كتاب الحجج) 1/184 رقم: 808.

[1]

2. أن تعظيم النبي ﷺ بالاقتداء به لا يكون في تلك الأمور، وإنما في طاعته فيما يأمر به، أو ينهى عنه، كما أن تعظيم الملك في الانقياد له، (لا في التربع إذا تربع، ولا في الجلوس على السرير إذا جلس عليه) [2]، فلو نذر الرسول ﷺ أشياء لم يكن تعظيمه في أن تنذرها مثلما نذرها، ولو طلق أو باع أو اشترى لم يكن تعظيمه في التشبه به [3].
3. أن عدم متابعته ﷺ في بعض أفعاله لا يعني عدم التعظيم له، ولو كان الأمر كذلك (لكان تركنا للوصال، وتركنا نكاح تسع، بل تركنا دعوى النبوة تصغيرا)[4]
4. أن الآثار المنقولة عن الصحابة في إقتدائهم بأفعاله ﷺ أكثرها متعلق بالشعائر التعبدية كالصلاة والصوم والوضوء والحج غيرها، وقد كان ﷺ بين لهم أن شرعهم فيها هو شرعه.

فالالتزام بالسنة إذا ـ كما يتصوره الغزالي ـ هو الاقتداء به ﷺ في أوامره ونواهيه، فأما غير ذلك من هيئات مما لم يدل دليل على كونه مقصودا به الاقتداء، فينظر إلى معناه وحقيقته وروحه، والسنة بهذا المفهوم لا تعني النقل الحرفي لما كان عليه ﷺ في بيئته وعصره مع تناسي التغيرات البيئية أو الزمنية، واعتبار كل مخالفة لذلك بدعة؛ بل تعني البحث عن المقاصد الكلية والخصائص العامة وتطبيقها في كل مجتمع وكل عصر بحسب الحاجة إلى ذلك.

فالبدعة إذا هي مصادمة السنة ومعارضتها، أما غير ذلك فإن الغزالي لا يعتبرها بدعة، ولو لم تكن في عهده ﷺ أو عهد أصحابه، يقول الغزالي عند بيانه لجواز النقط والعلامات بالحمرة وغيرها على المصاحف بعد نقله لكراهية الكثير من العلماء لذلك[5]: (ولا

---

[1] المستصفى 2/217.

[2] المرجع السابق 2/218.

[3] المرجع السابق .

[4] المرجع السابق .

[5] من الذين كرهو ذلك إبراهيم النخعي والشعبي، وذلك سدا لذريعة إحداث زيادات في القرآن، باعتبارهم مقاربين لزمن نزوله، أما في العصور التي تلتهم فقد ارتفع الحرج، بل إن من المعاصرين هم من أجاز ذلك للفائدة

يمنع من ذلك كونه محدثا، كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر، وإنها بدعة حسنة)[1]، ثم يعقب مقررا: (إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها).[2]

ومع ذلك فإن الاقتداء به ﷺ في ذلك من باب المحبة والشغف بما يحب دون اعتقاده سنة، أو إلزام الناس به من المستحبات المشروعة، وهو ما كان عليه الكثير من الصحابة [3].

ثالثا ـ التصوف: سلوكا ومعرفة

يعتبر التصوف من أهم أصول منهج الغزالي الإصلاحي، فهو الاتجاه الذي توجه إليه بعد جولا نه في الطوائف، وسبره لأغوار الفرق، وهو كذلك النتيجة التي خلص بها من فترة عزلته الطويلة، يقول في (المنقذ من الضلال): (وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق) [4]

وهو يقف بالتصوف في وجه التيار العقلي الجارف الذي غلب على المباحث العقدية الكلامية، والتي أحالت الإيمان إلى قضايا عقلية مجردة جافة لا يفهمها العامة، ولا يتأثر لها الخاصة، ويقف به كذلك في وجه العقلية الفقهية التي غلب عليها التفريع والجدل والبحث في ظواهر الشريعة دون الغوص في حقائقها وأسرارها.

وسنتحدث في هذا المبحث عن تصوف الغزالي في جانبيه السلوكي أو المعرفي:

1 ـ السلوك الصوفي:

الرجوة منه ومنهم الحسن البصري، انظر: إحياء علوم الدين: 1/277،276.

1) إحياء علوم الدين: 1/276.

2) المرجع السابق .

3) انظر على سبيل المثال: إحياء علوم الدين: 2/371،370.

4) المنقذ من الضلال، ص127.

وهو الطريق الذي يسلكه المريد لطلب المعرفة الإلهية، وقد اختلفت المدارس الصوفية قـديما وحـديثا في تحديـده، وبـالرجوع إلى كتب الغزالي نجد نوعين من السلوك:

أ ـ السلوك العام:

و يـرى الغـزالي فرضـيته على كـل مكلـف،فالتصـوف عنـده نوعـان: عـام وخـاص، فأمـا العـام فيتعلـق بمجمـوع المكلفين من حيث القيـام بـأداء الفـرائض كمـا أمـر الشـارع بهـا أداء وتحققـا، واجتناب النواهي ظواهرها وبواطنها.

و كــل ذلــك لا يتم إلا بالممارســة الصــوفية والتتلمــذ على المشايخ، ولهذا اشتهر عن الغزالي ـ كما ينقل المتأخر ون ـ القول بالفرضية العينية للتصوف[1] وهو كما يظهر من خلال كتبه ورسائله لا يقصد من ذلك إلا هذا الجانب، أمـا الجـوانب الأخـرى كالسـلوك الخاص أو المعرفة الصوفية، فهي إما ممارسات اجتهادية للخاصة، أو ثمرات وهبات ربانية لا دخل للكسب فيها إلا من جهة الاستعداد لحصولها.

ولذلك نجده يفرق أحيانـا بين التصـوف والسـلوك، فالسـلوك (هـو تهـذيب الأخلاق والأعمـال والمعـارف،وذلـك اشـتغال بعمـارة الظاهر والبـاطن،والعبـد في جميـع ذلـك مشـغول عن ربـه إلا أنـه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول)[2]

و يســمي الســلوك العــام بـــ (علم المعاملــة)، وهــو العلم المكمل لعلم الفقه باعتبار الفقه ـ كما أصـطلح عليـه المتـأخر ون [3] ـ متعلـق بظـواهر الأعمـال دون بواطنهـا وحقائقهـا، وهـو يعتب على الفقهـاء قصــرهم الفقــه على تلــك الجــوانب دون مراعــاة

---

[1] نقل ذلك عنه ابن عجيبة الحسني في شرحه للحكم العطائية معللا ذلــك بقوله: إذا لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، ونقــل ـ أيضا ـ عن أبي الحس الشاذلي في قول المؤيد لرأي الغزالي، وهو:(من لم يتغلغـل في علمنـا هـذا مـات مصـرا على الكبـائر وهـو لا يشـعر) انظـر: ابن عجيبة، ايقاظ الهمم في شرح الحكم، بيروت: دار الفكر 1/7.

[2] روضة الطالبين وعمدة السالكين، بيروت: دار النهضة الحديثة ص23.

[3] اصـطلح المتـأخرون على تعريـف الفقـه بأنـه (العلم بالأحكـام الشـرعية العلمية المكتسب منـه الأدلـة التفصـيلية)، فهـو مختص في الأحكـام العمليـة فقط في الحين الذي عرفه أبو حنيفة بانه (معرفة النفس ما لهما وما عليها)، وقد أخذ عليه بأنه تعريف عام، ولكن مع ذلـك كـان هـو الفقـه المعـروف في عصره، انظر: د.وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي 1/19.

مقاصده وحقائقه،يقول في ذلك: (ولو سئل فقيه عن معنى هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا، أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شئ منها)[1]

وهو يضرب مثلا على حاجة الفقه إلى هذا العلم التكميلي الفرضي كفرضية الأحكام الفقهية نفسها بالأركان الشرعية التي يقوم عليها بناء الدين، فالفقيه يفتي بصحة الصلاة إذا أتي بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان المصلي غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها، مع أن هذه الصلاة لا تنفع صاحبها تزكية في الدنيا ولا أجرا في الآخرة (أما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة، وبه ينفع العمل الظاهر فلا يتعرض له الفقيه، ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه)[2]

وقد بلغ تحكم الظواهر بالفقهاء إلى درجة التلاعب بالأحكام الشرعية والاحتيال عليها لتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو التنصل من الواجبات[3]، وقد نقل الغزالي من ذلك عن بعض الحنفية أنه كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستو هب مالها إسقاطا للزكاة [4].

وقد حاول الغزالي في (إحياء علوم الدين) أن يستدرك حاجة الفقه إلى (علم المعاملة)[5]، فجمع بين الأحكام الفقهية الظاهرة كما تنص عليها كتب الفقه، مع كلام الصوفية في دقائق الآداب الباطنة، كما نص عليها أكابر الصوفية، مثل الجنيد والحارث المحاسبي وأبي طالب المكي وأبي القاسم القشيري وغيرهم.

---

[1]) إحياء علوم الدين: 1/21.

[2]) المرجع السابق 1/18.

[3]) المرجع السابق .

[4]) المرجع السابق .

[5]) ينص الغزالي كثيرا على أن مراده من الإحياء هو جمع كل ما يتعلق بعلم المعاملة، ولذلك يثكر من الوصية به في كل مناسبة تدعو إلى ذلك، كقوله (وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه في كتاب (إحياء علوم الدين)، فإن كانت من أهله فحصله، واعمل به، ثم علمه، وادع اليه)، بداية الهداية (مجموعة منهاج العابدين) مصر: مكتبة الجندي ص229.

وقد كان للغزالي أثـر كبـير في جمـع الكثـير من المتفرقـات المتعلقة بعلم المعاملة ـ كما يسميه ــ من كلام الصـوفية وترتيبهـا وتحقيق القول فيها بما يغني عن الرجوع لغيره، وقـد اعـترف هـو نفسه بأنه قد سبق في تصنيفه (لعلم المعاملة)، ولكن كتابه يتميز عن غيره بـ (حل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه، وترتيب ما بددوه، ونظم ما فرقوه، وإيجاز ما طولوه، وضبط ما قـرروه،و حـذف مـا كرروه، واثبات ما حرروه، وتحقيق أمور غامضة لم يتعرض لها في الكتب أصلا) [1]

ولذلك فإن توجيه اللوم للغزالي لاعتماده كثيرا على المصادر السابقة عليـه كـ (قـوت القلـوب) لأبي طـالب المكي و(الرعايـة) للحارث المحاسبي، لا ينفي الآثار التجديدية التي خلفتها كتبه، فقد كان لصورة التصنيف، وبراعة التحقيق، وجودة التلخيص، وسـهولة الأسـلوب، وغنـاه بالأمثلـة التوضـيحية، وربـط كـل ذلـك بالمصـادر الأصـلية، ومـا كـان عليـه السـلف الصـالح الأثـر الكبـير في فهم التصوف العملي وسلوك سبيله من لدن عامة الناس وخاصتهم.

وقد نقل الشيخ عبد القادر العيـدروس[2] إجمـاع العلمـاء على الثناء على كتب الغزالي، وتأثيرها، فقال: (أجمع العلماء والعارفون بالله على أنه لا شئ أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي، ومحبة كتبه، فإن كتب الإمام الغزالي لبـاب الكتاب والسنة، ولباب المعقول والمنقول)[3]

وقد كان ذلك سببا في أن تجتمع الأمة بطوائفهـا جميعـا على الاستفادة منـه، فبالإضـافة إلى اعتبـار الطـرق الصـوفية للغـزالي وكتبه مرجعا في السلوك، نجد الشـيعة تهتم بإحيـاء علـوم الـدين، بل وتؤيد الكثير مما في ورد فيـه بمـا ورد من الروايـات عن أهـل بيت النبـوة، وقـد قـام الفيض الكاشـاني بـذلك أحسـن قيامـه في كتابه القيم (المحجّـة البيضـاء)، والـذي يعتـبر من مراجـع الشـيعة الكبرى خاصة في العرفان العملي.

---

[1] إحياء علوم الدين: 1/3.

[2] هو عبد القادر بن شيخ (978 ـ 1038هـ)، مؤرخ يمـني، من كتبـه: (النـور السافر عن أخبار القرن العاشر) و (تعريـف الأحيـاء بفضـائل الأحيـاء) انظـر: الزركلي، الأعلام 2/39.

[3] عبد القادر العيدروس، تعريف الإحيـاء بفضـائل الإحيـاء (ملحـق الإحيـاء) 5/5.

ويمكننا انطلاقا من (الإحياء) أن نحصر السلوك الصوفي العام في الميادين التالية:

أداء الشعائر التعبدية بدقائق آدابها وسننها:

والاقتداء في كل ذلك برسول الله ﷺ، مع محاولة الغوص لاستنباط حكم ظواهر تلك العبادات باعتبارها رموزا وإشارات إلى معان جليلة يتحقق الإنسان بالقرب من الله ــ الذي هو الغاية الكبرى ـ بقدر علمه بتلك المعاني.

وقد جمع الغزالي في (ربع العبادات) من الإحياء من دقائق الآداب الباطنة لكل العبادات ما فيه الغنية، وقد جعلها بشكل التفاريع الفقهية لتلقى القبول لدى المتعلمين، ويسهل عليهم تحصيلها، ولهذه الآداب تأثير ملحوظ على قرائها، يقول سعيد حوى:(ليحاول أحدنا أن يمسك الجزء الأول من الإحياء ..وليقرأ كتاب (تلاوة القرآن) فيه، ثم ليجرب أن يقرأ القرآن بعد ذلك، إنه لاشك سيجد أن حضور قلبه مع القرآن قد اختلف عما كان قبل ذلك)[1]

التزام الآداب الإسلامية في جميع الأحوال:

من أكل وشرب وسفر وتجارة وعزلة وخلطة وزواج وكسب... وغيرها حتى تصير الحياة جميعا منسجمة مع قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: 162، 163)

وقد وضع الغزالي لأجل هذا الغرض (الربع الثاني) من الإحياء الذي سماه (ربع العادات) متناولا فيه (أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها، وذلك مما لا يستغني عنه متدين)[2]

تخلية القلب من كل الآفات:

التي تحول بينه وبين الله سبحانه وتعالى، وأول ذلك أمراض القلوب، أو كما يسميها الغزالي (المهلكات)، وهي الأخلاق المذمومة التي ورد القرآن الكريم بالدعوة إلى تطهير القلب منها[3]، وهي أول السير الباطني إلى الله تعالى، لأن القلب المشحون

---

[1] سعيد حوى، تربيتنا الروحية، الجزائر: مكتبة رحاب ص164.

[2] إحياء علوم الدين: 1/3.

[3] المرجع السابق 3/79.

بالغل والحسد والكبر والرياء والعجب والغرور قلب محجوب عن الله بصفات نفسه، ولن يسلك هذا القلب السلوك القويم إلا بعد تخلصه من تلك الآفات.

وقد ذكر الغزالي في (الربع الثالث) من الإحياء هذه المهلكات معرفا بها مفصلا أسبابها، وما ينشأ عنها من مضار مبينا طريق العلاج منها.

تحلية القلب بالأحوال الإيمانية:

والمقامات التي ورد الحث عليها في النصوص الشرعية من التوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر وغيرها، وقد خصص الغزالي الربع الأخير من (الإحياء) لذلك مسميا إياه (ربع لمنجيات) [1]، وهو يدعو من خلاله إلى إنشاء علاقة وجدانية بين العبد وربه تملأ القلب محبة له ورضا عنه وإنابة إليه.

هذه هي الخطوات التي يرى الغزالي وجوب سلوكها للوصول إلى درجة المتقين، وأهلها هم أهل الولاية العامة، أما المقربون والصديقون فلهم ــ زيادة على ما سبق ــ سلوكهم الخاص، فنهاية التقوى بداية القرب.

ب ـ السلوك الخاص:

نجد في كتب الغزالي ـ كما نجد في كتب الصوفية عموما ـ التفريق بين درجات المؤمنين، فهم بين عوام وخواص وخواص الخواص، أو أهل اليمين والمقربين، ولكل درجة من تلك الدرجات فهمها وتوجهها وسلوكها الخاص، فللورع ـ مثلا ـ أربع مراتب:

1. **الورع العام:** وهو الذي يشترط في عدالة الشهود، وهو الاحتراز من الحرام الظاهر.
2. **ورع الصالحين:** وهو التوقي من الشبهات التي تتقابل فيها الاحتمالات كما قال رسول الله ﷺ: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) [2].
3. **ورع المتقين**: وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام كما قال ﷺ: (لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس)[3]

---

[1] المرجع السابق 1/3.

[2] الترمذي، السنن، (صفة القيامة) 4/577 رقم: 4080.

[3] الترمذي، السنن، (صفة القيامة والرقائق والورع) ،ج2 رقم 2451.

4. **ورع الصديقين**: وهو الإعراض عما سوى الله تعالى [4].

وللصوم ـ كذلك ـ ثلاث درجات: صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص:

1. أما **صوم العموم** فهو كف الجوارح عن الشهوات كما نصت على ذلك كتب الفقه.
2. وأما **صوم الخصوص** فهو كف السمع والبصر وسائر الجوارح عن الآثام.
3. وأما **صوم خصوص الخصوص** فهو كما يعبر الغزالي: (صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية)[2]، ثم يعقب على ذلك بقوله: (ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكرفيما سوى الله تعالى) [3].

ونستطيع أن نستنبط من هذا التقسيم رؤية الغزالي للسلوك الخاص، فهو يرى أن خاصة الخاصة أو المقربين مستغرقون في سلوكهم بالله تعالى قاصرون هممهم عليه، فلا يحبون إلا الله، ولا يخافون إلا منه، ولا يتوقعون الرزق من غيره ولا ينظرون إلى شئ إلا ويرون الله تعالى فيه، ولذلك لم يفتقروا إلى المجاهدات الكثيرة، ولا إلى تنويع الأوراد لأن وردهم بعد الفرائض واحد وهو (حضور القلب مع الله تعالى في كل حال، فلا يخطر بقلوبهم أمر، ولا يقرع سمعهم قارع، ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد)[4]

وهذا التوجه هو الذي يفرق بين العباد والعارفين، فهمة العابد مقصورة على العبادة الظاهرة من صلاة وصيام وأذكار لا شغل له بغيرها، فهو يتردد بين فرائضها ونوافلها في جميع أوقاته [5]، أما همة العارف فهي التوجه إلى الله تعالى ومراعاة الأنفاس في ذلك ونفي الخواطر حتى لا يكون قلبه إلا مع الله، فسير الأول حسي وسير الثاني معنوي، ومطلوب الأول الحسنات والدرجات

---

[4]) إحياء علوم الدين: 1/19،18.

[2]) المرجع السابق 1/238.

[3]) المرجع السابق .

[4]) المرجع السابق 1/350.

[5]) المرجع السابق 1/348.

ومطلوب الثاني معرفة الله.

وهذا هو الإخلاص الحقيقي الذي يراه الغزالي ــ كما يراه الصوفية جميعا ـ (أما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط) [1]

و قد نقل الغزالي ــ هنا ــ حكم القاضي أبي بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ لأن ذلك من صفات الألوهية، وعقب على ذلك بقوله (وما ذكره حق،ولكن القوم إنما أرادوا البراءة عما يسميه الناس حظوظا، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، ولا يعده الناس حظا) [2]

بعد هذا، فإن القول الشائع بأن طريقة الغزالي في السلوك تعتمد على المجاهدات الحسية بخلاف طريقة أبي الحسن الشاذلي[3] المعتمدة على السير القلبي وتسميتها بسبب ذلك بطريقة الشكر [4] غير مقبول ــ على إطلاقه ــ فقد ذكرنا تمييز الغزالي بين أصناف الناس ودرجاتهم، فللعوام سيرهم الحسي ومجاهداتهم الحسية، وللخواص الذين ترقت نفوسهم وعلت هممهم سيرهم القلبي المعتمد على رفع الهمة عن الأكوان والتوجه بها نحو الله تعالى.

ولكن رفع الهمة ـ مع ذلك ـ يحتاج تحققه إلى المداومة على الأوراد والمحافظة عليها (فلا ينبغي أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك، فيدعيه لنفسه، ويفتر عن وظائف عبادته، فذلك علامته أن

---

[1]) المرجع السابق 4/381.

[2]) المرجع السابق .

[3]) من كبار رجال الطرق الصوفية، إليه تنسب الطريقة الشاذلية المنتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، توفي سنة 656هـ انظر: ترجمته بالتفصيل في: ابن عطاء الله الإسكندري، لطائف المنن، تحقيق: عبد الحليم محمود،ط 2، بيروت: دار الكاتاب اللبناني 1985.

[4]) عبد العزيز الدباغ، الإبريز، جمع ابن مبارك، القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ص211.

لا يهجس في قلبه وسواس، ولا يخطر في قلبه معصية)[1]

وقد فصل الغزالي المراتب الأولى للسلوك الخـاص المعتمـد على الشيخ المرشد والذكر، حيث يلزم الشيخ السالك زاوية ينفرد بها، ويوكل من يقوم له بقدر يسير من القـوت الحلال (فـإن أصـل طريق الدين القـوت الحلال)، وعنـد ذلـك يلقنـه ذكـرا من الأذكـار يشتغل به لسـانه وقلبـه، فيجلس مـرددا ــ مثلا ــ (اللـه، اللـه)، أو (سبحان الله، سبحان الله) أو مـا يـراه الشـيخ من الكلمـات... فلا يزال مواظبا على ذلك حتى تسقط حركة اللسـان وتكـون الكلمـة وكأنها جاريـة على اللسـان من غـير تحريـك، ثم يسـقط الأثـر عن اللسـان وتبقى صـورة اللفـظ في القلب، ثم لا يـزال كـذلك حـتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب غالبة عليه، ومنتهى ذلك أن يجد قلبه مع الله تعـالى دائمـا، فإذا حصل له ذلك (انكشف لـه جلال حضـرة الربوبيـة، وتجلى لـه الحق، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف، بل لا يحيط به الوصف أصلا)[2]

وبعد خروج السالك من خلوته يحافـظ على ورد قلبـه الـدائم الذي هو الاسـتغراق في التوجـه إلى اللـه، كمـا نقـل الغـزالي عن الشبلي [3] قوله لأحد مريديه: (إن كـان يخطـر بقلبـك من الجمعـة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شئ غـير اللـه تعـالى فحـرام عليك أن تأتيني)[4]

2 ـ المعرفة الصوفية:

ويسميها الغزالي (علم المكاشفة)، ويعرفهـا بأنهـا عبـارة عن (نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيتـه من صـفاته المذمومـة يرفع الغطاء عن القلب حتى تتضح له جليـة الخلـق، فتنكشـف لـه حقيقة الأشـياء الـتي كـان من قبـل يسـمع أسـماءها، ويتـوهم لهـا معاني مجملة غير متضحة) [5]

فتحصل له بذلك النور المعرفة الحقيقية بـذات اللـه سـبحانه

---

[1] إحياء علوم الدين: 1/350.

[2] المرجع السابق 3/77.

[3] هو أبو بكر بن جحدر، صجب الجنيد وأقرانه، وصار أوحد أهل وقتـه علمـا وحالا، توفي سنة 334هـ، انظر: الشعراني، الطبقـات الكـبرى، القـاهرة: دار الفكر العربي 1952، ص89.

[4] إحياء علوم الدين: 1/77.

وتعالى وصفاته وأفعاله وحكمته في خلق الدنيا والآخرة، ومعنى النبوة والوحي ومعنى الملائكة والشياطين، وكل الحقائق الاعتقادية [1].

وهو ـ كما يرى الغزالي ــ علم ذوقي لا يمكن التعبير عنه، وحصوله في القلب يكون بغير استدلال أو تعلم، ولذلك يسميه: (إلهاما)، و(علما لدنيا)[2]، ويقسم العلوم غير الضرورية الحاصلة في القلب باعتبار حاجتها إلى التعلم والاستدلال إلى ثلاثة أقسام:

1. **الإلهام**:ويختص بع الأولياء والأصفياء.
2. **الوحي**:ويختص به الأنبياء.
3. **التعلم**:ويختص بع العلماء.

والقسم الأول والثاني لا يحتاجان إلى تعلم واستدلال بخلاف القسم الثالث[3].

وهو في مناسبات كثيرة ينبه إلى أن الإلهام أثر للوحي، لا شيء قائم بذاته منفصل عنه، يقول في (الرسالة اللدنية): (الإلهام أثر الوحي؛ فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي، والإلهام هو تعريضه، والعلم الحاصل عن الوحي يسمى (علما نبويا) والذي يحصل عن الإلهام يسمى (علما لدنيا) .. وهو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس، وبين الباري)[4]

وهو يرى أنه لا يجوز للعقل أن ينكر وجود المعرفة الإلهامية، باعتبارها لا تخضع لمقاييسه يقول في (مشكاة الأنوار): (..لا يبعد، أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لم يبعد كون العقل طورا وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز)[5]

---

[5] إحياء علوم الدين: 1/20 وهو يفرق بين العلم والمعرفة في أن العلم إدراك، والمعرفة تحقق، فرؤية النار مثلا علم ، والصطلاء بها معرفة (انظر: روضة الطالبين ص54)

[1] المرجع السابق .

[2] الرسالة اللدنية ص116،117.

[3] إحياء علوم الدين: 18،3/19.

[4] الرسالة اللدنية ص116.

[5] مشكاة الأنوار ص215.

ويضرب مثالا على ذلك بتذوق الشعر، وكيف أنه يختص به نفر من الناس، مع أنه إدراك من الإدراكات، ويحرم منه آخرون حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة من المزحفة[1]، ثم كيف عظمت قوة الذوق عند آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والأغاني[2].

وما دام أمر جواز وقوعه أو عدمه غير خاضع للعقل، فإن الغزالي يستشهد بالنصوص الشرعية والحكايات الكثيرة الدالة على جواز ذلك ـ باعتبارها أدلة سمعية معتدا بها ـ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت:69)

يقول الغزالي ـ معقبا على الآية الكريمة ـ: (فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهو بطريق الكشف والإلهام) [3]

والأحاديث في ذلك كثيرة، وأما الحكايات الواردة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فلا تعد ولا تحصى، وقد ذكر الغزالي بعضها، وهي بمجموعها تفيد جواز الوقوع.

زيادة على هذه الأدلة العقلية والنقلية السابقة يستدل الغزالي بـ (عجائب الرؤيا الصادقة، فإنه ينكشف بها الغيب، فإذا جاز بها ذلك في النوم، فلا يستحيل أيضا في اليقظة، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم انشغالها بالمحسوسات) [4]

وهو يستدل بذلك على وجود منفذين للمعرفة: منفذ من الخارج، وهو الحواس ومنفذ إلى العالم الغيبي من داخل القلب وهو الإلهام والنفث في الروع والوحي.

وهو مع قوله بالاشتراك بين الإلهام والوحي في الحصول على العلم من غير استدلال، يستدرك بأن علم الوحي خاص بالرسل ـ عليهم السلام ـ موقوف عليهم (فالولي دون النبي، فكذلك الإلهام دون الوحي، فهو ضعيف بالنسبة للوحي قوي

---

[1] هي الأوزان الموصوفة بالزحاف، وهو التغير في الأجزاء الثمانية من البيت إذا كان في الصدر أو في الإبتداء، أو في الحشو، انظر: الجرجاني، التعريفات ص127 رقم 856.

[2] مشكاة الأنوار ص215.

[3] إحياء علوم الدين: 3/24.

[4] المرجع السابق 3/25.

بالإضافة للرؤيا والعلم)[1]

ولذلك فإن الإلهام يأتي تأييدا وتحقيقا وزيادة كشف لما جاء به الوحي، وهو لذلك لا ينقطع ما دامت الرسالة ثابتة مستقرة، يقول الغزالي: (اعلم أن الوحي إذا انقطع، وباب الرسالة إذا انسد، استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين، أما باب الإلهام فلا ينسد لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير)[2]

وهو يرى من خلال ذلك ضرورة وجود هؤلاء الملهمين المؤيدين لأن الناس، وإن استغنوا عن الوحي لكمال الدين وتمامه، إلا أنهم محتاجون (إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في هذه الوساوس وانهماكهم في هذه الشهوات، فالله تعالى أغلق باب الوحي، وهو آية العباد، وفتح باب الإلهام رحمة، وهيأ الأمور، ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب)[3]

ومع انتصار الغزالي للإلهام الصوفي واعتباره أرقى درجات الإيمان يعود إلى طبيعته العقلية المنطقية، فيحكم العقل في بعض الأحوال حيث (ينتهي الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول [4] وطائفة الاتحاد [5] وطائفة الوصول [6]وكل ذلك خطأ) [7]

ونقد الغزالي لهذه الدعاوى نقد علمي منطقي يكشف أن

---

[1] الرسالة اللدنية ص116.

[2] المرجع السابق ص118.

[3] المرجع السابق .

[4] هو النسبة التي بين الجسم ومكانه، كقيام الأعراض بالجواهر، وهو مستحيل عقلا بين كل ما يقول بذاته، انظر: المقصد الأسنى ص150.

[5] وهو تصيير الذاتين واحدة ولا يكون إلا في الأعداد، انظر: الجرجاني، التعريفات ص26، المقصد الأسنى ص146.

[6] الوصول الذي يريده الغزالي هنا هو الوصول المكاني، أما المعنى الآخر له، وهو أن ينكشف له جلية الحق، ويصير مستغرقا به لاهمه له في سواه، فهو غاية السلوك الصوفي، المقصد الأسنى 151،150.

[7] المنقذ من الضلال ص128.

للعقل عنده منزلة يمكن بها الحكم على بعض قضايا المكاشـفة[1]، وهو لذلك ينفي عن الصوفية تلـك الـدعاوى، ويتـأول مـا ورد منهـا عنهم، يقـول عن أبي يزيـد البسـطامي:(وقـول أبي يزيـد إن صـح عنـه:(سـبحاني، مـا أعظم شـأني) إمـا أن يكـون ذلـك جاريـا على لسانه في معرض الحكاية عن الله تعالى، وإما أن يكون قد شـاهد حظه من صفة القـدس فـأخبر عن قـدس نفسـه فقـال:سـبحاني، ورأى عظم شـأنه بالإضـافة إلى شـأن عمـوم الخلـق فقـال: (مـا أعظم شأني) [2]

وهو يحمل كـل ذلـك منهم على التوسـع والتجـوز على عـادة الشعراء لأجل تحسين موقع الكلام من الأفهـام دون إرادة حقيقـة اللفظ، وهو يقسم العارفين على هذا الأساس إلى قسمين:

1. من حصلت لهم هـذه الحالـة معرفـة علميـة، فنفـوا حقيقـة الاتحـاد، وإن حصـل لهم ذوقــه، وهي الحالـة الـتي تسـميها الصوفية بـ (البقاء).
2. من صـــار لهم ذلـــك ذوقـــا وحـــالا، وانتفت عنهم الكـــثرة، واستغرقوا بالله تعـالى فصـاروا كـالمبهوتين فيـه، فلم يبـق فيهم متسع لذكر غير الله، وهؤلاء نطقوا بما نطقـوا بـه في تلـك الحـال، (وكلام العشـاق في حـال السـكر يطـوى ولا يحكى، فلما خف عنهم سكرهم، وردوا إلى سـلطان العقـل الـذي هـو مـيزان اللـه في أرضـه عرفـوا أن ذلـك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد) [3]

ولكن الغزالي مع هذا النفي والتأويل يعود لطبيعتـه الفقهيـة، فيسد الذرائع حاكما بالتشديد على من يطلق هذه الدعاوى، يقـول في (الإحياء):(فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه، فقتلـه أفضـل لـدين الله من إحياء عشرة)[4]

من هذا البيان المختصر للتصوف الذي مارسه الغزالي ودعـا إليه بشـقيه السـلوكي والمعـرفي نسـتطيع أن نـدرك ونجـزم بـأن

---

[1]) د. محمـود قاسـم، دراسـات في الفلسـفة الإسـلامية،ط5، مصـر: دار المعارف، 1973، ص59 ـ 60.

[2]) المقصد الأسنى ص49.

[3]) مشكاة الأنوار ص197.

[4]) إحياء علوم الدين: 1/36.

تصوف الغزالي معتمد أساسا على النصوص الشـرعية، والتجـارب الروحية للمعتـد بهم من أئمـة هـذا الشـأن، ولـذلك أخـذت معظم الطـرق الصـوفية بمنهجـه، وانتشـرت بشـدة، وكـان لهـا الـدور المعروف في نشر الإسلام، أو في الإصلاح الاجتماعي.

رابعا . أحكام العقل والانفتاح الثقافي

يعتبر الغزالي من المصلحين الـذين جمعـوا بين خصـائص قـد تبـدو متناقضـة بـادئ الـرأي، فهـو مـع توجهـه الـروحي العـالي، واسـتغراقه الكلي في التصـوف وحكمـه بعجـز العقـل وقصـوره، نجده يثق في العقل ثقة تكاد تكون مطلقة، بل يعتبره ميزان اللـه في أرضه(1).

وفي نفس الـوقت الـذي نجـده يـدعو إلى الاعتمـاد على المصادر الأصلية والعودة إلى ما كان عليه السـلف الصـالح، نجـده يستند إلى تراث الفلاسفة وغيرهم، ويعترف بـذلك، ولا يـرى بأسـا من النقل عنهم، في الحين الذي ينتقدهم بشدة، ويعتـبر أفكـارهم تهافتا يدعو لنبذه.

وهذا النظر المبدئي الذي يحكم بتناقض الغزالي هـو مـا دعـا ابن رشـد إلى قولـه: (إنـه [أي الغـزالي] لم يلـزم مـذهبا من المذاهب في كتبه، بل هـو مـع الأشـعرية أشـعري، ومـع الصـوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف، وحتى أنه كما قيل:

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدناني)(2)

ونرى أن هذه الأحكـام ناتجـة عن سـوء فهم لمنهج الغـزالي، وعدم تكامل صورته الفكرية في أذهان هؤلاء الناقدين.

وسنرى في هذا المبحث أهمية أحكـام العقـل عنـد الغـزالي، وضرورة استعمالها في كل المعـارف، ومن ثم إمكانيـة الاسـتفادة من كل تراث ثقافي أجنبي ما دام متلائما معها، وهـو مـا سـيحاول أن يزيل بعض تلك الصورة المتناقضة التي يرسمها له نقاده.

1 ـ أحكام العقل:

يرى الغزالي أن الأحكام العقلية إذا تجردت من سـلطة حكم

---

(1) مشكاة الأنوار، ص197.

(2) ابن رشد، فصل المقال، مصر: دار المعارف، ص53،25.

الحس[1]، والوهم [2] لا تكاد تخطئ، لأنها فطرة فطر النـاس عليهـا ﴿ فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ ﴾ (الـروم:30)، يقـول الغزالي معقبا على هذه الآية: (فسمى العقل دينا)[3]

ولكون أحكام العقل المجـرد دينـا، فـإن التنـاقض بين أحكـام العقل وأحكام الشرع مستحيل، بل إن أساس الشرع العقل، (فهو كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أ س مـا لم يكن بنـاء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أ س)[4]

وهـو يسـمي الشـرع ــ بسـبب مراعاتـه الضـرورية للأحكـام العقليـة ــ عقلا، فالشـرع عقـل من الخـارج، والعقـل شـرع من داخل،وهما متعاضدان بل متحدان[5].

و بسبب هذا الاتحاد بين أحكام العقـل وأحكـام الشـرع، فـإن تمجيد العقل تمجيد للشـرع، وإعمالـه أعمـال للشـرع، ونبـذه نبـذ للشرع، لأن كليهما من وضع الله تعالى.

أما ذم الصوفية له فيرد الغـزالي سـببه إلى أن النـاس نقلـوا اسـم العقـل إلى المجادلـة والمنـاظرة بالمناقضـات والإلزامـات، فاستخدموا العقل في غير ما خلـق لـه،فكـان ذم الصـوفية منصـبا على الاستخدام السيئ لا على المحل، فإن (نور البصيرة [العقـل] التي بها يعرف اللـه تعـالى، ويعـرف صـدق رسـله، فكيـف يتصـور

---

[1] الحاكم الحسي: هو الحس المشترك الذي تجتمع فيه الصور الحسية بعد غيـاب المحسوسـات (ولـولا ذلـك كـان من رأى العسـل الأبيض، ولم يـدرك حلاوته إلا بالذوق، إذا رآه ثانيـة لا يـدرك حلاوتـه مـا لم يذقـه كـالمرة الأولى) (الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق مـوريس بـويج، بـيروت: دار المشـرق ص 207) وهذا الحاكم يخطئ كثيرا، فلذلك لا يعتمد العقل مطلقـا على أحكامـه، يقول الغزالي بعد ذكر أمثلة عن أخطاء الحواس: (فهذا وأمثالـه يكذبـه حـاكم القل ويخونه) (معيار العلم،ط2،بيروت:دار الأندلس ص309).

[2] هو كالحس المشترك إلا أنه يدرك المعاني، كالعداوة التي تدركها الشـاة من الذئب، ومخافته لها، والمحبة التي تدركها من أمها وموافقتها لها (تهفـات الفلاسـفة ص207)، وسـبب أخطـاءه حكمـه لغـير المحسوسـات بأحكـام المحسوسات، كإنكاره شيئا لا يناسـب أجسـام العـالم بانفصـال واتصـال، ولا يوصف بأنه داخل العالم ولا خارجه (معيار العلم ص32)

[3] معارج القدس في مدارج معرفة النفس، باتنة: دار الشهاب ص58.

[4] المرجع السابق ص57.

[5] المرجع السابق ص58.

ذمه؟، وقد أثنى الله تعالى عليه؛ وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟)[1]

وللتوفيق بين توجهه الصوفي الذي يقول بالكشف، ويـرى أن العلوم الوهبية لا تحتاج إلى استدلال، وبالتالي تستغني عن أحكـام العقل، أو تخالفه، فإنه يختار من جملة تعاريف العقل الكثيرة التي يرددها أنه (الوصف الذي يفـارق الإنسـان بـه سـائر البهـائم، وهـو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية)[2]

وهو يشبهه بـالعين من حيث كونهـا ذات هيئـات وصـفات بهـا استعدت للرؤية، فنسبة هذا المحـل إلى العلـوم كنسـبة العين إلى الرؤية.

وهذا التوفيق يطبقه على جميع ما يتحـدث عنـه الفلاسـفة أو الصوفية من لطائف، كالقلب والـروح والنفس، فهي عنـده ألفـاظ مختلفة لمعنى واحد، هو تلك الغريزة أو اللطيفة الـتي تعـرف بهـا حقـائق الأشـياء، يقـول الغـزالي: (ولأجـل اختلاف الأسـماء ظن البعض اختلاف المسميات، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعـاني هذه الأسامي، واشتراكها بين مسميات مختلفة)[3]

والغزالي يجعـل لهـذه اللطيفـة الـتي تتـوارد عليهـا الأسـامي المختلفة خمس مراتب تتدرج بحسب عمر الإنسان وطبيعته الـتي خلقـه اللـه عليهـا، فهي تبـدأ بـالحس، ويشـترك فيـه الإنسـان والحيـوان، ثم تنشـأ قـوة الخيـال، وهي الـتي تحفـظ مـا أوردتـه الحـواس لتعرضـه على العقـل عنـد الحاجـة إليـه، ثم ينشـأ إدراك المعاني الخارجة عن الحس والخيال، وهي الـتي تسـمى الأوليـات العقليـة [4]، ثم يتم الـتزاوج بين تلـك الأوليـات بـالتفكر والنظـر لاستنتاج المعارف، وتتسلسل تلك الاستنتاجات بحسب قوة العقل إلى ما لانهاية.

وكل هذه المراتب كسبية، وطبيعة الإنسان الـتي جبـل عليهـا هي الـتي تحـدد مـدى اسـتعداده لحصـولها، وبعـدها تـأتي المرتبـة

---

[1]) إحياء علوم الدين: 1/89.

[2]) المرجع السابق 1/86.

[3]) المرجع السابق 3/3.

[4]) هي التي لا يفتقر العقل بعد معرفتها إلى دليل لا من حدس أو تجربـة أو نحو ذلك، كقـولهم الواحـد نصـف الاثـنين، والكـل أكـبر من الجـزء، فـإن هـذا الحكم لا يتوقف إلا على تصور الطرفين وهـو أخص من الضـرور (الجرجـاني، التعريفات ص53).

الأخيرة من مراتب العقل كما يرى الغزالي، وهي المرتبة التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السماوات والأرض، بل من المعارف الربانية التي يقصر دون إدراكها أو تصورها العقل والفكر، كما يقصر الحس أو الخيال عن إدراك أحكام العقل والفكر[1].

وهذا العقل هو الذي يتحدث عنه الصوفية ويسميه الغزالي نور البصيرة [2]، ولهذا فإن جميع الأحكام والعلوم صادرة أو منتقشة في جوهر الإنسان وعقله، وإنما تختلف طريقة ظهورها ومدى وضوحها باختلاف طبائع الناس واستعداداتهم ومجاهداتهم.

أما الخواص فإنهم يتحققون ــ كما يرى الغزالي ــ بتلك المعارف كشفا وعيانا، وغيرهم يعرفها بيانا وبرهانا، مع أن الحقائق واحدة، ولهذا يحتاج غير المكاشف إلى كثرة أدلة ووصف، بخلاف من حصل له ذلك كشفا وذوقا وتحقق به، فإنه يتعجب من الحاجة إلى الدليل والوصف، بل يرى في الوصف إخلالا بحق الموصوف[3].

ولهذا فإن إقحام الأحكام العقلية المحكومة بالحس والوهم في مجال معرفة الألوهية أو عالم الغيب خطأ فادح وخطر جسيم، لأنه قياس للغائب بالشاهد، وحكم على الله بصفات عباده، يقول الغزالي: (أما ميزان الرأي والقياس، فحاشا لله أن أعتصم به، فذلك ميزان الشيطان، ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة، فأسأل الله تعالى أن يكفي شره عن الدين، فإنه للدين صديق جاهل، وهو شر من عدو عاقل)[4]

وفي غير هذا المجال، ينتصر الغزالي للمنطق، ويعتبره غير غريب عن الإسلام أو الفكر الإسلامي، وليس دخيلا مع الفلسفة كما يتصور البعض، يقول الغزالي:(ولكن المنطق ليس مخصوصا بهم [أي بالفلاسفة]، وإنما هو الأصل الذي نسميه في فن الكلام (كتاب النظر)، وقد نسميه (كتاب الجدل)، وقد نسميه(مدارك العقول)؛ فإذا سمع المتكايس المستضعف اسم (المنطق) ظن

---

1) مشكاة الأنوار ص214،213.

2) إحياء علوم الدين: 1/89.

3) المرجع السابق 4/320.

4) القسطاس المستقيم ص41.

أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون، ولا يطلع عليه إلا الفلاسـفة)[1]، ومع ذلك فـإن المنطـق المـترجم مـع الفلسـفة اليونانيـة نفسـه لا يمكن رفضه لأنه لا تعلق له بالدين نفيا أو إثباتا، بل هـو النظـر في طرق الأدلـة والمقـاييس، وأن العلم إمـا تصـور أو تصـديق، وليس في هذا ما ينبغي إنكاره [2].

ولهذا فإن الغزالي ألف في المنطق مجموعة كتب[3]، وأدخـل المنطق كتمهيدات لبعض العلوم كعلم الأصول، فقد كان يقـدم لـه قبل الغزالي بمقدمات كلامية كتأسيس فكري لقضايا أصول الفقه وربطها بأصول الدين، فـرأى الغـزالي أن الأولى ربطهـا بـالمنطق لحاجة علم الأصـول لقضـايا المنطـق، يقـول الغـزالي عن مقدمـة المستصفى: (وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها، فلا ثقـة بعلومـه أصـلا) [4]،وقـد بـدأ بهـذا الاهتمـام بـالمنطق عنـد الغــزالي عهــد جديــد للثقافــة الإســلامية، امــتزجت فيــه بقضــايا وأساليب المناطقة[5].

وقيمة منطق الغزالي ترجـع إلى توجيهـه الوجهـة الإسـلامية، وتخليصه من ظلال التصور اليونـاني، وتوظيفـه توظيفـا يتلاءم مـع العقائـد الإسـلامية، كمـا نجـد ذلـك في كتابـه (معيـار العلم) الـذي عــرض فيــه مبــاحث المنطــق عرضــا مبســطا مســتعملا الأمثلــة الفقهية، هادفا من ذلك إلى أمرين:

1. تفهيم طرق الفكر والنظر باعتبار المنطق بالنسبة إلى أدلـة العقول كالعروض بالنسبة إلى الشعر، والنحو بالإضـافة إلى الإعراب.
2. بيان أن النظر في الفقهيات لا يخـالف النظـر في العقليـات في ترتيبـه وشـروطه، وإنمـا يخالفـه في مآخـذ المقـدمات

---

[1] التهافت ص71.

[2] المنقذ من الضلال ص103،102.

[3] هي: معيار العلم في فن المنطق، ومحك النظر، والقسطاس المستقيم، وبعض فصول من مقدمـة مقاصـد الفلاسـفة، ومقدمـة المستصـفى من علم الأصول، ومقدمة الاقتصاد في الإعتقاد.

[4] المستصفى 1/10.

[5] د، علي سامي النشار، منهاج البحث عند مفكري الإسـلام، القـاهرة: دار الفكر العربي 1947،ص130.

فقط [1].

ولكن أهم كتاب ألفه فيه، وأشار إليه كثيرا معتبرا إياه الميزان الذي ينفي الخلاف عن الخلق هو (القسطاس المستقيم) الذي وضعه في الأصل ردا على الباطنية.

يقول عنه في المنقذ من الضلال ـ مع التذكير بأنه ألفه في المرحلة الأخيرة من حياته ـ: (أقول:قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة وما وراء ذلك من التفصيل والتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم، وهي الموازين [2]التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وهي خمسة، ذكرتها في كتاب القسطاس المستقيم)[3]

ومع أن تلك الموازين التي وضعها الغزالي مطابقة للموازين المنطقية اليونانية إلا أن للغزالي أهدافا أخرى وراء تلك الصياغة الجديدة لعلم المنطق لعل أهمها تقريب المنطق والاحتجاج له بالأمثلة من القرآن الكريم لصنفين من الناس:

1. الذين استهوتهم الفلسفة بما فيها من علوم عقلية، فخلطوا بين حقها وباطلها، وظنوا التناقض بين العلوم النقلية والأحكام العقلية.
2. العلماء النصيين الذين رفضوا المنطق باعتباره فلسفة وعلما غريبين عن الدين.

وذلك زيادة على الغرض الأصلي، وهو مناقشة الباطنية، يقول الغزالي: (لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه، ولا يخالف فيه أهل المنطق، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق غير مخالف له، ولا يخالف فيه المتكلم، لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات، وبه يعرف الحق في الكلاميات)[4]

---

[1] معيار العلم ص59 ـ 60 وسبب الخلاف بين المآخذ الشرعية والمآخذ العقلية أن المقدمات العقلية تؤسس على البديهيات بخلاف المقدمات الفقهية المؤسسة على مسلمات شرعية.

[2] استنبط الغزالي هذا الاصطلاح من قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25) ، انظر: القسطاس المستقيم ص43.

[3] المنقذ من الضلال ص118.

وهـذا العلم الـذي اسـتنبطه الغـزالي من القـرآن الكـريم واعتبره حجـة في العلـوم كلهـا، لا يقصـره على العلـوم الكسـبية وحدها، بل يضم إليها الوهبية ـ أيضا ـ (.. فكم من صـوفي بقي في خيـال واحـد عشـر سـنين إلى أن تخلص منـه، ولـو كـان قـد أتقن العلوم [أي موازين العقل] أولا لتخلص منه على البديهة)[1]

وهنـا نلاحـظ جمـع الغـزالي في تناسـق جميـل بين القـرآن والعقل والتصوف ممـا يـبرهن على وحدتـه الفكريـة، ولا بـأس أن نذكر هنا الموازين التي أولاها الغزالي كل ذلك الاهتمام، ودعا إلى تعلمها من القرآن الكريم:

أ ـ ميزان التعادل:

وله ثلاثة أشكال هي:

الميزان الأكبر:

ومثاله قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام[2]: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهَـا مِنَ الْمَغْـرِبِ﴾ (البقـرة:258)، وصياغة هذا الميزان هي: كل من يقـدر على إطلاع الشـمس فهـو الإله، فهذا أصل؛ وإلهي هو القادر على الإطلاع، وهـذا أصـل آخـر؛ فلزم من مجموعهما بالضرورة أن إلهي هو الإله[3].

ويمكن صياغته رمزيـا هكـذا:أ هي ب، وب هي ج، إذن:أ هي ج [4].

الميزان الأوسط:

ومثالـه قولـه تعـالى عن إبـراهيم عليه السلام: ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام:76)، وصياغة هذا الميزان هي: أن القمر آفل، والإله ليس بآفل ؛ فالقمر ليس بإله[5].

ويمكن صـياغته رمزيـا هكـذا: أ هي ب، وج ليسـت ب، إذن:أ

---

[4]) المرجع السابق .

[1]) ميزان العمل، مصر: مطبعة كردستان 1328ه ص46.

[2]) استدل الغزالي بتلقين الله تعلى إبراهيم عليه السلام الحجة كمـا قـال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْـرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِـهِ نَرْفَـعُ دَرَجَـاتٍ مَنْ نَشَـاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:83) فكأنه جـاز بـذلك الاعتمـاد على حجتـه لإقـرار الله إياها، انظر: القسطاس المستقيم ص54..

[3]) القسطاس المستقيم ص49.

[4]) انظر: د. محمود قاسم، دراسـات في الفلسـفة الإسـلامية، ط5، مصـر: دار المعارف،1973 ص51 ـ 52.

ليست ج.

والفــرق بين هــذا المــيزان والمــيزان الأكــبر أن الصــفة في الميزان الأكبر عامة تشمل جزئيات الموصوف كلها، بخلاف ما هي عليه في الميزان الأوسـط حيث تنحصــر في شـيئين متبـاينين كـل التباين بحيث ينفي عن أحدهما ما يثبت للآخر[1].

الميزان الأصغر:

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ إِذْ قَـالُوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَـرٍ مِنْ شَـيْءٍ قُـلْ مَنْ أَنْـزَلَ الْكِتَـابَ الَّذِي جَـاءَ بِـهِ مُوسَـى نُـورًا وَهُـدًى لِلنَّاسِ﴾ (الأنعـام:91)، ووجه الوزن بهذا الميزان هو أن موسى ﷺ بشر، وقد أنـزل عليـه الكتاب، إذن بعض البشر أنزل عليهم الكتاب [2].

وصـياغته الرمزيــة هي: ب هي أ، وب هي ج، إذن بعض أ هي ج.

والفرق بين هذا الميزان وما قبله أنه يستخدم في التخصيص والتمييز بين الصـفات الذاتيــة الـتي تشـترك فيهـا عمـوم جزئيـات الجنس والصفات العرضية التي لا يشترك فيهـا إلا قسـم من هـذه الجزئيات[3].

وهذه الموازين الثلاثة المشكلة لميزان التعادل تشبه ما يعــبر عنه في المنطق بأشكال قياس أرسطو الاقتراني الثلاثة[4].

ب ـ ميزان التلازم:

ويعرفه الغزالي بقوله: (هو أن كل ما هو لازم للشيء تابع له في كل حال، فنفي اللازم يوجب بالضرورة نفي الملـزوم، ووجـود الملزوم يوجب بالضرورة وجـود اللازم، أمـا نفي الملـزوم ووجـود اللازم فلا نتيجة لهما)[5]

ويضرب له مثالا بقوله تعـالى: ﴿ لَـوْ كَـانَ فِيهِمَـا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ

---

5) القسطاس المستقيم ص55.

1) انظـر: فيكتـور سـعيد باسـيل، منهج البحث عن المعرفـة عنـد الغـزالي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ص73.

2) القسطاس المستقيم ص59.

3) فيكتور سعيد باسيل، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي، ص74.

4) د. محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص51.

5) القسطاس المستقيم ص63.

لَفَسَدَتَا (الأنبياء:22)، وصياغة هذا الميزان هي أنه لو كان في السموات والأرض إلهان لفسدتا، فهذا أصل، ومعلوم أنهما لم تفسدا، وهذا أصل آخر؛ فيلزم منهما ضرورة نفي الإلهين، وإثبات الإله الواحد[1].وهذا الميزان هو المسمى في المنطق بالقياس الشرطي المتصل.

ج ـ ميزان التعاند:

ويعرفه الغزالي بأن (كل ما انحصر في قسمين، فيلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر بشرط أن تكون القسمة منحصرة، لا منتشرة) [2]

ويمثل له من القرآن الكريم بقوله تعالي: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (سبأ:24)، ووجه الاستدلال به هو: إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، ومعلوم أننا لسنا في ضلال، والنتيجة هي:أنتم ضالون[3].

هذه هي الموازين التي دعا الغزالي إلى استعمالها، واستنباط العلوم بواسطتها، وهي ـ كما ذكرنا ـ نفس المقاييس المنطقية، والغزالي يقر بذلك، ولا يرى بأسا به، يقول في (القسطاس المستقيم) بعدما سأله رفيق التعليم عن تلك الموازين: (أما هذه الأسامي فأنا ابتدعتها، وما عندي أني سبقت إلى استخراجها من القرآن؛ وأما أصل الموازين فقد سبقت إلى استخراجها، ولها عند مستخرجيها من المتأخرين أسام سوى ما ذكرتها، وعند بعض الأمم الخالية السابقة على بعثة محمد وعيسى ـ صلوات الله عليهما ـ أسام أخر كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام)[4]

وميزة الغزالي ـ هنا ـ تطبيقه بالنسبة لعلم المنطق ما دعا إليه دوما من ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم واستنباط جميع العلوم منه، ولا بأس من الاستفادة خلال ذلك من تراث الأمم الأخرى وثقافاتها ما دامت لا تصادم العقل الخارجي الذي هو الشرع، ولا العقل الداخلي الذي هو موازين الحق المودعة في

---

[1] المرجع السابق ص62.

[2] المرجع السابق ص66.

[3] المرجع السابق ص65.

[4] المرجع السابق، ص67.

فطرة الإنسان، وسنرى ذلك في المطلب التالي.

2 ـ الانفتاح الثقافي:

بعـد معرفـة المـوازين العقليـة السـابقة، والتمـرن عليهـا، وحصـول الملكـة فيهـا، مـع تجـنيب الأحكـام الحسـية والوهميـة، والاعتصـام بالمصـادر الشـرعية، فـإن الغـزالي لا يـرى بأسـا من الانفتاح على كل الثقافات والعلوم، والاحتكـاك بهـا، والتـأثير فيهـا، والتأثر بهـا، وقـد كـان يجمـع الكثـير من تلـك الثقافـات في عصـر الغزالي اسم الفلسفة أو علوم الأوائل [1]، وكانت المواقـف حولهـا كما يرى الغزالي تتراوح بين ثلاث تيارات:

أ ـ تيار الرفض:

ويـرى الـرفض الكلي لتلـك الثقافـات، وتـأليب الـرأي العـام عليهـا، وتكفـير أو تبـديع كـل من يبحث أو يخـوض فيهـا، فلم تكن علاقـة هـذا التيـار بتلـك الثقافـات إلا علاقـة الحكم المسـبق في معظم الأحيان، ولم يكن نقدها إلا نقـدا ظاهريـا لا يعتمـد البرهـان العلمي، ولا الحجة المنطقية، لأن المنطق نفسه من الفلسفة[2].

وقد اعتبر الغزالي هذا التيار سـببا لانتشـار الأفكـار المضـللة من الفلسفة وغيرها، وهـو يسـميهم بالصـديق الجاهـل [3]، وهـؤلاء مثلا أنكروا كـون خسـوف القمـر عبـارة عن انمحـاق ضـوء القمـر بتوسـط الأرض بينـه وبين الشـمس، وأنكـروا الهندسـة والحسـاب والمنطق والفلك وغيرها[4]، لأن مصدر ذلك هو الثقافـات الأجنبيـة، مع أنها لا تصادم النصوص الشـرعية، يقـول الغـزالي: (وأعظم مـا يفرح به الملحـدة أن يصـرح ناصـر الشـرع بـأن هـذا وأمثالـه على خلاف الشـرع، فيسـهل عليـه طريـق إبطـال الشـرع) [5]، مـع أن

---

[1] المنقذ من الضلال، ص111.

[2] وقد ذكر ابن العربي المعاصر للغزالي هذا الصنف بقوله: (وقد جاء اللـه بطائفة عاصمة تجردت لهم من أعيان الأمـة إلا أنهم لم يكلمـوهم بلغتهم، ولا ردوا عليهم بطريقتهم، وإنما ردوا عليهم وعلى إخـوانهم المبتدعـة بمـا ذكـره الله في كتابه، وعلمه لنا على لسان رسوله، فلما لم يفهمـوا تلـك الأغـراض، ربما استولى على قلوبهم من صد الباطل طفقوا يهزؤون من تلك العبـارات، وينسبون قائلا للجهالات)، ابن العربي، العواصم من القواصم ص105 ـ 106.

[3] المنقذ من الضلال ص114.

[4] معراج السالكين، (الرسائل الفرائد) ص220 ـ 221.

[5] تهافت الفلاسفة ص43.

الشرع لم يتعرض لهذه العلوم نفيا ولا إثباتـا، ولا في هـذه العلـوم تعرض للأمور الشرعية[1].

وقـد انجـر عن هـذا المنهج نـوع من الشـعور بالتصـادم بين العقل والدين، فإن تلك القضايا من الوضوح والدقة، وبراهينها من الوضوح والقوة بحيث لا يمكن رفضـها؛ ورفض العلمـاء لهـا بحجـة منافاتها للدين كذب عليه، وخدمة للملحدين والمشككين، وهـو مـا حصـل في أوروبـا عنـدما أنكـرت الكنيسـة الكثـير من الكشـوف العلمية التي تتنافى مع موروثاتهـا اليونانيـة وغيرهـا، ممـا أدى إلى النفور من الكنيسة، والتمكين للإلحاد.

ب ـ تيار القبول:

ويرى القبول الكلي لما ورد في تلـك الفلسـفات والثقافـات، وطرح الدين بسببها، والانخـداع بمظاهرهـا، يقـول الغـزالي معـبرا عن هذا التيار في مقدمة (تهافت الفلاسفة): (أما بعد، فـإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التمـيز عن الأتـراب والنظـراء بمزيـد الفطنة والذكاء قـد رفضـوا وظـائف الإسـلام، واسـتحقروا شـعائر الدين، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا)[2]

والغزالي ينتقد ذوبان هذا التيار في تلك الثقافـات، ويـرى أن مصـدر ذلـك الـذوبان لا يرجـع إلى تحكيم المـوازين العقليـة بقـدر رجوعه إلى أوهام وخيالات وأسباب النفسية، وهو يعد منها:

1. إطناب طوائف من متبعيهم في وصف عقولهم ودقة علـومهم، وأنهم مـع كـل ذلـك الـذكاء منكـرون للشـرع متنصـلون من تكاليفه.
2. مصادرتهم العامة على مطالبهم المعرفية استدراجا لهم، بحيث أنه إذا ما أوردوا عليهم إشكالا تذرعوا بأن هذه العلوم غامضـة، وأنها أعصى العلوم على الأفهام الذكية، ولا يمكن التوصـل إلى فهمها إلا بتقديم الرياضيات والمنطق،وهذا كله استدراج نفسي للوصـول بهم إلى حالـة الانبهـار التـام المـؤدي إلى ا لخضـوع الكلي.
3. الخلـط بين العلـوم الطبيعيـة والهندسـية والمنطقيـة مـع الآراء الميتافيزيقيـــة، حـــتى ظن من ينظـــر في منطقهم فـــيراه

[1] المنقذ من الضلال ص102.

[2] تهافت الفلاسفة ص38.

مستحسنا أن سائر علومهم مؤيدة بتلك البراهين.

4. ما مزجه (إخوان الصفا)[1] بتصانيفهم المستمدة من الفلسفة اليونانية من الحكم النبوية والكلمات الصوفية استدراجا للعامة إلى مقاصدهم،مع العلم أن انتشار آراء تلك الجمعية في ذلك الحين كان واسعا شاملا كل فئات المجتمع،كما تشير إليه رسائلهم [2].

وكل هذه الأسباب التي ذكرها الغزالي وغيرها لذوبان هذا الفريق في تلك الثقافات لا ترجع ـ كما رأينا ـ إلى براهين عقلية، أو حجج منطقية، وإنما هو حالة من الانبهار الساذج، والتأثر العاطفي الذي لا يحكمه العقل، ولا يستند إلى الحجة.

ج ـ تيار الانتقاء:

ولعل أحسن من يمثل هذا التيار هو الغزالي نفسه، فقد وقف من الثقافات الأجنبية فلسفية أو باطنية أو (إخوان الصفا) أو غيرهم موقف المحاور والمهاجم والمتعلم في نفس الوقت.

وقد أثار ذلك الغرابة في كثير من الباحثين، بل حتى من الفلاسفة القدماء كابن رشد الذي يقول عن الغزالي: (أفيجوز لمن استفاد من كتبهم [أي الفلاسفة]وتعاليمهم مقدار ما استفاد هو منها، حتى فاق أهل زمانه، وعظم في ملة الإسلام صيته وذكره أن يقول فيهم هذا القول، وأن يصرح بذمهم على الإطلاق وذم علومهم؟)[3]

وبناء على هذا الأساس قسم الغزالي علوم الفلاسفة إلى ستة أقسام مبينا حكم كل قسم،وهذه الأقسام هي:

العلوم الرياضية:

---

[1] جمعية سرية ظهرت في القرن الرابع الهجري متخذة الفلسفة منهجا مناوئا للشريعة، وقد نقل التوحيدي ذريعتهم في ذلك، وهي قولهم: (إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الإعتقادية، ومتى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال)، انظر: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، بيروت: دار مكتبة الحياة 2/5.

[2] نقلا عن: د. يوسف فرحات، الفلسفة الإسلامية وأعلامها، جنيف: ترادكسيم، 1986،ص78.

[3] ابن رشد، تهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيا،ط2، القاهرة: دار المعارف 1971، ص43.

وتتعلق بعلم الحساب والهندسة، وعلم هيئة العالم، وحكمها كما يقرر الغزالي أنه (لا يتعلق شيء منها بالأمور الدينية،بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجا حدتها بعد فهمها) [1]

بل إنه يجعلها من الفروض الكفائية ما دام يحتاج إليها ــ كما بينا سابقا ـ ولكنه مع ذلك يحذر من بعض النتائج السلبية المنجرة عن النظر فيها، ولعل أهمها هو اعتقاد أن جميع الآراء الفلسفية من الدقة والوثوق مثل العلوم الرياضية، (فيكفر يالتقليد المحض) [2]؛ وليس في هذا التحذير من الغزالي إلا تنبيه للسبيل الانتقائي الذي اختاره وبنى عليه مواقفه[3].

العلوم المنطقية:

وتتعلق بالنظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، ولا يتعلق شيء منها بالدين ــ في رأي الغزالي ـ إلا ما حشيت به من أمثلة تتناقض وتتعارض مع الأصول الدينية، ولأجل ذلك ألف الغزالي كتبه المنطقية، كمعيار العلم وغيره، وحشاها بدلا من ذلك بالأمثلة الفقهية.

العلوم الطبيعية:

وتشمل في مدلولها القديم الطب والكيمياء والفلك وغيرها، ويرى الغزالي عدم تعرضها للدين، ولذلك لا ينبغي مخالفتهم في شيء منها إلا بما هدى إليه الدليل العلمي.

ولكنه مع ذلك ينبه إلى قضية مهمة، وكأنه يدعو من خلالها إلى أسلمة هذه العلوم، فهي إلحادية من حيث جعلها الطبيعة فاعلة بذاتها، ولذلك يجب أثناء مطالعة هذه العلوم (أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى، ولا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها، والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات

---

[1] المنقذ من الضلال ص101.

[2] المرجع السابق .

[3] وهذا خلافا لما رآه د. محمد عابد الجابري من أن الغزالي لم يكن بريئا في موقفه من الرياضيات، وأن الغرض من ذلك هو التأليب على الباطنية فقط باعتبارهم تبنوا الفيثاغورية، ونزعتها الرياضية أساسا لفلسفتهم الدينية، (محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي،ط3،بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 1990 ص491) لأن الغزالي بنى موقفه على اختبار ميداني نص عليه بقوله: (فقل من يخوض فيها (الرياضيات) إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لحام التقوى) انظر: المنقذ من الضلال ص102.

بأمره، لا فعل لشيء منها لذاته) [1]

وكــذلك ينتقــدهم في حكمهم بــأن الاقــتران المشــاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقـتران ضـروري لازم، وليس في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب، وذلك لما يلزم عنه من إنكـار المعجزات أو تأويلها تأويلا يعطل معناها، كما ينقل الغـزالي تأويـل بعضهم إحياء الموتى بإزالة موت الجهل بحياة العلم، وتأويل تلقف العصا سحر السحرة على إبطال الحجة الإلهية شـبهات المنكـرين على يد موسى عليه السلام [2].

وقد رد الغزالي على الفلاسفة هذه الجوانب لاعتمـادهم فيهـا على الظن والتخمين دون التحقيــق العلمي المبــني على الحجــة والدليل، ولذلك تكتسـب أدلتـه النقديـة لهـا قـوة علميـة تنبئ عن مدى اعتماده المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية.

العلوم السياسية:

ويبحث فيها الفلاسفة عن الحكم المصلحية المتعلقـة بـالأمور الدنيويــة، ولا يــرى الغــزالي لــذلك أي تعلــق بالــدين، بــل يمكن الاستفادة من أبحاثهم فيها باعتبارهـا مسـتمدة ــ كمـا يـرى ــ من كتب اللـه المنزلـة على الأنبيـاء، ومن الحكم المـأثورة عن سـلف الأنبياء [3]، وهذا الموقف هو الـذي أكسـب الغـزالي فكـرا سياسـيا متينا يحتاج إلى مزيد دراسة.

العلوم الأخلاقية:

وكلامهم فيها ـ كما يلخصه الغزالي ـ يرجع إلى حصـر صـفات النفس وأخلاقها وأجناسها وأنواعهـا وكيفيـة معالجتهـا ومجاهـدتها، وهو لا يرى ردها باعتبارها لا تنـاقض الشـرع، بـل يـرى أن كلامهم فيهـا مـأخوذ من كلام الصـوفية والمتـألهين [4] الـذين لم يخلـو من وجودهم أي عصر من العصور.

ولذلك فإن الاستفادة منهم تلق لمزيد من التجـارب والفوائـد التي لم تمنعنا الشريعة من الأخذ بها [5].

---

[1] المنقذ من الضلال ص104.

[2] تهافت الفلاسفة ص192.

[3] المنقذ من الضلال ص108.

[4] التأله: التنسـك والتعبـد، انظـر: ابن منظـور، لسـان العـرب 13 ص467 رقم: 8664.

[5] المنقذ من الضلال ص109.

العلوم الإلهية:

وهي التي انصب عليها نقد الغزالي، لأن أكثر أغاليطهم فيهـا، وقــد كـان منهج الغــزالي في نقــدها يعتمــد على بيـان مخالفتهـا للمنطق الذي وضعوه هم بأنفسهم، وفي ذلك تمـام الحجـة عليهم ببيان تناقضهم.

يقـول الغـزالي في (التهـافت): (ونناظرهم في هـذا الكتـاب بلغتهم، أعني بعباراتهم في المنطق، ونوضـح أن مـا شـرطوه في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطـق، ومـا شـرطوه في صورته في كتاب القياس .. لم يتمكنوا من الوفـاء بشـيء منـه في علومهم الإلهية)[1]

وقـد كـان من شـدة انتبـاه الغـزالي في هـذا الميـدان هجـره لألفــاظ المتكلمين ومناظرتــه إيــاهم بأســلوبهم واصــطلاحاتهم ومنطقهم.

وهــو لم ينقــدهم كفيلســوف [2]، ولم يحكم عليهم بــالكفر أو البدعــة كفقيــه إلا بعــد النظــر في علاقــة آرائهم بمــا جــاءت بــه الشريعة، لأنها عقل من الخارج، ويستحيل تصادم العقل الخـارجي مع العقل الداخلي، ولذلك جمع من أقوالهم في الإلهيات عشــرين مسألة، كفرهم في ثلاثة منها، وبدعهم في البـاقي، (وأمـا مـا وراء ذلـك من نفيهم الصـفات، وقـولهم: إنـه عليم بالـذات، ومـا يجـري مجراه، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفــير المعتزلة بمثل ذلك)[3]

وقــد خص كتابــه (تهــافت الفلاســفة) بنقض تلــك المســائل العشرين، ومن استقراء منهجـه في النقـد يمكن اسـتخراج الكثـير من القواعد المهيئة لملكة المناظرة، ولعل ذلك داخل ـ أيضا ـ في قصد الغزالي.

بعد هذا التقسيم لا يرى الغزالي حرجا أن يستفيد اللـبيب من

---

[1] تهافت الفلاسفة ص45.

[2] لعباس محمود العقاد محاضرة في إثبات القدرات الفلسفية للغزالي بين فيها أن نقده للفلسفة هو من النبوغ الفلسفي الذي لا يرضى بالتقليد، ولذلك فـإن نقـده للفسـفة كـان من بـاب الفلسـفة، انظـر: عبـاس محمـود العقـاد، فلسفة الغزالي ضمن : المجموعة الكاملة لمؤلفاته، ط1،بيروت: دار الكتـاب اللبناني 1978م ص461 ـ 472.

[3] المنقذ من الضلال ص107.

كل علـومهم مـا عـدا مـا عـارض الشـرع منهـا، لأن معرفـة الحـق مطلب كل عاقل، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

وهو ينكر على من يرد عليهم بمجرد كـونهم فلاسـفة، ويشـبه ذلك بالذي يسمع من النصراني قول: (لا إله إلا الله عيسى رسول الله) فينكره، ويقول: هذا كلام نصراني، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول أو باعتبـار إنكـار نبـوة محمـد ﷺ [1].

وبسـبب هـذا الفكـر المتفتح المنتقي اسـتفاد الغـزالي من الفلاسفة، وضمن ذلك كتبه بعد مزجه بالنصوص الشرعية، أو بعـد أسلمته، وقد لاقى بسبب ذلك النقد اللاذع من كثير من الطاعنين، كقول ابن العربي المالكي: (إن شيخنا هذا [الغزالي] دخـل بطـون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج فما قدر) [2]

وقد حصل له ذلك الاعتراض في حياتـه، فقـال مجيبـا: (ولقـد اعترض على بعض الكلمات في تصانيفنا في أسـرار علـوم الـدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايـات المـذاهب بصـائرهم، وزعمت أن تلـك الكلمـات من كلمات الأوائل، مع أن بعضـها من مولـدات الخـواطر، ولا يبعـد أن يقـع الحـافر على الحـافر، وبعضـها يوجـد في الكتب الشـرعية، وأكثرها موجود معتاد في كتب الصوفية) [3].

ثم يعقب على ذلك منكرا: (وهب أنهـا لا توجـد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقـولا في نفسـه مؤيـدا بالبرهـان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يهجر وينكر؟) [4]

وقد كان لهذا السلوك العلمي الموضوعي نحو الفلسفة وكل الأفكـار الدخيلـة أثـره الإيجـابي، حيث أن حملـة الغـزالي على الفلسفة ـ كمـا يشـهد الكثـير من البـاحثين ـ لم تكن إلا المرحلـة الأخيرة من النزاع بين الدين والفلسفة، والـتي انتهت بفـوز الـدين وتقلص جميع الحركات التي كانت تأخذ من الفكر اليوناني بطـرف كالمعتزلة وغيرهم[5].

وقد نص على هذا التأثير من معاصـري الغـزالي ابن العـربي

---

[1] المرجع السابق ص110.

[2] ابن العربي، العواصم من القواصم ص7.

[3] المنقذ من الضلال ص111.

[4] المرجع السابق .

في قوله: (.. فانتدبت للرد عليهم [الفلاسـفة] بلغتهم ومكـافحتهم بسلاحهم والنقض عليهم بـأدلتهم أبـو حامـد الغـزالي، فأجـاد فيمـا أفـاد، وأبـدع في ذلـك كمـا أراد اللـه وأراد، وبلـغ في فضـيحتهم المراد، فأفسد قولهم من قولهم وذبح بمداهم) (1)

أما كتاب (تهافت التهافت) الذي ألفه بن رشد بعد ذلك، فقد كـان مجـرد دفـاع عن الفلاسـفة أكـثر منـه دفاعـا عن الفلسـفة، والغزالي نقد الفلسفة كمنهج وفكر، وليس له اهتمام بمن يخـوض فيها، فهو يردد دائمـا: (العاقـل يعـرف الحـق، ثم ينظـر في نفس القول، فإن كان حقا قبله سواء كان قائله مبطلا أو محقا، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال) (2)

بعد بيان موقف الغزالي العلمي المتحرر من كل قيـد سـوى القيود التي يفرضها المنهج العلمي نسـتغرب بعض الكتابـات الـتي تـرمي الغـزالي بالتعصـب في نفس الـوقت الـذي تصـف فيـه الفلاسفة الذائبين في أرسطو بالتحرر كقـول حسـين مـروة عنـه: (هـو الـذي سـلط سـيف الإرهـاب الفكـري الـديني على الفلسـفة والفلاسفة، وهو الذي حدد ـ إلى مدى بعيد ـ أشكال النظر الوحيـد الجـانب إلى هـذا الـتراث في مبـاحث المتكلمين الأشـعريين المتأخرين وغيرهم) (3)

وهذا القول وأمثاله أحكام غير موضوعية ناتجـة عن توجهـات فكرية معينة تفتقر إلى الصدق والدليل.

لقد تبين لنا من خلال هذا الفصل الأصول الـتي يعتمـد عليهـا منهج الغزالي الإصلاحي، وهي أصول متكاملة مترابطـة متناسـقة، لاتصـادم بينهـا في تصـور الغـزالي، لأنهـا نابعـة من عين واحـدة، ومتوجهة نحو غاية واحدة، ولعل ما يميز الغزالي في علاقته بها هو اهتمامه بمقاصدها وحقائقها دون انشغاله عنها بما أثـير حولهـا من جدل عقيم أو حشو فارغ.

وبعد هذا نتساءل عن الأسس التي يقوم عليها بنـاء المجتمـع الصالح في تصور الغزالي، وهو ما سنراه في الفصل التالي.

---

5) محمد الفيومي، الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل، ص30.

1) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص105 ـ 106.

2) المنقذ من الضلال، ص110.

3) حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية،بيروت، دار فارابي 1978، ص53.

الفصل الرابع

أسس بناء المجتمع

نتناول في هذا الفصل الأسس التي يقوم عليها المجتمع المسلم ـ كما يتصوره الغزالي ـ وهي أربعة أسس كبرى، هي:

1. الإيمان.
2. العلم.
3. التزكية.
4. الروابط الاجتماعية.

وقد خصصنا كل أساس منها بمبحث من المباحث.

أولا ـ الإيمان

يرى الغزالي أن الإيمان هو المقصود الأول لكل إصلاح نفسي أو اجتماعي، لأن كل السلوكيات النفسية أو الاجتماعية ناشئة عن تصورات عقدية، فلهذا كان البحث في الإيمان والسبيل إلى تحققه بأكمل درجاته هدفا مقصودا له منذ شبابه الأول عندما تعرض لمرحلة الشك، ثم بعد ذلك عندما حاول أن ينقل تجربته في البحث عن الإيمان إلى غيره.

وقد جلبت عليه طروحاته الجديدة، والتي تعرض فيها لنقد بعض الطوائف الباحثة في العقائد الكثير من النقد الناتج في أكثر الأحيان عن سوء فهم لمواقفه وآرائه، واعتباره بالتالي متناقضا، ومن أهم تلك الطوائف (المتكلمين من الأشاعرة)، وسنحاول في هذا المبحث أن نكشف موقفه الحقيقي من علم الكلام، ثم نبين عرضه التجديدي للعقيدة، ونختم ذلك ببيان موقفه من ظاهرة التكفير، والتي انتشرت، وبحدة، في عصره، سواء بين المتكلمين أو غيرهم من الطوائف.

1 ـ موقف الغزالي من منهج المتكلمين في عرض العقيدة:

يحرص الغزالي عند بيانه لموقفه من علم الكلام ومن المتكلمين أن يبين الدور الحقيقي المناط بعلم الكلام، وكونه علما

محمودا أو فرض كفاية بسـببه، ثم علاقـة تلـك المبـاحث الكلاميـة بالإيمان.

وهو يرى لذلك أن الغرض الأصلي من علم الكلام هو (حفـظ عقيـدة أهـل السـنة وحراسـتها عن تشـويش البدعـة)[1]، ويـرى المتكلمين حراسا لتلك العقيدة من شبهات المبتدعة مشبها إيـاهم بالحرس المستأجرين لحماية الحجاج من قطاع الطرق، فلـو تـرك قطاع الطرق اعتداءاتهم لم يكن لاسـتئجارهم معـنى، (فلـذلك لـو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على مـا عـود في عصـر الصحابة)[2]

ولهذا، فإن المتكلمين في رأي الغـزالي قـد قـاموا بمـا وجب عليهم، وانتـدبوا لـه من نصـرة العقيـدة وحمايتهـا من الشـبهات الحادثة، (فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقـاة بالقبول من النبوة والتغيير في وجه ما حـدث من البـدع)[3]، ويـرى كـذلك ضـرورة وجـودهم الـدائم في المجتمـع الإسـلامي كحـراس للعقيدة من كل شبهة طارئة أو بدعة حادثة.

وقد مارس الغزالي نفسـه هـذه الوظيفـة، واكتسـب بسـببها صفة المتكلم الأشعري، فإنه في منهجه العقـدي العـام (لم يخـرج قط عن المخطط الإسـلامي، وبخاصـة الاتجـاه السـني الأشـعري، ولم يكن هناك أي تناقض صـريح فيمـا تتضـمنه كتبـه سـواء كـانت للعامة أو للخاصة)[4]

ومع ذلك فالغزالي يدعو إلى تطوير علم الكلام ليتناسـب مـع عصره أو مع العصور التي تليـه، وليـؤدي الـدور الحقيقي المتعلـق به، فقـد انشـغل الكثـير من المتـأخرين بحكايـة أقـوال السـابقين، وأدخلوا في علم الكلام ما ليس من غرضه، وأوجبوه على العامـة، وحكموا بالتفكير والتضليل بناء على ذلك، والغزالي ينتقد كل ذلك، ولعل أهم الملامح العامـة لـدعوة الغـزالي التطويريـة لعلم الكلام هي:

أ ـ التفريـق بين المقاصـد والغايـات في علم

[1] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص87.

[2] الغزالي ، الإحياء : 1/22.

[3] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص89.

[4] د.محمد جلال شرف ،الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي ،بـيروت:دار النهضة العربية،ص47.

الكلام:

فالإيمــان هــو المقصــد الأول، ومــا علم الكلام إلا منهج من مناهجه وظيفته حماية الإيمان من تشويشات المبتدعة وشـبهاتهم، يقـــول الغـــزالي عن علم الكلام بعـــدما طلب البحث فيـــه عن الحقيقة: (فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي)[1]

ولهذا، فـإن لـه حكم الوسـيلة من حيث الحاجـة إليهـا، لـذلك ينتقـد الغـزالي الطريقـة التعميميـة في عـرض مسـائل العقيـدة بالمنـاهج الكلاميـة لمـا تثـيره من شـبهات وتشـكيكات، ويـرى أن يقتصر في البلاد التي تقل فيها البدعة، ولا تختلـف فيهـا المـذاهب على العقائد المعروفـة دون التعـرض للأدلـة إلى أن تقـع الشـبهة، وحينذاك تذكر الأدلة بقدر الحاجة.

فإن كانت البدعة شائعة، وخيف على العوام ان يخـدعوا بهـا، فلا بأس من عـرض الأدلـة وتعميم العلم بهـا بحسـب الحاجـة إلى ذلك[2]، اما في غير تلك المواضع فإن الغـزالي يـرى حرمـة خـوض العوام في علم الكلام وإلجامهم عنه إلا لأحد شخصين:

1 ـ رجل وقعت له شـبهة لا يمكن إزالتهـا عنـه بكلام وعظي، وعلم أن القول الكلامي المرتب يرفع شبهته ويداويها.

2 ـ شخص كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الإيمــان يريد تحصيله ليـداوي بـه مريضـا إذا وقعت لـه شـبهة، أو يفحم بـه مبتـدعا، أو يحـرس معتقـده إذا أراد المبتـدع إغـواءه[3]، وهـو يـرى لـذلك حرمـة التصـدي لتعلمـه بتفاصـيله كفـرض كفـائي إلا لمن توفرت فيه الأهلية لذلك، الغزالي يحصرها في ثلاث خصال:

1. التجرد للعلم والحرص عليه، لأن المحترف تمنعـه أشـغاله عن مواصلة التعلم وإزالة الشكوك إذا عرضت.
2. الذكاء، لأن البليد لا ينتفع بفهمه ولا حججـه، فيخـاف عليـه من ضرر الكلام في نفس الوقت الذي لا يرجى نفعه.
3. أن يكون في طبعه الصلاح والتقوى، لأن الفاسق يرتد عن الدين لأدنى شبهة[4].

وهـو لهـذا التحديـد الـوظيفي لعلم الكلام يـرى ان المرتبـة

---

[1] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص87.

[2] الغزالي ، الإحياء : 1/98.

[3] الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص173، 174.

[4] الغزالي ، الإحياء : 1/99.

الإيمانية للمتكلمين لا تختلف عن مراتب العوام، ولهذا ينصح المتكلم بقوله:(فليعلم المتكلم حده ممن الدين، وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج، والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة، ولم يسلك طريق الآخرة لم يكن من جملة علماء الدين أصلا)

ثم يعقب على ذلك بقوله:(وليس عند المتكل من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام، وإنما يتميز عن العامي بسرعة المجادلة والحراسة)[1]

ب ـ تطوير المنهج البرهاني لعلم الكلام:

يرى الغزالي أن معظم الحجج التي اعتمد عليها المتكلمون ترجع إلى مقدمات تسلموها من خصومهم تستند إلى مجرد النقل أو التقليد، دون أن تعتمد على ضروريات واضحة، وهم في مناقشاتهم لخصومهم يعتمدون على استخراج مناقضاتهم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا المنهج قد يؤثر في إبطال أقوال الخصوم وقمع البدعة لكنه غير كاف في إظهار الحق والبرهنة عل صحته، وخاصة في حق من لا يسلم بغير الضروريات[2].

ومع تحديد الغزالي لوظيفة علم الكلام باعتباره وسيلة تعتمد حجج كل بيئة توجد فيها، ولو كانت حججا خطابية جدلية إلا أنه يرى ضرورة البحث العقلي للتوصل إلى حراسة المعتقدات بأدلة منطقية ضرورية تصلح لكل بيئة ويسلم لها كل الناس.

ومع هذا فإن الغزالي نفسه عند مناقضاته للخصوم، وخاصة الفلاسفة، اعتمد على مسلماتهم، وحاربهم بمنطقهم وألزمهم بأقوالهم، ولعل في ذلك إشارة إلى صعوبة التوصل إلى أدلة ضرورية تتفق عليها كل العقول وتنتفي بها كل الشبهات.

وقد حاول المتأخرون من المتكلمين، كما يذكر الغزالي، البحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث في الجواهر والأعراض وأحكامها، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحو كلية ظلمات الحيرة باختلافات الخلق[3].

---

[1] الغزالي ، الإحياء : 1/23.

[2] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص90.

[3] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص91.

ومع هذه الدعوة والقصور عن الوفـاء بهـا في نفس الـوقت، تلميح إلى ضرورة الاجتهاد الدائم في هذا العلم، ونهي عن التقليد، أو تحويل علم الكلام عن غرضه الأصلي، الذي هـو البحث الـدائب عن الأدلة لنصرة العقيدة إلى التعصب للآراء والتمذهب بها، وكأنها مقصودة لذاتها.

ج ـ توسيع ميادين علم الكلام:

بما أن مقصد علم الكلام هو حراسة العقيـدة من تشويشـات المبتدعة وشبهاتهم، فإن الغزالي يرى وجـوب تصـدية لكـل شـبهة عارضـة، وعـدم حصـره في الـرد على المعتزلـة، أو بعض الفـرق الإسلامية كما هو حاصل في عصره، لأن آراء المعتزلة، وإن كـانت سببا في نشوئه كعلم شـرعي إلا أن الشـبهات العقديـة لا تتوقـف عندهم، فهناك الفلسفات المضـللة والأديـان المحرفـة والشـبهات التي تنتشر بين العامة داعية إلى التكاسل عن الطاعـات وغيرهـا، وكل ذلك يحتاج إلى نصرة.

ولهذا فإن الغزالي يوسع علم الكلام ليشـمل نصـرة العقيـدة والشـريعة معـا ضـد كـل الفـرق المنحرفـة والأديـان المضـللة والشبهات العامة، ونجد هذه النصرة صريحة في كل كتبة، ولهذا لا غرابة في وضف جميع كتبة بـ (الكلامية) ما دام هدفها هو النصرة، فرده على الفلاسفة كـان ردا كلاميـا عقليـا دعـاه إليـه مـا رآه من إهمـال الكثـير من الواجبـات الشـرعية، والتـذرع بطلب الحكمـة والفلسفة، وكذلك في رده على الباطنيـة أو مبتـدعي الصـوفية أو بتفنيـده لألوهيــة المســيح وبيانــه لتحريــف الإنجيــل او رده على الشبهات التي يعتمد عليها المغترون.

وفي هـذا التوسـيع دعـوة ثانيـة من الغـزالي للمتكلمين إلى الخروج من القوالب الـتي وضـعها أسـلافهم، والنهـوض بهـذا العم لأداء غرضه الأصلي الشرعي.

2 ـ تجديد الغزالي في عرض العقيدة:

لا يعني التجديد في الفكر الإسلامي شيئا غير العودة للأصـول وتطبيقها في الواقع تطبيقـا يلائم العصـر ويـراعي الحاجـات، وقـد كان تجديد الغزالي في الميدان العقدي يتمثـل هـذا المعـنى، فهـو يدعو إلى العودة إلى (الإيمان) بمفهومه الحقيقي الواسع، بعــد أن تحور معناه إلى (صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطـرق مناقضـات الخصـوم والقـدرة على التشـدق فيهـا بتكثـير

الأسئلة، وإثـارة الشـبهات وتـأليف الإلزامـات)[1]، وحقيقـة الإيمـان التي يدعو الغزالي إل عرضها والتحقق بها ترتكز على دعامتين:

أ ـ العلم:

وهو العلم بالعقائـد والتسـليم لهـا، وبمـا أن كـل علم يتطلب موضـوعا ومسـائل يتعلـق بهـا،والتسـليم يقتضـي بـراهين وحججـا تؤيده، فإن العلم الإيماني عند الغزالي يستلزم كلا الجانبين:

البراهين العقدية:

يحاول الغزالي عند حديثه عن البراهين الإيمانية أن ينقل آثـار تجربته الشـكية حيث أنجـاه اللـه منهـا (ولم يكن ذلـك بنظم دليـل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر)[2]

فالإيمـان إذن هبـة ربانيـة، لا يعلم على وجـه التحديـد سـببها (ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المجـردة والتقسـيمات المرتبة فقد أبدع جد الإبداع، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلـوب عبيده عطية وهدية من عنده)[3]

ثم يرد ساخرا عل منهج المغالين من المتكلمين قائلا: (فليت شـعري مـتى نقـل عن رسـول اللـه ﷺ أو عن الصـحابة إحضـار أعرابي أسلم، وقوله له:(الدليل على أن العالم حادث أنـه لا يخلـو من الحوادث والأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وأن الله تعالى عالم بعلم، وقادر بقدرة زائدة عن الذات، لا هي هـو ولا هي غيره)[4]

ولذلك، فإنه يضـع منهجـا آخـر في التصـديق بـدل ذلـك، وقـد أشار إلى هـذا المنهج البـارون كـارادوفو بقولـه: (لم يقم الغـزالي مذهبا في علم الكلام بحصر المعنى، وإنما أتى بمـا هـو أعظم من هذا، وهو أنه أحدث روحا، وجدد مذهبا، فهو قـد طـرد المناقشـات غير الجدية وأبعـد الفضـول الـدقيق والزهـو العقلي، وأوجب تغلب روح الإيمان)[5]، وروح الإيمان تستدعي التسليم والإذعان ببسـاطة دون غلو في إعمال العقل أو إهماله.

---

[1] الغزالي ، الإحياء : 1/33.

[2] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص85.

[3] الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص172.

[4] الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص172.

[5] البارون كارادوفو، الغزالي ، ترجمة عادل زعيتر، ط2 ، المؤسسة العربيـة للدراسات والنشر، 1984، ص103.

ولعل ما دعا الغزالي إلى هذا الحكم هو ما شهده من عقيـدة أهـل الصـلاح من العـوام مقارنـة بعقيـدة المتكلمين والمجـادلين، (فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشـامخ وعقيـدة المتلكم الخارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخييط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا)[1]

وبذلك، فإن الطريق الذي يرسـمه الغـزالي للتصـديق هـو أن يثبت الاعتقـاد في نفس العـامي، بـل في نفـوس الصـبية حـتى تترسـخ، وطريـق ذلـك أن يشـتغل بوظـائف العبـادات، (فلا يـزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سـمعه من أدلـة القـرآن وحججـه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنـوار العبـادات ووظائفهـا، فيكـون أول التلقين كإلقـاء البـذر في الصدر، وتكون هذه الأسـباب كالسـقي والتربيـة لـه)[2]، وبعـد هـذا ينبغي حراسته عن الجدل والكلام، لأن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده، وما يفسده أكثر مما يصلحه.

المسائل العقدية:

يـرى الغــزالي أن هــذه المســائل محــدودة بمــا جــاءت بــه النصوص الشرعية، ويرى ان أقل ما ينبغي اعتقاده هو ما يترجمــه قول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فإذا صـدق رسـول اللـه ﷺ فعليه أن يصدقه في صـفات اللـه تعـالى (وليس عليـه البحث عن حقيقة هذه الصفات، وأن الكلام والعلم وغيرهمـا قـديم أو حـادث، بل لو لم تخطر هذه المسألة عليه حـتى مـات مـات مؤمنـا... ولم يكلف رسول الله ﷺ أكثر من ذلك)[3]

وقــد وضــع الغــزالي رســالة في العقيــدة موجهــة للصــبيان والعامة بغرض حفظها، وهي تجمع بأسلوب متين جميـع مـا يطلب اعتقـاده مسـتندا إلى النصـوص الشـرعية في ذلـك، وقـد سـماها (الرسالة القدسية)[4]، ثم وضع رسالة أخرى مكملة لها كاشفة عن براهينها سماها(لوامع الأدلة)، وكلتا الرسـالتين تجمعـان مـا اتفقت

---

[1] الغزالي ، الإحياء : 1/94.

[2] الغزالي ، الإحياء : 1/94.

[3] الغزالي ، الإحياء : 1/94.

[4] وهي رسالة صغيرة ومع ذلك تجمع الكثير من تفاصيل العقائد، وقـد لقيت العناية من الكثير من العلمـاء بالشـرح والتفصـيل لمسـائلها، وسـميت كـذلك لأنهـا وضـعت بالقـدس في فـترة العزلـة الأولى، انظـر: الغـزالي، الإحيـاء : 1/104/115.

عليه الأمة من العقائد، وتغني عن الكتب المطولة في ذلك.

وكما أن منهج البراهين العقدية تعرض لغلو بعض المتكلمين، فكذلك بعض مسائل العقيدة تعرضت لشبهات (الكرامية)[1]و (المشبهة)[2] وغيرهم، فاحتاجت إلى من يقي المجتمع الإسلامي أخطار شبهها، وبما أن كل تلك الطوائف كان تعرضها للإيمان بالله بالدرجة الأولى نتيجة سوء فهم للألوهية ساعد عليه ما تشابه من النصوص، فإن الغزالي قد ناصر، وخاصة بالنسبة للعامة، المنهج الأسلم لذلك، وهو منهج السلف من الصحابة والتابعين، ولهذا لم يقف منها موقف التأويل أو التعطيل بل دعا إلى معاملتها بسبع وظائف هي:

1. **التقديس**: وهو تنزيه الله تعالى عن الجسمية وتوابعها من صفات الحوادث.
2. **التصديق**: وهو الإيمان بأن ما ورد من النصوص حق، وأنه أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته.
3. **الاعتراف بالعجز** عن معرفة حقيقتها.
4. **السكوت عن السؤال عن معناه**، لأن كل ذلك بدعة، كما نص عليه الإمام مالك .
5. **الإمساك عن التصرف في ألفاظها** بالتصريف والتبديل للغة أخرى والزيادة فيها والنقصان منها والجمع والتفريق...بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والصيغة.
6. **كف الباطن عن البحث عنها** والتفكير فيها.
7. **التسليم لأهلها** ممن يعلمون ما تشابه منه من الأنبياء والراسخين في العلم[3].

ب ـ التحقق الذوقي:

يعبر الغزالي عن هذا الركن من الإيمان باليقين، معتبرا إياه رأس مال الدين، هو لا يقصده منه ما يقصده المتكلمون من

---

[1] أتباع محمد بن كرام ـ ت 869 م ـ وهي من الفرق المجسمة القائلة بأن الله تعالى محل للحوادث، انظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 202، 214.

[2] وهو طوائف شتى اجتمعت على القول بتشبيه ذات الله تعالى صفاته بغيرها ، انظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص214.

[3] انظر تفصيل ذلك في : الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام ، ص:54 ـ 85.

التصـديق الجـازم بالشـيء، والـذي ينفي عنـه الظن أو الشـك أو الوهم، فـإن ذلـك لا يحتـل إلا حـيزا بسـيطا من الإنسـان هـو حـيز الـذهن المصـدق، أمـا اليقين الحقيقي، فهـو غلبـة التصـديق على القلب، حـتى يصـير هـو المتحكم والتصـرف في النفس بالإجـازة والمنع [1].

وهـذا الإيمـان هـو الينبـوع الـذي تفيض منـه كـل الخـيرات، ويضرب الغزالي لذلك مثلا بتوحيد الأفعال، فالعقل بعـد أن يطمئن إلى حقيقة توحيد الأفعال مصدقا بذلك مدعما لـه يكـون قـد دخـل حيز الإيمان، ونال المرتبة الأولى منه، ولكنـه إذا نقـل ذلـك اليقين العقلي إلى نفسه وقلبه وحواسه جميعا، فصار (يرى الأشـياء كلهـا من مسبب الأسباب، فلا يلتفت إلى الوسائط، بـل يـرى الوسـائط مسخرة لا حكم لها، فإنه ينتقل إلى مرتبة اليقين)[2]

والإيمان بالمعنى الأول ـ الذي هو مجرد التصـديق بالتوحيـد ـ معتبر، وينفع صاحبه، ولكنه لا يـؤثر في سـلوكه ولا في حياتـه، ولا في نيله للدرجات العليا في الآخرة، وأما بالمعنى الثاني، فإنه كمـا يقـول الغـزالي:(مهمـا تحقـق أن الشـمس والنجـوم والجمـادات والنباتات مسخرات بأمره، وأن القدرة الأزليـة هي المصـدر للكـل استولى على قلبه غلبة التوكـل والرضـى والتسـليم، وصـار موقنـا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق)[3]

وهذا أثر من آثـار نـوع واحـد من أنـواع التوحيـد، وهـو توحيـد الأفعال، ولكل صـفة من صـفات اللـه تعـالى أو اسـم من أسـمائه أثـره الخـاص بـه، والـذي لا يمكن للإنسـان الحصـول عليـه إذا لم يستول على قلبه معـنى ذلـك الاسـم أو تلـك الصـفة، وهـو معـنى الإحصاء الذي ورد في قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسما مائـة غير واحد من أحصاها دخل الجنة)[4]

وليس الإحصاء أن يسمع لفظها أو يفهم في اللغـة تفسـيرها، أو يعتقد وجودها، فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سـلامة السـمع، وأما فهم وضعها اللغوي، فلا يستدعي إلا المعرفـة بالعربيـة، وأمـا اعتقاد ثبوت معناها للـه تعـالى فلا يسـتدعي إلا فهم معـاني هـذه الألفاظ والتصديق بها، بل إن الإحصاء ـ كما يشرحه الغزالي ــ هـو

---

[1] الغزالي، الإحياء: 1/73.

[2] الغزالي ، الإحياء : 1/74.

[3] الغزالي ، الإحياء : 1/74.

[4] تخريج

أن ينال المؤمن ثلاثة حظوظ من معاني أسماء الله الحسنى:

1. معرفة معاني تلك الأسماء معرفة كشفية شهودية، ولفظا (المكاشفة والمشاهدة) اللذان يكثر الغزالي من استعمالهما في كتبه لا يريد بهما الرؤية البصرية والحسية، وإنما هما استعارة لغلبة اليقين على البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الحسي[1].
2. استعظام ما ينكشف له من صفات الجلال على وجه يشوقه إلى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات، ليؤهله ذلك إلى التقرب من الله تعالى، فالمعرفة ــ كما يرى الغزالي ـ بذر الشوق[2].
3. السعي إلى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها، والتحلي بمحاسنها، وبذلك يصير العبد (ربانيا) متحققا بالقرب من ربه تعالى.

وهذا وصف جيد لطريق التحقق بالاعتقاد الذي ينطلق من المكاشفة، وينتهي بالتخلق، وهو النتيجة الطبيعية للمعرفة، وبذلك فإن التخلق الناتج عن المعرفة أكمل وأدوم بخلاف التخلق الناتج عن الرياضات والمجاهدات.

والغزالي يحبذ هذا الطريق ويدعو له، وفي نفس الوقت يدعو إلى رياضة النفس في حالة جموحها، لأن صفاءها الممكن شرط أولي للتحقق بالمعرفة.

ولأجل بيان كيفية إحصاء كل اسم من الأسماء ألف الغزالي كتابه (المقصد الأسنى في شرح اسماء الله الحسنى)، وهو كتاب فريد في بابه تكلم فيه كلام الذائق المشاهد الذي عاش الإيمان، واستولى على قلبه، لا كلام من غلبت عليه صناعة المتكلمين وتدقيقاتهم.

3 ـ موقف الغزالي من ظاهرة التكفير:

بما أن مفهوم الإيمان يرتبط بتحديد مفهوم نقيضه، وهو الكفر، ونتيجة للأخطار التي تسببها ظاهرة التكفير، فإن الغزالي يهتم بتحديد ضوابط الكفر، ولعل ما دعاه إلى ذلك هو الطعن الشديد الذي تعرض له بسبب مخالفته الأشعري في بعض المسائل الفرعية، وخاصة من طرف المازري، وقد ألف بسبب ذلك الطعن رسالة تعتبر من أهم الرسائل في هذا المجال، وهي

[1] الغزالي ، الإحياء : 4/312.

[2] الغزالي ، المقصد الأسنى ، ص32.

(فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)، والتي يقـول في مقـدمتها: (إني رأيتك أيها الأخ المشفق منقسم الفكر لمـا قـرع سـمعك من طعن طائفـة من الحسـدة على بعض كتبنـا المصـنفة في أسـرار معـاملات الـدين، وزعمهم أن فيهـا مـا يخـالف مـذاهب الأصـحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر)[1]

ثم يسأل هؤلاء المتعصبين عن الميزان الذي رأوا به أن الحق قاصر على الأشعري أو غيره مع أن الباقلاني نفسه، وهو من أتباع الأشعري، يخالفه في صفة البقاء لله تعالى، وأنه ليس وصفا زائدا على الذات، (لم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني؟ ولم صـار الحـق وقفـا على أحـدهما دون الثـاني؟ أكـان ذلـك لأجـل السـبق في الزمـان، فقـد سـبق الأشعري غيره من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليـه، أم لأجـل التفـاوت في الفضـل والعلم؟ فبـأي مـيزان ومكيـال قـدر درجـات الفضل؟)[2]

ثم يعقب على ذلك بقوله:(فإن رخص للبـاقلاني في مخالفتـه فلم حجر على غيره؟)[3]

وهو يبين أن سبب هذه الظاهرة، والتي لم يخلـو منهـا عصـر من العصور الإسلامية، غلبة الجهل، أو ما يسمى بالجهل المـركب، وخاصة ممن بضاعتهم الفقه المجـرد، يقـول في ذلـك:(فـإذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجـرد الفقـه يخـوض في التكفـير والتضـليل، فأعرض عنه، ولا تشغل به قلبـك ولسـانك، فـإن التحـدي بـالعلوم غريـزة في الطبـع لا يصـبر عنـه الجهـل، ولأجلـه كـثر الخلاف بين الناس)[4]

ويمثل لهؤلاء ببعض المتكلمين في العقائد الذين كفروا عـوام المسلمين، و(ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده، وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين)[5]

ولـذلك يتشـدد الغـزالي في شـروط من لـه حـق التكفـير

---

[1] الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص147.

[2] المرجع السابق ، ص47.

[3] المرجع السابق، ص171.

[4] المرجع السابق ، ص171.

[5] المرجع السابق ، ص145.

والتضليل حتى لا يبقى مشاعا بين العامة، أو من هو في حكمهم، يقول الغزالي:(ولا ينكشف هذا إلا لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولا، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيا، ثم نورت بالذكر الصافي ثالثا، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعا، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسا حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة)[1]

واشتراط الغزالي تزكية النفس لمن يتصدى لمثل هذه القضايا يشير إلى أن الكثير من مسائل التفكير المنتشرة يتدخل فيها إلى حد كبير التعصب والحسد وغيرهما من الأمراض النفسية التي تحجب المصاب بها عن رحمة الله الواسعة، ولذلك يقول الغزالي، وبتفتح عجيب قد يستغرب من متكلم:(وأنا أقول: إن الرحمة تشمل كثيرا من الأمم السالفة، وأن أكثرهم يعرضون على النار، إما عرضة خفيفة حتى في لحظة أو ساعة، وإما في مدة حتى يطلق عليهم بعث النار، بل أقول: إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة ــ إن شاء الله تعالى ـ أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة)[2]

ويقسم هؤلاء باعتبار بلوغهم الدعوة وعدم بلوغهم إلى ثلاثة أصناف:

1. صنف لم تبلغهم الدعوة، فهم معذورون.
2. صنف بلغتهم الدعوة، ولكنهم جحدوا، فهم الكفار الملحدون.
3. صنف بين الدرجتين: بلغتهم الدعوة، ولكنها شوهت ي أذهانهم، والغزالي يضم هذا الصنف إلى الصنف الأول باعتبار ذلك التشويه لا يحرك في نفوسهم داعية الطلب[3].

هذا رأي الغزالي في التكفير خارج دائرة المسلمين، أما داخل دائرة المسلمين، فإن الغزالي يضع قانونا يساهم إلى حد كبير في تضييق دائرة الكفر إلى أدنى حد مشروع.

ولأهمية هذا القانون ودوره في الحد من الغلو في التكفير، وكون العلم به هو العلاج الأمثل لهذه الظاهرة، فسنختصر شرحه في هذا المقام.

---

[1] المرجع السابق ، ص176.

[2] المرجع السابق ، ص177.

[3] المرجع السابق ، ص147.

ينطلق الغزالي من قاعدة تطرد وتعكس في التكفير ن وهي (أن الكفر تكذيب رسول الله ﷺ في شيء مما جـاء بـه، والإيمـان تصديقه في جميع ما جاء به)[1]

ومع أن هذا الحد يتفق عليـه الجميـع إلا أن الخلاف واقـع في تطبيقه (فالحنبلي يكفـر الأشـعري زاعمـا أنـه كـذب الرسـول في إثبات الفوق للـه تعـالى، وفي الاسـتواء على العـرش، والأشـعري يكفره زاعما أنه مشبه، وكذب الرسول في أنه ليس كمثله شيء، والأشعري يكفر المعتزلي زاعما أنه كذب الرسول في جواز رؤيـة الله تعالى، والمعتزلي يكفر الأشعري زاعما أن في إثبات الصفات تكثير للقدماء)[2]

هذه هي الشـبهة الكـبرى في التكفـير حـتى أن البعض يكفـر أخاه إن أنكر سنة آحاد أو أول نصـا، ولهـذا يضـع الغـزالي خمسـة ضوابط يمكن الحكم انطلاقا منها بالتكفير أو عدمه، وهي:

أ ـ موضوع التكذيب:

وهي النظر في قصد المكذب لمـا جـاء بـه الشـارع، هـل هـو للخبر أم للمخبر؟ فإن كان للمخـبر فقـد كفـر، لا خلاف في ذلـك، وأما إن كان للخبر فينظـر فيـه، فـإن لكـل موجـود خمس مـراتب (لأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب)[3]، وهذه المراتب هي:

الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي الثابت خــارج الحس، وذلـك كإخبـار الرسـول ﷺ عن العـرش والكرسـي والجنـة والنـار ونحوها.

الوجود الحسي: وهو ما يتمثل في الحواس مما لا وجود له خارجهـا، وعليـه يفسـر الغـزالي قولـه ﷺ:(من رآني في المنـام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثـل الشـيطان بي)[4]، فـذلك لا يعـني انتقال شخصـه ﷺ من روضـة المدينـة إلى موضـع النـائم، بـل هي على سبيل وجود صورته في حس النائم فقط[5].

الوجود الخيالي: وهو اخـتراع صـور من المحسوسـات في

---

1) المرجع السابق ، ص49.

2) المرجع السابق ، ص149.

3) المرجع السابق ، ص150.

4) رواه البخاري وغيره.

5) الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص149.

الخيال، فيكون وجودها قاصرا عليه، دون أن يكون له أي أثر خارجي.

الوجود العقلي: لأن لكل شيء روحا وحقيقة ومعنى، يتلقى العقل معناه دون صورته، فاليد مثلا لها وجود ذاتي في نفسها، وحسي برؤيتها، وخيالي باختراع صورتها في المخيلة، وعقلي بحقيقتها، وهي الدور الذي تؤديه من بطش أو كتابة أو إحسان، أو غير ذلك.

الوجود الشبهي: وهي أن لا يكون نفس الشيء موجودا، ولكن يوجد شيء آخر يشبهه (فمن قام عند البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى نزله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب، كإرادة العقاب)[1]

هذه هي المراتب الخمسة للوجود كما يفصلها الغزالي، وهو يرى أن كل من نزل قولا من أقوال صاحب الشرع على درجة منها، فهو من المصدقين، وإنما التكذيب أن ينفي جميعها)[2]

ولكن ذلك ليس مطلقا، فالتأويل الذي يخرج النص عن ظاهره وحقيقته لا بد أن يستند إلى قانون وإلا أمكن تأويل الدين كله، كما فعل الغلاة من الباطنية، وضابط التأويل عند الغزالي هو قيام البرهان على استحال الظاهر، والظاهر الأول هو الوجود الذاتي، فإنه إذا ثبت تضمن الجميع، وإن تعذر، فالوجود الحسي، فإن تعذر فالوجود الخيالي أو العقلي، وإن تعذر فالوجود المجازي[3].

ويجب التكفير عند الغزالي إن تعلق التأويل بأصول العقائد المهمة من غير برهان قاطع، كإنكار حشر الأجساد، أو إنكار العقوبات الحسية في الآخر وغير ذلك، إذا لا برهان على استحالة ذلك، زيادة على الضرر العظيم الذي تحدثه مثل هذه التأويلات على الدين[4].

هذا هو الضابط الأول، ولا يستقل بمعرفته إلا الجهابذة من العلماء ن أما اعتباره تعطيلا للنص، واعتقاد أن ذلك مذهب السلف فهو طعن فيهم، وكذب عليهم، فقد روي من تأويلهم الشيء الكثير، فقد أول ابن عباس الساق في قوله تعالى: يَوْمَ

[1] المرجع السابق ، ص151.

[2] المرجع السابق ، ص156.

[3] المرجع السابق ، ص159.

[4] المرجع السابق ، ص159.

يُكْشَفُ عَنْ سَاق (القلم: 42) بالشدة[1]، يقـول الغـزالي:(مـا من فريـق من أهـل الإسـلام إلا وهـو مضـطر إليـه، فأبعـد النـاس عن التأويـل أحمـد بن حنبـل، وأبعـد التـأويلات عن الحقيقـة أن تجعـل الكلام مجازا أو استعارة، وهـو الوجـود العقلي والوجـود الشـبهي، والحنبلي مضطر إليه وقائل به)[2]

ب ـ سند النص:

وهو النظر في الطريق الذي ورد به الخبر، هل هو بالتواتر أو بالآحـاد، أو بالإجمـاع؟ فـإن كـان تـواترا، ننظـر هـل تحققت فيـه شروط التواتر أم لا؟ ومعرفة ذلـك غامضـة جـدا إلا على البـاحثين في كتب التـاريخ والحـديث وأحـوال الرجـال وغيرهـا من علـوم التوثيق، ولذلك كثر الخلاف في تواتر أكثر ما زعم تواتره.

أما الإجماع فهو أصعبها من حيث الوقوف عليه، إذا لا بـد من إجماع العلماء في صعيد واحد، مع الاتفـاق على امـر واحـد بلفـظ صريح، ثم الاستمرار عليه إللى انقراض العصر[3].

ج ـ بلوغ الخبر:

وهو النظر في الطريق الذي وصل فيه الخبر للمكـذب، فقـد يبلغه الخبر المتواتر بطريق الآحاد، فيكذب به على ذلك الأسـاس، فيكون مخطئا وجاهلا، لا مكذبا، والاسـتقلال بمعرفـة التحقيـق في ذلـك ليس يسـيرا، لاعتمادهـا على الاطلاع على حـال المكـذب ومعارفه[4]

د ـ الدليل الباعث على مخالفة الظاهر:

فينظر فيه، أهو موافق لشروط الالبرهان الصحيح أم لا؟ لأن البرهـان إن كـان قاطعـا رخص في التأويـل، ولا يسـتقل بهـذه المعرفة إلا من عرف البرهان وشروطه،وأتقن ذلك، وهذا مـا يفتح مجالا أكـبر لحريـة الـرأي والمناقشـة العلميـة الهادفـة،والبعـد عن الأحكام المسبقة.

---

[1] ابن حجـر، فتح البـاري، ط2، بـيروت : دار إحيـاء الـتراث العـربي، 1402، 13/428، وانظـر: ابن الجـوزي، دفـع شـبه التشـبيه بـأكف التنزيـه، تحقيـق : حسن السقاف، ط2، عمان: دار الإمـام النـووي، 1412 ـ 1992 ، فقـد نقـل المحقق النصوص الكثيرة عن ما ورد عن السلف الصالح من التأويل.

[2] الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص157.

[3] الغــزالي ، فيصــل التفرقــة بين الإســلام والزندقــة ، ص140، وانظــر: الغزالي ، المستصفى ، 1/96.

[4] الغزالي ، فيصل التفرقة، ص170.

هـ ـ الخطورة الشرعية،لا العقلية أو العرفية:

وهو النظر في الخطر الذي تسببه تلك المقالة على الدين، فما لا يعظم ضرره بأن كان خرافة أو قولا شنيعا ظاهر البطلان لايكفر به، ويضرب الغزالي مثلا لذلك بمقولة الإمام المنتظر عند الشيعة، فهو ـ مهما كان باطلا ــ لا ضرر فيه على الدين، وإنما الضرر على المعتقد لذلك، فلذلك لا يكفر به[1].

ومن هذا الباب كفر الغزالي الفلاسفة القائلين بعدم علم الله بالجزئيات، وعدم حشر الأجساد[2]،لأن مضرة هذا القول ــ زيادة على عدم استنادها إلى حجج واضحة قوية ـ تفتح المجال لأخطار كبيرة على جمهور الأمة، وترفع الثقة على الألفاظ.

هذه هي الضوابط الخمسة عند الغزالي، وهي كما رأينا شديدة الصعوبة لا يستقل بمعرفتها إلا من مارس العلوم الكثيرة، مع الاطلاع الواسع الدقيق على حال المكفر، ويختم الغزالي ذلك، ويسبقه بوصية يقول فيها: (أما الوصية: فان تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك، ماداموا قائلين لا إله إلا الله، محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر، أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر.والسكوت لا خطر فيه)[3]

ثانيا . العلم

إن أول ما فعله الغزالي بعد خروجه من عزلته وعزمه على التفرغ للإصلاح هو تأسيسه مدرسة للعلماء، وخانقاه للصوفية، ولعل في ذلك إشارة للبداية الصحيحة للإصلاح .

فبالعلماء الذين يمزجون بين العلم الشرعي السليم من كل دخن، والتربية الروحية العالية التي تسير على منهاج النبوة ينطلق الإصلاح، وبهذين الوصفين (تصير الحسبة من القربات، وبها تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع منكر، بل ربما كانت الحسبة ـ أيضاـ منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها)[4]

وقد كان كلا هذين الجانبين بحاجة إلى الإصلاح لإخراج

---

[1] المرجع السابق ، ص171.

[2] المرجع السابق ، ص149.

[3] المرجع السابق ، ص149.

[4] الإحياء 2/333 .

العلماء الرانيين والمصلحين، ولذلك أخذا قسطا كبـيرا من اهتمـام الغزالي، وتمحورت حولهما كل كتبه.

وهذان الجانبان لا يتحققان ـ كمـا يـرى الغـزالي ــ إلا بإعـادة النظــر في توجيــه التعليم إلى أبعــاده الإصــلاحية، وهــو لا يتم إلا بإصــلاح نظــام التعليم نفســه، وســنتناول كلا الأمــرين في هــذا المبحث.

1 ـ البعد الإصلاحي للعلم:

لقـد لاحـظ الغـزالي أن خلـو التعليم في عصـره من التوجيـه الإصلاحي حول العلماء إلى معاول للإفساد، بـدل أن يكونـوا سـببا لتشييد صرح الإصلاح.

وهذا الحكم لم يرسله الغـزالي عبثـا، وإنمـا هـو نتيجـة خـبرة وتجربــة واســتبار ومعاينــة لأفــراد النــاس وســؤالهم عن ســبب تقصيرهم في الشريعة، فالكثير منهم أجابه بأن (هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك)[1]

يقول الغزالي:(إن الأطباء هم العلماء، وقـد مرضـو في هـذه الأعصـار مرضـا شـديدا عجـزوا عن علاجـه، فاضـطروا إلى إغـواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا، فبهذا السبب عم الخلق الداء، وعظم الوباء، وانقطع الدواء، وهلك الخلق لفد الأطباء)[2]

ولهــذا يــدعو إلى عنصــرين أساســيين لتحقيــق أبعــاد العلم الإصلاحية وهما:

أ ـ ربانية التعليم:

و هو توجيهه الوجهة الربانيـة لا الدنيويـة، والقصـد بـه اللـه لا الجاه أو المـال، وتحريـره من كـل المطـالب النفسـية أو الماديـة، وهذا ـ كما يصور الغزالي ـ هو الحال الذي دفعه إلى الإعتزال لأنـه بعد البحث في مقصده وجده متوجهـا لطلب الجـاه، ووجـد نفسـه يعلم العلوم التي بها يكسب الجاه.

ويعبر عن ذلـك أثنـاء تـبريره لرجوعـه إلى التعليم بالمدرسـة النظاميـة وبقولـه: (وأنـا أعلم أني إن رجعت إلى نشـر العلم فمـا رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في الزمان (الماضي) أنشر العلم الـذي بـه يكسـب الجـاه، وأدعـو إليـه بقـولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، أما الآن فأدعو إلى العلم الـذي بـه يـترك

[1] المنقذ من الضلال ص137 .
[2] الإحياء 4/51 .

الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه)[1]

ولهذا يعتبر الغزالي السلوك الروحي شرطا ضروريا لربانية التعليم، وتحقيــق أبعــاده الإصــلاحية في النفس أولا، ثم المجتمــع ثانيا، وهذه هي حقيقة العلم ــ في تصــوره ــ كمـا كـانت في عهـد السلف الصالح.

وقد عقد الغزالي فصلا طويلا في (كتاب العلم) من (الإحيـاء) بين فيه علامات علماء السوء، وآفاتهم التي يجرونها على المجتمع الإسلامي، وأهم تلك العلامات وأخطرهـا، هي الإسـتغراق في حب الدنيا، واتخاذ العلم وسيلة لها، فذلك يجر إلى خطرين:

1 ـ خوف العالم على دنياه فلذلك يضطر إلى المداهنة وعدم الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر خوفا من تغير قلـوب النـاس أو السلطان عليه، ولذلك ـ كما يعبر الغزالي ـ (لا يخلو عن تكلـف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبه مع أنهم ظلمة)[2]

وقد ذكر الغزالي من آداب المحتسب تقليـل العلائـق حـتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عن المداهنة) [3]

ويذكر قصة في ذلك عن بعض المشايخ أن كا له سنور وكـان يأخذ من قصاب كان في جواره كل يوم شـيئا من الغـدد لسـنوره، فرأى على القصـاب منكـرا، فـدخل داره أولا، وأخـرج السـنور، ثم جاء واحتسب عليه، فقال له القصـاب: (لا أعطيـك بعـد هـذا شـيئا لسنورك)، فقال الشيخ: (ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السـنور، وقطع الطمع منك)[4]

ولذلك كان السلف يتخوفون من ثناء الناس عليهم خوفــا من أن يكون مصدر ذلك مداهنتهم لهم.

2 ــ تقصـيرهم أو تفـريطهم في العمـل الصـالح، وارتكـابهم المعاصي والفواحش بسبب الغلو في كلب الـدنيا، فمطالبهـا يجـر بعضها إلى بعض.

وقد بين الغزالي العامل النفسـي لـذلك التنـاقض بين علمهم وعملهم فقــال: (وفرقــة (أي من أهــل العلم) أحكمــو العلــوم الشـرعية والعقليـة وتعمقـوا فيهـا، واشـتغلوا بهـا، وأهملـوا تفقـد الجوارح وحفظها عن المعاصـي، واعتـبر بعلمهم وظنـوا أنهم عنـد

---

[1] المنقذ من الضلال ص141 .

[2] الإحياء 1/86.

[3] المرجع السابق 2/334.

[4] المرجع السابق 2/334.

الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم)[1]

ويضرب لهؤلاء مثلا بالمريض الـذي بـه علـة لا يزيلهـا إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفهـا إلا حـذائق الأطبـاء، فسـعى في طلب الطبيب، فلما عثر عليه، وفصل الأخلاط وأنواعها ومقاديرهـا ومعداتها فتعلم كل ذلك وكتب منه نسخا، فلما رجع إلى بيتـه أخـذ يكررها، ولا يشتغل بشـربها واسـتعمالها، يقـول الغـزالي: (أفـترى ذلك يغني عنه من مرضه شيئا؟ هيهات هيهـات لـو كتب منـه ألـف نسخة، وعلمه ألف مريض حـتى شـفي جميعهم، وكـرره كـل ليلـة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا)[2]

وفي رسالة (أيها الولد)، وكلها نصائح قيمة في هـذا المجـال، يضرب الغزالي مثلا أخر لعدم إمكانيـة النجـاة بـالعلم المجـرد عن العمل، وهو أنه (لو كان على رجل في برية عشرة أسـياف هنديـة مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهـل حـرب، فحمـل عليـه أسد عظيم مهيب، فما ظنـك؟. هـل تـدفع الأسـلحة شـره عنـه بلا استعمالها؟)[3]

وفي تلـك الرسـالة ينطـق الغـزالي بهـذه الحكمـة: (لـو كـان العلم المجرد كافيا لك، ولا يحتاج إلى عمل سواه لكـان نـداء هـل من سائل. هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ ضائعا بلا فائدة)[4].

ب ـ تعميم التعليم:

يرى الغزالي أن الوظيفة الحقيقية للعلماء هي التوجه لإصلاح العامة وتعليمهم دون قضاء العمر في التفريعات النادرة، والتعمـق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفاية [5].

لكن هذه الوظيفة عرض لها مـا جعلهـا وظيفـة تطوعيـة نـدر من يتفرغ لها من العلماء، والسبب الذي يـراه الغـزالي لـذلك هـو إقبال العلماء على الولاة والسلاطين، والتقرب منهم، ونسيان أمر العامة، يقول الغزالي عند بيانه لعلامات علماء الآخـرة: (ومنهـا أن يكون مستقصيا عن السلاطين، فلا يدخل عليهم البتـة مـادام يجـد إلى الفـرار سـبيلا، (لأن) المخالـط لا يخلـو عن تكلـف في طلب

---

[1] الإحياء 3/388.
[2] الإحياء 3/388.
[3] رسالة (أيها الولد) ص125.
[4] المرجع السابق ص128 ـ 129.
[5] الإحياء 4/50 ـ 51.

مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة)[1]

وبقدر تلك المفاصلة عن السلاطين يدعو الغزالي إلى الاقتراب من العامة وتعليمهم وتربيتهم، لأن إصلاح القاعدة أجدى وأقرب وأسهل منالا، وقد وصف علماء السلف من تبعهم بأنهم (رجال عامة) [2]

وإلى جانب دعوة الغزالي العلماء لتعليم الناس وإصلاحهم، يدعو الحكام أن يرتبوا في كل قرية أو محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم، وبهذا يتكامل الإصلاح بتعاون الحكام مع العلماء، (فالعلماء أطباء، والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي، أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليكف شره عن نفسه وعن سائر الناس)[3]

2 ـ اصلاح النظام التعليمي:

لقد بلغت العلوم في عصر الغزالي أوجها، ولكنه مع ذلك دخل في النظام التعليمي باسم العلوم الشرعية أمور لم يكن لها أهمية في الشرع، فحصل نتيجة لذلك أخطاء وضلالات في تصورات الناس وسلوكيتهم [4].

ويتأسف الغزالي على مصير المدارس في عصره حيث (سلم لأقوام قل من الله خوفهم، وضعفت في الدين بصيرتهم، وقويت في الدنيا رغبتهم، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب)[5]، فصارت المدارس بدل أن تكون رمزا لوحدة الأمة الثقافية، ومركزا لإخراج الكفائات في كل ميادين الحياة مصدرا للخلاف والجدل، وخاصة الجدل الفقهي الذي انتشر حينذاك انتشارا فضيعا، وهو ما جر إلى اعتبار (الفقه) أفضل العلوم وأشرفها مع حصره في معرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقف على دقائق عللها [6]، وكل ذلك مفصولا عن الشريعة التي لا يشكل الفقه، أو تلك الفروع الغريبة إلا جزءا سرا منها.

وكمثال وقع في عهد الغزالي على غلبة الجزئية على علماء

---

[1] الإحياء 1/68.

[2] الإحياء 2/23.

[3] الإحياء 4/51.

[4] أبو الأعلى المودودي موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، الجزائر: شركة الشهاب، ص80.

[5] الإحياء 3/35.

[6] المرجع السابق 1/32.

ذلك العصر ما ذكره ابن العربي عند الحديث عن سبب سفارته ليوسف بن تشفين إلى المشرق حيث التقى الغزالي، قال: (وبقيت طائفة من رؤساء لثغر الشرقي من جزيرة الأندلس حالفوا النصارى، أو صار معهم إليها، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد والدخول في بيعة الجمهور فقالو: (لا جهاد إلا مع إمامة قريش وليست به، أو مع نائب عن إمام وما أنت ذاك)[1]

فهذا الفصل جعلهم يعتقدون أن محالفة النصارى أولى من جهاد مع أمير مسلم، لكونه غير قرشي، والفقهاء يشترطون قرشية الإمام، ومثل هذا حصل في سائر العلوم الشرعية، كما عرفنا سابقا عند الحديث عن القرآن أو السنة أو التصوف أو العقيدة أو غيرها.

ولذلك فإن دعوة الغزالي إلى إصلاح النظام التعليمي لا تعني ابتداعا جديد أو منهجا مستحدثا، وإنما تعني العودة بالعلم إلى أصله الأول حيث كان حيا مثمرا مريبا، ولذلك أطلق على أكبر جهد علمي له (إحياء علوم الدين) قاصدا بذلك العودة إلى العلوم التي قتلها الجدل، وأرهقتها الحرفية [2].

ويمكن تلخيص أثر الغزالي في الإصلاح التعليمي في:

أ ـ منهج التعليم:

لاحظ الغزالي أن لمنهج التعليم دورا كبيرا في التربية والإصلاح وتعميق المعلومات والتحقق بها، ولذلك أولاه العناية الكبرى، بل إن له الزيادة في تحقيق الكثر من القواعد المتعلقة به، والتي بنى أغلب المتأخرين آراءهم التربوية عليها [3]، وسنشير ـ هنا ـ لبعض تلك لقواعد مع بيان أثرها الإصلاحي:

---

[1] وقد كتب الغزالي فتوى بصحة ما فعله يوسف بن تاشفين من الولاء للخلافة العباسية، وذلك بطلب من أبي بكر بن العربي ووالده أبي محمد عندما لقياه ببغداد، وشرحا له أحوال الأندلس، انظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب و الأندلس ط1، القاهرة: لجنة التأليف والنشر،1964، 1/42.

[2] وليس كما زعم الشيخ محمد الشاذلي النيفر من أن سبب ذلك هو تعالي الغزالي وتعاظمه، وذلك عند مقارنته بين المازري المتواضع لأنه سمى كتابه (معلم) بينما يظل الغزالي على كتبه الألقاب المغالية كـ (كيمياء السعادة) و (إحياء علوم الدين) ، انظر: المازري، المعلم بفوائد سلم، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، تونس: الدار التونسية للنصر 1978م،1/142.

[3] د.عبد الأمير شمس الدين المذهب التربوي عند ابن جماعة،ط1، بيروت: دار اقرأ،1404ه،1984م، ص13،14 .

التدرج:

وهو مراعاة الـترتيب بين أجـزاء العلم الواحـد أو بين العلـوم المختلفـة بحيث لا يخـوض الطـالب في علم حـتى يسـتوفي العلم الذي قبله، لأن العلـوم مرتبـة ترتيبـا ضـروريا، وبعضـها يـؤدي إلى بعض، وبهذا المعنى يفسر الغـزالي قولـه تعـالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِـهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة:120)، أي لا يجاوزون فنـا حـتى يحكمـوه علما وعملا [1].

والأثر الإصلاحي لهذه القاعدة ـ كما يرى الغزالي ــ هـو أن لا يحكم على فساد أي علم من العلـوم، أو خطـأ فيـه إلا بعـد النظـر والتحقيق والتدقيق، دون أن يكون النقـد مبينـا على مجـرد النظـر السطحي الظاهري.

ويذكر الغزالي أمثلة من واقعه الاجتماعي ناقدا لهـا، منهـا أن طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شـاهدوه من طـبيب، وطائفـة اعتقدوا صحة التنجيم لصواب اتفق لواحد، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر [2].

وبناء على هذه القاعدة انتقد الغزالي المتكلمين أو المحدثين الذين أنكـروا على الفلاسـفة وغـيرهم من الطوائـف، دون التمكن من النظر في علومهم، وفهم أغراضهم، ولهذا كان إفسادهم أكـثر من إصلاحهم [3].

وهو يشرح كيفية التدرج في العلوم بأن يبتدئ الطالب بكتاب الله تعـالى، ثم بسـنة رسـوله ﷺ، ثم بعلم التفسـير وسـائر علـوم القـرآن، وكـذلك في السـنة، ثم يشـتغل بـالفروع من الفقـه، دون استغراق العمر في فن واحد منها طلبا للاستقصـاء فيـه. لأن هـذه العلوم آلات ومقدمات، وليست مطلوبة بعينها بل لغيرها [4].

الأصول قبل الفروع:

لأن أصول الشـريعة ومبادئهـا الكـبرى مقدمـة على الفـروع، يقـول الغـزالي ــ عنـد ذكـره لآداب المتعلم ــ: (أن لا يخـوض في فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب، ويبتـدئ بـالأهم فـإذا كـان لا يتسع لجميع العلوم غالبا، فالحزم أن يأخذ من كل شـيء أحسـنه)

---

[1] الإحياء 1/52.
[2] الإحياء 1/52.
[3] المنقذ من الضلال ص110.
[4] الإحياء 1/40.

(1)

وأصل العلـوم وأشـرفها وأعلاهـا وأولاهـا معرفـة اللـه تعـالى والسلوك إليه ـ أو ما يسميه الغزالي بعلم الآخرة ـ باعتباره الأصل الذي يرتبط بمدى العلم بـه كـل التصـرفات السـلوكية في الـدنيا، ويرتبط به المصير الأبدي في الآخرة.

ولكن أهميته مع ذلك في تصور الغزالي لا تعـني النظـر بعين الاحتقار إلى سائر العلوم الشـرعية أو غيرهـا، يقـول الغـزالي: (لا تفهمن من غلونا في الثنـاء على علم الآخـرة تهجين هـذه العلـوم، فالمتكلفون بالعلوم كالمتكلفين بـالثغور والمـرابطين لهـا والغـزاة والمجاهدين في سبيل اللـه، منهم المقاتـل ومنهم الـذي يسـقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم، ولا ينفك أحد منهم من أجر)[2]

ولذلك فإن التفاضيل بين هـذه العلـوم نسـبي، ومعرفـة اللـه تعالى الـتي هي الأصـل الأول لكـل المعـارف لا تحجب عن غيرهـا من العلوم، بل إنها ـ كما رأينا من قبل ـ لا تكمل إلا بهـا، فكـل مـا في الكون من أفعـال اللـه وتقديراتـه، يقـول الغـزالي: (من قصـد الله تعالى بالعلم، أي علم كان نفعه ورفعه لا محالة)[3]

المتفق عليه قبل المختلف عليه:

لاحظ الغزالي أن هدف الكثير من المدارس في عصره كـان متوجهـا نحـو نصـرة المـذاهب والآراء، ولـذلك احتلت المسـائل المختلف فيها الحيز الأكبر من نصيب برامج الدراسة فيها بمختلف المستويات والعلوم، والتوجه لمثل هذا النوع من العلوم ـ كما يرى الغزالي ـ تضييع لمقاصد العلم، وإربـاك لتفكـير المتعلم خاصـة اذا كان الأستاذ المـدرس غـير قـادر على الإجتهـاد للتوفيـق بين الآراء المختلفـة، أو الـترجيح بينهـا، يقـول الغـزالي عنـد ذكـره لآداب المتعلم: (أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمـر عن الإصـغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان مـا خـاض فيـه من علـوم الـدنيا، أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويفـتر رأيـه وييئسه عن الإدراك والإطلاع)[4]

هذا مع المتوجهين إلى العلم والمتخصصين فيـه، أمـا العـوام وأهل الحـرف والصـناعات، فلا ينبغي أن تصـرف هممهم ــ في رأي الغـزالي ــ إلا لحـرفهم وصـناعاتهم، ولهـذا لا ينبغي أن يلقنـوا إلا

[1] المرجع السابق 1/52.
[2] المرجع السابق 1/53.
[3] الإحياء 1/52.
[4] المرجع السابق 1/51.

خلاصة العلم، وما يتعلق منه بالعمل فقط [1].

الموسوعة العلمية مع التخصص:

وهو أن يكون لطالب العلم نصيب عام من كل علم، بحيث يطلع على مقاصده وغاياته ومسائله اطلاعا مجملا من غير تخصص فيه، وبعد ذلك وانطلاقا منه يمكنه التخصص فيما يراه مناسبا له، وهذا لأن العلوم ـ كما يرى الغزالي ـ متعاونة، وبعضها مرتبط ببعض، زيادة على أن النظر في كل العلوم يكسب صاحبة سعة صدر تجعله يتخلص من العداوة غير الموضوعية لها، لأن الناس أعداء ما جهلوا، أو كما قال تعالى حاكيا على حال الكفار: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف:10)[2]

وهذا الرأي يرجع إلى دعوة الغزالي الدائمة إلى احترام كل العلوم، ومحاولة الاستفادة منها، ولو حوى ظاهرها بعض البطلان، ولكنه مع ذلك يضع بعض الضوابط لهذا الطلب الموسوعي، وهي أن يتجنب طالب العلم كل العلوم التي تضر به أو بغيره، كتعلم السحر والطلسمات، وهو تعلم ليس مذموما في حد ذاته، وإنما لما يرتبط به من إضرار بالخلق، يقول الغزالي: (ومعرفة هذه من الأسباب من حيث أنها معرفة ليست مذمومة، ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق، والوسيلة إلى الشر شر) [3]

ومنها علم التنجيم، وقد كان يشمل في عصر الغزالي جانبين:

1 ـ جانب علمي، وهو ما يدرسه علم الفلك، وهو ـ كما يرى الغزالي ـ علم شريف نطق القرآن به كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن:3)

2 ـ جانب تخميني لا فائدة فيه، وهو استنباط العلاقة بين مواقع النجوم وحياة الناس، وضرره كبير على اعتقادات الناس، حيث ينسبون تلك الأحكام إلى النجوم، لا إلى في التدبيرات الإلهية، يقول الغزالي: (إنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة، وأنها جواهر شريفة سماوية، ويعظم وقعها في القلوب، فيبقى القلب متلفتا إليها) [4]

---

[1] إلجام العوام عن علم الكلام ص63.

[2] الإحياء 1/52،51.

[3] الإحياء 1/59.

[4] المرجع السابق 1/29.

ومنها طلب دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها، أو البحث في الأسرار الإلهية ويضرب الغزالي مثلا على إضرار هذه العلوم بأصحابها بالضرر الذي تحدثه اللحوم أو الحلوى للصبي الرضيع، وهو يوجه هذه النصيحة لمن يشتغل بهذه العلوم المذمومة، التي هي ظنون وتخمينات لا دليل عليها يلحقها بالعلم، ولا أثر لها في السلوك بقوله: (لا تكن باحثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها.. واقتصر على اتباع السنة، فالسلامة في الاتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال، ولا تكثر اللجاج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه)[1]

هذه بعض القواعد التربوية التي ذكرها الغزالي، وآثارها الإصلاحية كبيرة، فالعلم النافع يقتضي السبيل الصالح والوسيلة الصحيحة.

ب ـ برامج التعليم:

يقسم الغزالي العلوم بحسب وجوبها الفقهي إلى قسمين:فروض عينية، وفروض كفائية.

أما الفروض العينية، فهي العلوم المتعلقة بمعرفة الضروري من العقائد، ومعرفة كيفية العمل الواجب دون الخوض في تفاصيل ذلك، وهو يختلف باختلاف حال الشخص ووقته.

فمن كان له مال لزمه تعلم ما يجب عليه من زكاة، وإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وهكذا في كل الأفعال والأحوال، فلا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن [2].

والغزالي يرى وجوب بذل هذا النوع من العلم على نطاق واسع بين العامة لارتباطه بالعمل، أما تفاصيل ذلك فهي من الفروض الكفائية التي يتعلق وجوبها بمن تعرض لها من طلبة العلم، ويقسمها بحسب أهميتها وأولويتها إلى أربعة أنواع:

1. الأصول: وهي مصادر التشريع الكبرى من كتاب وسنة وإجماع وآثار.
2. الفروع: وهوما استنبط من المصادر السابقة بطريق التلميح والإشارة وغيرها، وهو إما متعلق بمصالح دنيوية،

---

[1] المرجع السابق 1/30.
[2] الإحياء 1/15.

ويتكفل به علم الفقه، أو بمصالح الآخرة، وهو علم السلوك.

3. المقدمات: وهي العلوم الآلية التي تستعمل في فهم المصادر الأصلية من لغة ونحو وغيرها.
4. المتممات: وهي العلوم المتممة والخادمة للمصادر الأصلية. والتي دعت إليها الضرورة، كتعلم مخارج الحروف والقراءات والعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم، والعلم بالجرح والتعديل، وغيرها من العلوم التي يختلف حكمها باختلاف الحاجة إليها [1].

والغزالي يدعو إلى الإقتصار على ما تمس إليه الحاجة من هذه العلوم دون الغلو في التفريع والتفاصيل، بل إنه يرى أن بعض العلوم استنفذت أغراضها، فلذلك لا ضرورة تدعو إلى بذل الجهد فيها، كحفظ أسامي الرجال (فقد كفيت عنه بما تحمله عنك من قبلك)[2].

ونحب أن ننوه هنا إلى دعوة الغزالي الدائمة إلى العلوم الكونية والعملية، فقد كان من أكبر الأخطاء التي أصابت النظام التعليمي في المجتمعات الإسلامية هو ذاك التفريق بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وانشغالهم بعلوم الدين، وخاصة الفقه أو الكلام مع ترك الكثير من العلوم الضرورية كالطب ونحوه.

ويعبر الغزالي على ذلك متأسفا على هذا التفريق بقوله: (فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحدا يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه، ولا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء)[3]

ولذلك دعا الغزالي إلى هذه العلوم العملية باعتبارها من الفروض الكفائية المضيعة، لأن هذا الكلام غريب في عصر حرف فيه معنى العلم قال الغزالي: (فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الصناعات أيضا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك

---

1) المرجع السابق 1/17،16.
2) الإحياء 1/40.
3) المرجع السابق 1/21.

إليهم، وحرجوا بتعريض أنفسهم للهلاك)[1]

ولأجل هذا نـرى كتب الغـزالي مشـحونة بالإشـارات العلميـة بحيث لا يخلو كتاب من كتبه منها، ولعل ما يبرز عقليته العلمية هو تجنبه لكثير من الأخطاء العلمية المنتشـرة في عصـره والمعتـبرة من البديهيات في ذلك العصر، وخاصة في المراجـع العلميـة الـتي استفاد منها الغزالي تلك الإشارات.

هـذه إشـارة مختصـرة لأهم مـا اقترحـه الغـزالي من بـرامج لإصلاح نظام التعليم، باعتبـاره خطـوة أساسـية في الطريـق على الإصلاح العام.

ثالثا . التزكية

يعتـبر الغـزالي تزكيـة النفس وتطهيرهـا من الأمـراض الـتي تصيبها أساسا من أسس البناء الاجتماعي، لأن المجتمع الصـالح لا يقوم إلا على الأفـراد الصـالحين، والصـلاح لا يتحقـق إلا بالتزكيـة، فلـذلك جعـل الغـزالي تعلم التزكيـة فرضـا من الفـروض العينيـة متعلقـا بكـل المكلفين، يقـول في ذلـك:(وهـذا النـوع من الطب واجب تعلمـه على كـل ذي لب، إذ لا يخلـو قلب من القلـوب عن أسقام لو أهملت تراكمت، وترادفت العلل وتظاهرت)[2]

وقد كانت كتابة الغـزالي في هـذا الشـأن من أروع الكتابـات وأدقهـا وأجمعهـا، بحيث صـارت مرجعـا نسـج على منوالـه المتـأخرون، ويرجـع ذلـك بالدرجـة الأولى إلى اسـتفادته من كتب الصـوفية، وخاصـة كتب الحـارث المحاسـبي وأبي طـالب المكي اللذين أولىا هذا الجانب اهتماما كبيرا، زيادة على تجربتـه الروحيـة التي مر بها أثناء عزلته، إضافة إلى اقتباسه من الفلسـفة وغيرهـا ما رآه مناسبا لذلك.

وسنحاول في هذا المبحث استخلاص تصور الغـزالي لحقيقـة التزكية، ثم لمنهجها وثمراتها.

1 ـ مفهوم التزكية:

لغة:

[1] المرجع السابق 1/16.

[2] الإحياء 3/49.

تتوارد على مادة (زكا) في اللغة العربية المعاني التالية

1 ـ النمو والبركة، ومنه قول الشاعر:

والمال يزكو بك مستكبرا   يختال قد أشرق للناظر

2 ـ الصلاح والتقوى، يقال: رجل زكي، أي تقي صالح.

3 ـ الطهارة، ومنه زكاة المال أي طهارته [1].

اصطلاحا:

يعرف الغزالي التزكية [2] بأنها تطهير القلب عما لا يحبه الله عز وجل [3]، وهي بذلك تشكل شطر الإيمان كما نص الرسول ﷺ على ذلك بقوله: (الطهور شطر الإيمان)[4]، وهو ينفي أن يكون المراد بالحديث مجرد تطهير الظواهر وتنظيفها بإفاضة الماء وإلقائه عليها، مع تخريب الباطن وبقائه مشحونا بالخبائث والأقذار، بل إن المراد بالتطهير في الحديث ـ كما يفهمه الغزالي ـ يشمل أربع مراتب تشكل بمجموعها حقيقة التزكية الشاملة وتلك المراتب هي:

1. تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات، كما نصت على ذلك الأحكام الفقهية والسنن الشرعية.
2. تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام والمعاصي الظاهرة.
3. تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة والصفات المهلكة.
4. تطهير السر عما سوى الله عز وجل [5].

وكل هذه المراتب تشكل شطر العمل أو الصفة التي تتعلق بها، فهي البذور للثمار الناتجة عنها، فلا تصح الصلاة إلا بالطهارة الحسية، ولا تعمر الظواهر بالأخلاق والآداب إلا بعد تطهيرها من المعاصي والآثام، ولا يتحلى القلب بحلة التقوى إلا بعد تهذيبه وصقله من أخلاقه المذمومة، ولا ينكشف جلال الله وعظمته إلا بعد تطهير السر عما سواه عز وجل.

وهذه المراتب كلها تكون مقامات الإيمان التي يتدرج في سلوكها المؤمن، ولكل مقام طبقة، ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا بمجاوزة الطبقة السافلة، (فلا يصل إلى طهارة السر عن

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، (مادة زكا)، 14/358 رقم 9023.

[2] يطلق عليها الغزالي كعادته في التكثير من المصطلحات (رياضة النفس) و(تهذيب الأخلاق) و(معالجة أمراض القلب)، انظر: الإحياء 3/48.

[3] الأربعين في أصول الدين ص78.

[4] مسلم، الجامع الصحيح، (كتاب الطهارة)، 1/203 رقم 223.

[5] الإحياء 1/126.

الصفات المذمومة، وعمارته بـالمحمودة مـا لم يفـرغ من طهـارة القلب عن الخلق المذموم، وعمارته بالخلق المحمود)[1]، فالتزكيـة إذا وبهذا الإعتبار، هي تدرج في مراتب الكمال الإنساني، بتطهـيره من كل سيء إلى حقيقته وفطرته التي جبل عليها.

وفطرة القلب الإنساني وخاصيته تكمن ـ كما يرى الغزالي ـ في استعداده من حيث جوهره لمعرفة الله تعالى، وهذه المعرفـة تتعلق بالقلب لا بالجوارح (فالقلب هو العالم بالله، وهـو المتقـرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى اللـه، وهـو المكاشـف بما عند الله ولديه، هو المقبول عند اللـه إذا سـلك من غـير اللـه، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله)[2]

ولكن لماذا احتاج القلب الإنساني إلى هذا التطهير؟ ولم كان هذا التطهير مقدمة للتعرف على الله؟

يجيب الغــزالي على هــذا الســؤال بــأن ازدواج الــتركيب الإنســاني من جســم مظلم كــثيف مــركب، ومن نفس جوهريــة مفردة لا تشابه هذا العالم [3] استدعى وجود قـوى حيوانيـة تتعلـق بلطيفته الروحانية الربانية، وتلك القوى نوعان:

القوى المحركة:

وهي القوى الباعثة أو العاملة لأي فعل، والباعثة إما أن تبعث إلى جـذب نفـع أو دفـع ضـر، فالباعثـة إلى جلب النفـع تسـمى (شهوة)، والباعثة إلى دفـع الضـر تسـمى (الغضـب) والعاملـة هي المحركة والمطبقـة لمـا تمليـه الإرادة، فـإن كـانت الإرادة حازمـة انبعثت وان كانت مترددة تـرددت، والإرادة تتبـع القـوة الثانيـة من القـوى الإنسـانية وهي قوتـه الإدراكيـة العلميـة، يقـول الغـزالي: (الإرادة لا تنهض من مكانها ولا تخرج من مكامنها ما لم يأت إليهـا رسـول العلم، فـإذا أتى وجـزم الحكم انبعثت الإرادة، وإذا جـزمت الإرادة الحكم انبعثت القـدرة بتحريـك الأعضـاء، فلا تجـد محيصـا وخلاصا من الامتثال والارتسام بموجب رسمها، وإذا جزمت القــدر الحكم تحركت الأعضاء، بحيث لا تجد محيصا من الحركة)[4]

القوى المدركة:

وهي القوة المتعرفة على العالم الخارجي، ويقسمها الغزالي

---

[1]) الإحياء 1/126.
[2]) المرجع السابق 3/2.
[3]) الرسالة اللدنية ص101.
[4]) معارج القدس ص38.

إلى مـدركات ظـاهرة، وهي الحـواس الخمس، وباطنـة هي قـوة الخيال والحفظ والحس المشترك والتفكر والتذكر [1].

وبما أن أعيان هذه القوى مستعدة لكـل مـا يحـل بهـا سـواء كان في مصلحتها أو مضـرتها احتـاجت إلى حسـن عنايـة وتـأديب، كما احتاجت الحركات النباتيـة إلى تشـذيب، والحركـات الحيوانيـة إلى تهذيب، وذلك التأديب لا يتحقق إلا بالتأييد والتسديد والتعريف.

1. أما **التأييد** فهـو اختيـار الخـير من الحركـات الفعليـة دون الشر.
2. وأما **التسديد** فاختيار الصدق من الحركـات القوليـة دون الكذب.
3. وأما **التعريف** فاختيار الحـق من الحركـات الفكريـة دون الباطل [2].

ولكن هـذه الأعمـال الثلاثـة لا تتحقـق إلا بوجـود قـوى تفـوق القوى الحيوانية، ولذلك أيد القلب الإنسان بجند ربـاني يعينـه على تأديب تلك القـوى وتلـك الجنـود هي:(العلم والحكمـة والتفكـر)[3]، فإذا استعان الإنسان بـذلك الجنـد حصـلت التزكيـة، ونـال ثمارهـا، وكان من أهل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس:9) وإذا أهملهـا كـان من أهـل قولـه تعـالى: ﴿ وَقَـدْ خَـابَ مَنْ دَسَّـاهَا ﴾ (الشمس:10)[4]

ولتوضيح ضرورة التزكية وأثرهـا في المحافظـة على حقيقـة الإنسـان وتوازنـه يضـرب الغـزالي أمثلـة كثـيرة عن علاقـة قلب الإنسان بالقوى المودعة فيه.

ومن تلك الأمثلة تشبيه العقل، وهو الجنـد الربـاني، بالصـياد، وتشبيه الشهوة بالفرس، والغضب بكلب الصيد، فإن كـان الصـياد حاذقا، وفرسه مروضا، وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح (أمـا إن كان هو في نفسه أخرق، وكان الفرس جموحا، والكلب عقورا، فلا فرسه ينبعث تحته منقادا، ولا كلبه يسترسـل بإشـارته مطيعـا، فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال مطلبه)[5]

ثم يشرح هذا المثال بأن خرق الفارس هو جهله وقلة حكمته وضعف بصيرته، وجماح الفرس هو غلبة الشهوة، وعقر الكلب هـو

---

[1] الإحياء 3/6.

[2] معارج القدس ص39.

[3] الإحياء 3/6.

[4] المرجع السابق 3/49.

[5] المرجع السابق 3/7.

غلبة الغضب واستيلائه.

ولعل الغزالي يقصد بالصيد في هذا المثال هو تلك المعـارف الإلهية، لأنها المقصد الأصلي من السلوك التطهيري، وللغزالي في ذلك مثال يكثر من استعماله، هو تشبيه القلب الإنسـاني بـالمرآة، وبمـا أن من أسـباب عـدم انكشـاف الصـوة في المـرآة الكـدورة والخبث والصـدأ العـالق بهـا، فكـذلك قلب الإنسـان لا تتجلى فيـه صور الحق مادام ملطخا بأرجـاس المعاصـي والـذنوب، يقـول في ذلك: (فالقلب في حكم المرآة، قـد اكتنفتـه هـذه الأمـور المـؤثرة فيه، أما الآثار المحمودة فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا حتى يتلألأ فيه جلية الحـق، وينكشـف فيـه حقيقـة الأمـر المطلـوب في الدين، وأما الآثار المذمومـة فإنهـا مثـل دخـان مظلم يتصـاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يـتراكم عليـه إلى أن يسـود ويظلم، ويصـير بالكلية محجوبا عن الله تعالى)[1]

ويمكن تلخيص تصور الغزالي للتزكية ـ انطلاقـا ممـا سـبق ـ **بأنهـا الطريـق الـذي يسـلكه المـؤمن لتحقيـق الكمـال المطاق، وذلك الطريق كما يراه الغزالي صعب ومجهـد، فكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه، وبعدت غايته وكثرت عقباته** [2].

2 ـ منهج التزكية:

ينحصـر منهج التزكيـة عنـد الغـزالي في سـبيلين، لا تتحقـق التزكية إلا باجتماعها معا، هما كما يعبر الغزالي: (**معجـون العلم والعمل**)[3]، لا يغني أحدهما عن الآخر.

أ ـ المنهج العلمي:

بنـاء على إدراكنـا لتصـور الغـزالي للنفس الإنسـانية، فـإن الصراع فيها على الصعيد الفكري دائم بين الحـق والباطـل، فقلب الإنسان ـ كما يصوره الغـزالي ـ مثـل قبـة مضـروبة تنصـب إليهـا الأحوال من كل باب، أو هـو كهـدف تـرمي عليـه السـهام من كـل جانب، وبالنسبة لمثـال المـرآة، هـو كمـرآة منصـوبة تجتـاز عليهـا أصناف الصور المختلفة، فتتراءى فيها صورة بعد صورة، ولا تخلـو عنها الصور أبدا[4].

---

[1] المرجع السابق 3/12.
[2] الإحياء 1/126.
[3] الأربعين في أصول الدين ص94.
[4] الإحياء 3/26.

وبما أن القوة المحركة ـ كما عرفنا من قبـل ــ تخضـع لتـأثير القوى المدركة فإن لتلك الصور والآثار دورها السلوكي، فالخيالات الحاصلة في النفس ــ مثلاــ تبقى، وينتقـل الخيـال من شـيء إلى شيء آخر، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حـال آخر.

ولكن أهم تلـــك الآثـــار وأخطرهـــا في نفس الـــوقت هي (الخواطر) ويعني بها الغـزالي مـا تدركـه النفس، إمـا على سـبيل التجدد أو على سـبيل التـذكر، فالخـاطر هـو الـذي يحـرك الرغبـة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية [1].

وتلك الخواطر تنقسـم إلى مايـدعو للخـير والصـدق والحـق، وتسـمى إلهامـا، ويسـمى الـداعي إليهـا ملكـا، ويسـمى اللطـف الرباني الذي يتهيأ به القلب لذلك توفيقـا، أولى إلى مـا يـدعو إلى الشر والكذب والباطل، ويسمى وسواسـا، ويسـمى الـداعي إليهـا شيطانا، ويسمى الاستعداد له إغواء وخذلانا.

والغــزالي يســتند في تصــويره للتنــازع الــدائم بين الإلهــام والوســواس لقولــه تعــالى: ﴿الشَّـيْطَانُ يَعِـدُكُمُ الْفَقْـرَ وَيَـأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَـاءِ وَاللَّهُ يَعِـدُكُمْ مَغْفِـرَةً مِنْـهُ وَفَضْـلًا وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:267)، وقولـه ﷺ: (قلب المـؤمن بين أصـبعين من أصـابع الله يقلبها كيف يشاء)[2]

وهذا التجاذب دائم في النفس الإنسـانية، وباعتبـار ميلهـا إلى جـانب من الجــوانب بكــون ترقيهــا أو تــدنيها، وتكــون زكاتهــا أو تدنسها، والنفس الفطرية مستعدة لقبول كل ذلـك قبـولا متسـاويا لا يترجح أحدهما على الآخر [3]، وترجيح الإلهـام ترجيحـا كليـا ينفي الخواطر السيئة والوساوس الرديئـة هـو مـا يعـبر عنـه الشـارع بـ (النفس المطمئنة)[4]، وهي بداية تحقيق الكمال الإنساني.

وأهم المرجحات المعرفية لجانب الإلهام هي معرفة الإنسـان لنفسه باعتبار التزكية متعلقة بها، وتلك المعرفة هي اجتمـاع العلم بالكمالات الممكنـة مـع الإطلاع على النقص الموجـود، وبـالازدواج بين هاتين المعرفتين تتحقق التزكية.

---

1) المرجع السابق 3/27.

2) الترمذي، السنن،(كتاب القدر)، 4/498،رقم 2066.

3) الإحياء 3/27.

4) وذلـك في مثـل قولـه تعـالى: ﴿ يَاأَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ (الفجر: 30 ـ 32). انظر: الرسالة اللدنية ص103..

أما **المعرفة الأولى**، فهي علم الإنسان بنفسه وخصائصـها الجبلية، وما فطرت عليه من طباع، وما مكنت منه قوى، فإن ذلك كله حاث على النهوض به من كبوتـه، والـترفع من أن يسـقط في (أسفل سافلين) بعد أن رفعه الله إلى (أحسن تقويم)

يقول الغزالي مبينا قيمة هذه المعرفة: (من عرف نفسه فقد عرف ربه، وعرف صفاته وأفعاله، وعرف مراتب العالم، ومبدعاته ومكوناته، وعـرف الملائكـة ومـراتبهم، وعـرف لمـة الملـك ولمـة الشيطان والتوفيق والخذلان، وعرف رسالة النبوة)[1]

وقد ألف الغزالي في هذا النـوع من المعرفـة مجموعـة كتب منهـا: (معــراج القــدس في مــدارج معرفــة النفس) و(معــراج السالكين) و(كيميـاء السـعادة)، بالإضـافة إلى كتـابين في الإحيـاء صدر بهمـا ربـع المهلكـات همـا: (شـرح عجـائب القلب) و(رياضـة النفس)

أمـا المعرفـة الثانيـة فهي المنطلـق السـلوكي الأول، فعجب الإنسـان بنفسه وشـعوره بكمالـه هـو الحجـاب الأكـبر الحائـل بين الانسان والتحقق بالكمالات المهيأ لهـا، ولـذلك قـال ابن مسـعود: (الهلاك في اثنتين: القنـوط والعجب) [2]، وقـد علـق الغـزالي على هـذا الجمـع بينهمـا بقولـه: (السـعادة لا تنـال إلا بالسـعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقـد أنـه قـد سـعد، وقـد ظفـر بمـراده)[3]، فـالموجود لا يطلب لوجـوده، والمحال لا يطب لاستحالته.

ولهذا، فإن أول درجات العلاج هي تلك اليقظة الروحيـة الـتي تحصل لصاحبها فتريـه حقيقـة نفسـه، (وإذا أراد اللـه بعبـده خـيرا بصـره بعيـوب نفسـه)[4] ولكن البصـيرة إن لم تكن نافـذة، وكـان النظر إلى العيوب ضعيفا احتاج ذلك إلى أطـراف خارجيـة تبصـره بتلك العيوب، ويرى الغزالي لذلك أربعة أطراف هي:

الشيخ المربي:

وهو ضروري سواء للدلالة على عيوب النفس أو الإرشاد إلى طرق علاجها، وهو في رأي الغزالي أشد ضـرورة من التلميـذ إلى الأستاذ، لأن العلوم قد يظفر بها بالـذكاء والمـذاكرة، ولكن عيـوب

---

[1] معارج القدس في مدارج معرفة النفس ص7.

[2] الإحياء 3/369.

[3] الإحياء 3/369.

[4] المرجع السابق 3/64.

النفس ودقـائق آفاتهـا لا ينتبـه لهـا إلا من خـير ذلـك ومارسـه، والغزالي يرى ندرته كما يرى ضرورته فهو (نور من أنوار النبي ﷺ نادر أعز من الكبريت الأحمر)[1]

وقد اتفق على اشـتراط الشـيخ المـربي كـل من تحـدث في التزكية، سواء كان من الصوفية أو غيرهم، ولا بـأس أن ننقـل هنـا نصا جميلا لـ (عبد الوهاب الشعراني) يحدثنا فيه عن نفسه كشاهد لضرورة الشيخ يقول في (لطائف المنن): (وكانت صور مجاهداتي لنفسـي من غـير شـيخ أني كنت أطـالع كتب القـوم، كرسـالة القشيري وعوارف المعارف والقوت والإحياء، ونحو ذلـك، وأعمـل بما ينقدح لي من طريق الفهم، ثم بعد مـدة يبـدو لي خلاف ذلـك، فأترك الأمر الأول، وأعمل الثاني وهكذا، فكنت كالذي يدخل دربـا، لا يدري هـل ينفـذ أم لا؟ فهـذا مثـال من لا شـيخ لـه، فـإن فائـدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد)[2]

وإن كـان الطب الحـديث يحـذر من علاج الإنسـان لنفسـه بنفسـه، ولـو قـرأ كتب الطب، ويلح على ضـرورة الطـبيب الـذي يكشـف خفايـا العلـل ويطلـع على مـا دق من الأمـراض، (فـإن الأمراض القلبية والعلل النفسـية أشـد احتياجـا للطـبيب المـزكي، لأنها أعظم خطرا، وأشد خفاء، وأكثر دقة)[3]

وقد وضـح الغـزالي الآداب الـتي بهـا يسـتطيع مريـد التزكيـة الاسـتفادة من الشـيخ المـربي، ومن تلـك الآداب أن لا يجادلـه أو يشتغل بالاحتجاج معـه في كـل مسـألة، لأن ذلـك قـد يـدعوه إلى إساءة الأدب معه، وهو حائل بينه وبين إمكانية الاستفادة منه، وأن يعمل ما يأمره بـه من العمـل قـدر وسـعه وطاقتـه، ولـو لم يفهم مـراد الشـيخ من ذلـك، لأن وضـيفة الشـيخ هي وظيفـة الطـبيب، والمريض لا يسـأل طبيبـه ــ مـادام يثـق في كفائتـه ــ عن أسـرار وظيفته [4].

وينبه الغزالي هذا الشيخ الذي يعالج قلـوب المريـدين بـأن لا يهجم عليهم بالرياضـة والتكـاليف في فن مخصـوص، في طريـق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، ولذلك ينبغي (أن ينظـر

---

[1] رسالة (أيها الولد)، ص134.

[2] عبـد الوهـاب الشـعراني، لطـائق المنن والأخلاق، مصـر: المطبعـة الميمنية، 1321ه، 1/48 ـ 49.

[3] عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ط4، عمان: المطبعة الوطنية، 1401ه ـ 1981م، ص48.

[4] رسالة (أيها الولد) ص135.

في مرض المريد في حالـه وسـنه ومزاجـه ومـا تحملتـه بنيتـه من الرياضة، ويبني على ذلك رياضته)[1]

ويضرب الغزالي الأمثلـة الكثـيرة على نمـاذج علاج المشـايخ لمريديهم، ومن ذلك أن المريد إذا كان مبتدئا جاهلا بحدود الشرع، فعليه أن يعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبـادات، وإن كـان مشغولا بمال حـرام أو مقارفـا لمعصـية يـأمره أولا بتركهـا، (فـإذا تزين ظـاهره بالعبـادات، وطهـر عن المعاصـي الظـاهرة جوارحـه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليفطن لأخلاقـه وأمـراض قلبـه)[2]، ثم يعالجه ـ انطلاقا من ذلك ـ مما يراه مناسبا لحاله.

الصحبة الصالحة:

ولها دور كبـير في التنبيـه للعيـوب، أو في المـذاكرة للتطهـر منها، وقد عبر الغزالي عن ذلك بقوله:(.. أن يطلب صـديقا متـدينا نصيرا، فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فمـا كـره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهر ينبهه عليه)[3]

فليست هـذه الصـحبة التربويـة صـحبة مداهنـة أو تغـاض عن العيوب، وإنما هي صحبة تنظيف وتطهير وإصلاح، والغـزالي يجـدد للصـاحب الصـالح خمس خصـال، وهي: (أن يكـون عـاقلا حسـن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريصـا على الـدنيا)[4]، فمثـل هـذا الصاحب هو الذي يمكن الإستفادة منه في هذا المجال.

الأعداء:

لأن العدو يبحث عن عيوب عدوه وينبهـه إليهـا، ومـع أن ذلـك من العدو شماتة أو حسد، وفيها من المبالغة والتضخيم ما فيهـا إلا أن السـاعي لإصـلاح نفسـه لا يلتفت إلى ذلـك، وإنمـا ينظـر إلى صدق ما قيل في حقه، لأن مساوئ الأخلاق (حيات وعقـارب، فلـو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربـا لتقلـدنا منـه منـة وفرحـا بـه، واشتغلنا بإزالة العقرب، وإبعادهـا وقتلهـا دون الالفتـات إلى كونـه صديقا أو عدوا)[5]

المخالطة:

وهي طريق للعلم بالعيوب من جهتين:

---

[1] الإحياء 3/61.

[2] الإحياء 3/61.

[3] المرجع السابق 3/64.

[4] الإحياء 2/171.

[5] المرجع السابق 3/64.

1 ـ أن كثيرا من العيوب لا تظهر إلا بالمخالطة، (كل غضـوب أو حقـود أو حسـود إذا خلا بنفسـه لم يترشـح منـه خبثـه)، ويشـبه الغزالي ذلك بالدمل الممتلئ بالصديد، قد لا يحس صاحبه بألم مـا لم يتحرك، أو يمسه غيره، فإن لم يكن له يد تمسه، أو عين تبصر صورته، لم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة [1].

2 ـ أ ن يرى من عيوب غيره عيوب نفسه، فيكون قصده من رؤية عيوب غيره الإستفادة، لا الشماتة أو التكبر، فلو ترك النـاس ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب، ويروي الغـزالي في ذلك عن عيسى عليه السلام قوله ـ عندما سأل من أدبك؟ ـ :(مـا أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته)[2]

ب ـ المنهج العملي:

العمـل هـو الـركن الثـاني في العلاج النفسـي، وهـو نتيجـة طبيعيـة لاسـتقرار معـاني العلم في النفس والتـأثر بهـا والانفعـال لمتطلباتها.

ولا نستطيع ـ هنا ـ أن نحصـي كـل الأعمـال الـتي يقـوم بهـا طالب التزكية، فإن لكل مرض علاجه الخـاص بـه، والربـع الثـالث من الإحياء قد حوى كل ذلـك، وبتفصـيل شـديد، ولكن جملـة ذلـك تعود إلى ما يمكن التعبير عنه بـ(مضـادة الصـفات)، وهي معالجـة كل صفة نفسـية بضـدها، فيعـالج مـرض الجهـل بـالتعلم، ومـرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، وهكذا [3].

وهو يقدم لذلك بتشبيه العلل الباطنة بالعلل الظاهرة، فعـالم الشهادة عنده إسـقاط ونمـوذج من عـالم الغيب، يقـول الغـزالي: (فكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضـدها، فـإن كـانت من حـرارة فبـالبرودة، وإن كـانت من بـرودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها)[4]

وهو يطبق هذه القاعدة على كـل الأمـراض، فـالعلاج العلمي للحسد أن يعـرف طـالب التزكيـة حكم الحسـد، ومـا يتقاضـاه من قول وفعل، فيخالفه ويعمل بنقيضه، فيثني على المحسود، ويظهر الفـرح بنعمتـه، ويتواضـع لـه، وبـذلك يعـود المحسـود صـديقا لـه،

---

[1] المرجع السابق 2/241.
[2] المرجع السابق 2/242.
[3] الإحياء 3/61.
[4] الإحياء 3/61.

فيزول عنه الحسد، ويتخلص من الإثم والألم [1].

والعلاج العملي للرياء أن يعود نفسه إخفـاء العبـادات وإغلاق الأبـواب دونهـا، كمـا يغلقهـا على الفـواحش حـتى يقنـع بعلم اللـه وإطلاعه، ولا تتشوف نفسه لغير الله [2].

وهذه الأعمال التي يقترحها الغزالي لمعالجـة العلـل الباطنـة صعبة، والصبر عليها شاق، ولكن دون الشفاء مرارة الدواء [3].

وهو يذكر الأمثلة الواقعية الكثـيرة على ذلـك تنشـيطا للهمم، وحثا للإرادة، فقد حكى عن بعضـهم أنـه كـان لأجـل تعويـد نفسـه على الحلم يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس، ويكلف نفســه الصــبر، ويكظم غيظــه، حــتى صــار مضــرب المثــل في الحلم، وبعضهم كـان يستشـعر في نفسـه الجبن، فـأراد أن يحصـل خلـق الشجاعة، فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج [4].

وهذا يذكرنا بـ (ديموستين)[5] خطيب أثينا الكبير الذي شـيدت له التماثيل تعظيما له مع أنه ولد عيبا ضعيف الجسد لا يقوى على الكلام، ولكنه كـان يعمـل للتغلب على مـا فيـه من نقص طـبيعي، فكان يخاطب البحر، وفمه مملوء بالحصاء، أو يخطب، وهو بصـعد الجبل، وكان يعيد خطبه مرارا على نفسه أمام المرآة [6].

وهنــا يفنــد الغــزالي شــبهة قــد تغــري النفس فتمنعهــا من المجاهدة التي ترهقها وتحول بينهـا وبين ملـذاتها قـائلا: (إذا كـانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه، فكيف لا تستلذ الحق لــو ردت إليه مدة، والتزمت المواظبة عليه)[7]. وذلك لأن ميــل النفس إلى المعاصــي خــارج عن الطبــع، أمــا ميلهــا إلى الحكمــة، فهــو مقتضى القطرة، وهو كالميل إلى الطعام والشراب.

وهو لذلك ينقل من غـرائب طبـاع النفس وشـذوذاتها الأمثلـة

---

[1] الأربعين في أصول الدين ص95.

[2] الإحياء 3/312.

[3] المرجع السابق 3/61.

[4] المرجع السابق 3/62.

[5] هو ديموستين (384 ـ 322ق.م)، سياسي وخطيب يوناني، حـرض أثينـا على مقاومة فليبس المقـدوني، انظـر: منـير البعلبكي، معجم أعلام المـورد، ص197.

[6] انظر: أحمد حسين، الطاقـة الإنسـانية،ط3، بـيروت: المكتبـة العصـرية 1970،ص249 . وفي هذا الكتاب النماذج الكثيرة عما تفعله الإرادة الإنسانية إذا ما وجهت توجيها قويا نحو غاية معينة، بحيث تكاد تأتي بالمعجزات.

[7] الإحياء 3/59.

الكثيرة، مبينا كيف أصبحت نتيجة الممارسة مستلذة لدى أصحابها حتى أنه يجري بين (الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء)[1]

ويساعد على العناء الحاصل من هذه المجاهدة مشاهدة أصحاب الفعال الجميلة، فهم قرناء الخير، وإخوان الصلاح، (اذ الطبع يسرق من الطبع الخير والشر جميعا)[2]

وبالإضافة إلى الاعمال السابقة المتعلقة بالجوارح، يرى الغزالي ضرورة تأييدها وتأسيسها على عمل العقل، وهو التفكير، فليست ثمرة التفكير العلوم وحدها، بل إن جميع الأعمال والأحوال من ثمراته، وذلك لأن العلم إذا استقر في القلب تغير بالضرورة حاله، ولذلك يستخدم الغزالي هذا العلاج العلمي في كل أمراض النفس:

فعلاج الغيبة أن يتفكر في الوعيد الوارد فيه: (فينظر في قلة حسناته وكثرة غيبته، وأنه ينتهي إلى إفلاسه على القرب، فإن كان فيه عيب، فيشتغل بنفسه عن غيره)[3]

وعلاج العجب أن يتفكر، ويقول في نفسه: (إنما أعمل بيدي وجارحتي، وقدر إرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي، وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فكي أعجب بعملي ونفسي؟)[4]، وهكذا في علاج كل الأمراض النفسية.

وقد كتب الغزالي خطابا طويلا في توبيخ النفس حوى الكثير من مجاري التفكير ضمنه كتاب (المراقبة والمحاسبة) من الإحياء[5]، وهو في منتهى البلاغة والجمال الأدبي يجعلنا نؤيد ماعبر عنه د.زكي مبارك بقوله:(والذي يعبر بنظره كتاب الإحياء والأربعين وكتاب المنهاج يرى البدائع الفنية وألوان البيان في طرق الترغيب والترهيب، وهو يجيد في التخييل حتى يغلب القارئ على أمره، ويشككه في نفسه، ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد)[6]، ولكنه يعقب على ذلك بقوله:(وهذا وجه الخطر في مؤلفات

---

[1] الإحياء 3/59.
[2] المرجع السابق 3/60.
[3] الأربعين في أصول الدين ص89.
[4] الإحياء 4/430.
[5] المرجع السابق 4/416 ـ 422.
[6] د. زكي مبارك، الأخلاق عن الغزالي، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية ص102.

الغزالي)[1]

وهو تعقيب غير موضوعي لأن دراسة الإنسان لنفسه ومراجعة أفكاره وأعماله هي السبيل الوحيد للوصول إلى الكمال الإنساني المنشود.

3 ـ ثمار التزكية:

لعل أهمل ثمار التزكية التي يشير إليها الغزالي، ويتفق عليها كل الصوفية، بل كل من تحدث في التزكية هي (معرفة الله) والأحوال الناتجة عنها، وبما أن الحديث عن ذلك سبق في مبحث التصوف[2]، فإنا سنقتصر ـ هنا ـ على الثمار العملية للتزكية، خصوصا ما يتعلق منها بالجانب الاجتماعي.

أ ـ الأخلاق:

يعرف الغزالي الخلق بأنه (هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة خلقا سيئا)[3]

ويرد الغزالي على من قصر الخلق على الأفعال بأن الجوارح المؤدية لتلك الأفعال تستوي عندها كل التصرفات سواء كانت حسنة أو قبيحة، ومن ثم فقد تبرز عنها بعض التصرفات الحسنة على سبيل الندرة، أو بباعث الرياء والسمعة، وذلك مناقض للخلق الحسن، ويضرب مثالا على ذلك بالسخاء، فرب شخص خلقه السخاء، ولا يبذل بسبب فقد المال أو لمانع، وآخر خلقه البخل، وهو يبذل بباعث من رياء غيره [4].

ومن هنا فإن الظروف المحيطة مهما تعقدت لا تؤثر في صاحب الخلق الحسن، لأن خلقه هيئة راسخة في نفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بذلك في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب:39) وقوله تعالى: ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾(المائدة:56)

وعدم القدرة على تصور الأساس الإيماني للخلق الذي جر

---

[1] المرجع السابق، ص102.

[2] راجع هذه الرسالة، ص116 ـ 119.

[3] الإحياء 3/53.

[4] الإحياء 3/53.

الغزالي إلى التعامل النفسي معه هو الذي دفع البارون كارادوفو إلى قوله: (إن علم الأخلاق عند الغزالي هو علم نفسي خلقي على الخصوص، ومن الجلي أنه مدين لعلم الأخلاق لدى اليونان قليلا، ولا يكاد يكون أقل من هذا على الراجح اقتباسه شكلا بالتعليم الخلقي المداول لدى النصارى في ذلك الحين)[1]

ومع أنه يقر بعدم وجود الدليل الذي يكشف له هذه المنابع إلا أنه يمضي كسائر المستشرقين ينسب كل منقبة في الإسلام إلى أصل يوناني أو نصراني.

انطلاقا من تصور الغزالي للخلق أخذ يحلل الصورة الباطنة التي هي مصدر السلوكيات الظاهرة إلى مكوناتها الأساسية مسقطا كعادته الباطن على الظاهر، يقول في ذلك:(وكما أن حسن الصوة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك للباطن أربع أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق)[2]، وهذه الأركان الأربعة هي: قوة العلم وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاثة.

وأمهات الأخلاق وأصولها الصادرة عن تهذيب تلك القوى الأربعة هي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، (ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعد متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق، فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ) [3]

ب ـ الآداب:

والغزالي يقسمها إلى نوعين:

الآداب الظاهرة:

ويعرفها بأنها (ضبط الحركات بموازين المعاني)[4]، والربط بين الحركات والمعاني عند الغزالي ــ هنا ــ هو نفسه الربط بين الظاهر والباطن في كل القضايا التي يبحث فيها سواء كانت عقدية أو نفسية أو صوفية، فإن الظاهر هو عنوان الباطن، والباطن ـ هنا ـ هو تلك المعاني التي تعبر عن أرواحها أجسام الحركات، وهنا تختلف الآداب عن الأخلاق، فالأخلاق تظهر عن

---

[1] البارون كارادوفو، الغزالي ص130.

[2] الإحياء 3/53.

[3] الإحياء 3/55.

[4] المرجع السابق 1/142.

طريق الأفعال المبينة للهيئة الراسخة، وهي تختلف من حالة إلى حالة، أما الآداب فأفعالها مضبوطة ومقيدة بموازين خاصة، هي موازين المعاني.

وبما أن الناس يختلفون في إدراك تلك المعاني، وعوامهم لا يدركونها أصلا، والعلماء أيضا يختلفون في ذلك، فالعقول مختلفة، واعتبارات النظر مختلفة، فلذلك لا بد من ضابط يوحد تلك الحركات، وذلك الضابط هو (النبي المعصوم) لعلمه الكامل بموازين المعاني.

ولذلك فإن الآداب الظاهرة عند الغزالي لا تتحقق إلا بالاقتداء التام بالرسول ﷺ في جميع الحركات، يقول الغزالي: (أعلم أن العالم لا يكون وارثا للنبي ﷺ إلا اذا اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا درجة واحدة هي درجة النبوة، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والمورث)[1]

وقد جمع الغزالي الكثير من الآداب الظاهرة في بعض رسائله وكتبه، ولعل أهمها وأصلحها للعامة بحكم صغر حجمها وسهولة أسلوبها: (بداية الهداية)، و(الأدب في الدين) أما إحياء علوم الدين فملئ بتفاصيل: آداب الأكل والشرب، والسفر والزواج والعزلة والخلطة وطلب العلم والتجارة والتكسب... حتى آداب من سرق متاعه، أو ضاعت ضالتة، وكل أدب منها مرفوق بالنصوص الحاثة والآثار الباعثة ممتزجة بتوجيهات الغزالي وعظاته، مما يجعل حركات الإنسان جميعا مقيدة بالموازين الشرعية، فبذلك التقييد يتحقق الكمال الإنساني، فـ (الاسترسال مهملا كما يتفق سجية البهائم)[2]

ولكن هذا التحديد الذي لم يكن دور الغزالي فيه إلا استنباطه من الشريعة وإخراجه للناس لم يعجب زكي نجيب محمود الذي قال: (قل ما شئت عن الإمام الغزالي في قوة حجته وفي قدرته القادرة على التحليل، وفي سعة أفقه وغزارة علمه وحضور بديهته، وفي عقلانية نظرته فلن تجاوز الحق، ولكن ذلك كله لا ينفي عنه أنه استخدم تلك القوة والقدرة والرسوخ في أن رسم صورة تفصيلية للمسلم، كيف ينبغي له أن يعيش ليساير ما يقتضيه الشرع.. فكان كأنما وضع لحياة المسلم قالبا من حديد لم

---

[1] المرجع السابق 1/142.
[2] المرجع السابق 1/142.

يعد بعدها قادرا على أن يتحرك بتلقائية الإنسان المفكر الحر)[1]

مـع أن الالـتزام بتلـك الآداب والتقيـد بهـا هـو الـذي أخـرج العبـاقرة الـذي يشـهد لهم زكي نجيب محمـود نفسـه، وأمـا الاسترسال مهملا ـ كما نعيش الآن ـ فمن أخرج لنا؟!

الآداب الباطنة:

ويقصد بها الغزالي ما تستشعره النفس عند أدائها لأي عمـل سواء كان عبادة أو غيرها، لأن القصـد من تلـك الظـواهر المـؤداة انسجام النفس معها والتحقق بها، وكما عبرنا في الآداب الظاهرة من الحركات إلى معانيها، فالعبور من الباطن أو الروح أو المعـنى إلى الظاهر أو الجـوارح أو الحس، وفي كـل ذلـك يتوحـد الإنسـان بتوحد سلوكه وتوجهه واهتمامه، وفي ذلـك التوحـد يتحقـق معـنى الإسلام.

والغـزالي يفصـل الآداب الباطنـة، ومـا ينبغي أن تستشـعره النفس المؤمنة في كل تصرفاتها، ويأتي في ذلك أحيانا بـالغرائب، فمن آداب المتصـدق مثلا أن يعتـبر الفقـير محسـنا إليـه لقبولـه صدقته، وعلامة ذلك (أن يقدر أن الفقير لـو جـنى عليـه جنايـة، أو مالأ عدوا له عليه مثلا، هل كان يزيد استنكاره واسـتبعاده لـه على استنكاره قبل التصدق؟)[2]

وقد ألف الغزالي زيادة على ما في الإحياء من دقـائق الآداب الباطنة رسالة خصـها بهـا سـماها (منهـاج العـارفين) بين فيهـا مـا ينبغي استشعاره عند كـل سـلوك عـادي، فعنـد اللبس مثلا (اذكـر محبة الله الستر على عباده، فلا تفضح أحدا من خلقه بعيب تعلمه منـه، واشـتغل بعيب نفسـك، فاسـتره بـدوام الاضـطرار إلى اللـه تعالى في تطهيره) [3]، وهكذا في كل حركة من الحركات العادية.

رابعا ـ الروابط الاجتماعية

تعرضنا في الأسس السابقة إلى كيفية بناء الفرد بناءا سـليما ليكون لبنة صالحة في صرح البناء الاجتماعي، ولكن بناء المجتمـع مع ذلـك يظـل محتاجـا إلى روابـط توثـق صـلات أفـراده وتقويهـا،

---

[1] د. زكي نجيب محمـود، المعقـول واللامعقـول في تراثنـا الفكـري، ط 3،بيروت،القاهرة: دار الشروق ، 1401هـ ـ 1981م، ص345.

[2] الغزالي، الإحياء، ج1 ،ص217 .

[3] الغزالي، منهاج العارفين، [ضمن القصور العوالي]، ص85.

فالمسلمون (كالبنيان يشد بعضه بعضا) [1]

وتنطق هذه الروابط في تصور الغـزالي من أسـس نفسـية، وتتفـرع إلى ظـواهر سـلوكية، وكلاهمـا ركن في تنميـة الروابـط وشدها وتوثيقها، وسنرى ذلك في هذا المبحث.

1 ـ الأسس النفسية للروابط الاجتماعية:

الظاهر عند الغزالي – كما عرفنـا سـابقا ــ عنـوان البـاطن، فكل سلوك ظاهري ينبع من حالـة نفسـية، ويسـتمد قيمتـه منهـا. وهـذا الأمـر ينطبـق على الروابـط الاجتماعيـة، فإنهـا تقـوم على أسس نفسية، عليها يتوقف صـدق العلاقـات الاجتماعيـة ومثاليـات الظواهر السلوكية، والغزالي يقسم الأسس النفسية الرابطــة بين أفراد المجتمع إلى قسمين:

الروابط المادية:

وهي الروابط المتعلقة بأغراض دنيوية محضة، فيكون التوجه في هذه العلاقات مرتبطا بالأغراض المادية يدوم بدوامها وينفصـم بانقطاعها، والغزالي يشبه المحبة الناشئة عنه أمثال هذه العلاقات بحب النــاس للــذهب والفضــة، فهي علاقــات تجاريــة تحكمهــا المصلحة، وتحدد سلوكياتها المنافع، ولكن حكمها مع ذلـك يـتراوح بين الذم والإباحة، فما كان المقصـد منـه مـذموما كمحبـة الأسـتاذ الذي ينال به الطـالب رتبـة العلم، وكـان مقصـده من العلم تـولي الولايات التي لايطلبها إلا لأغراض دنيئـة محرمـة، كطلب الجـاه أو حيـازة أمـوال اليتـامى أو ظلم النـاس فـإن ذلـك المقصـد محـرم مذموم، وأما إن كان المقصد مباحا، فإن تلك الرابطة تأخذ حكمه، فـ (إنما تكتسب الوسيلة والصفة من المقصد المتوصل إليه، فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها) [2]

ومـع ذم الغـزالي الشـديد للـدنيا واعتبارهـا الحجـاب الأعظم الحائل بين العباد وربهم [3] إلا أنـه يجـيز اجتمـاع محبـتين في قلب العبد: محبة الله ومحبة الدنيا، فـإذا أحب مثـل هـذا الشـخص آخـر لأنه توصل به إلى رضوان الله وإلى الكفاف في أمور الدنيا، (فهـو من المحبين في الله) [4]

ويستدل الغزالي لذلك بأن حب الدنيا مطبـوع في القلـوب لا

---

[1] البخاري، الجامع الصحيح،[كتاب الأدب]،ج1 ص150، رقم:459 .

[2] الغزالي، الإحياء، ج2، ص161.

[3] المرجع السابق، ص201.

[4] الغزالي الإحياء، ج2، ص202.

يمكن الإنفكاك عنه، والشرع لم يأمرنا بذلك كما قال تعالى مخبرا عن دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (البقرة:199)، وينقل دعاء المسيح عليه السلام: (اللهم لا تشمت بي عدوي، ولاتسؤ بي صديقي، ولاتجعل مصيبتي لديني، ولاتجعل الدنيا أكبر همي)، ويعقب عليه بقوله: (فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا، ولم يقل: ولاتجعل الدنيا أصلا من همي، بل قال: ولا تجعلها أكبر همي) [1]

ويستدل كذلك بطلب كل مؤمن السعادة في الآخرة، ورغبته في تحقيق مقاصده فيها، وما الدنيا والآخرة إلا حالتان إحداهما أقرب من الأخرى، فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا، ولا يحبها اليوم؟

أما ما ورد في ذم الدنيا فإن المقصود به ـ كما يرى الغزالي ـ الحظوظ التي تنافي حظوظ الآخرة وتمنع منها، أما الحظوظ غير المنافية كالزواج الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك، فليس فيها أي منافاة أو تضاد من حظوظ الآخرة، فلذلك لو أحب الرجل زوجته لحظوظ الدنيوية والآخروية كان حبه في الله [2].

ولا بأس من الإشارة هنا إلى قضية جوهرية في المنهج التصنيفي للغزالي أسيء يسبب الغفلة عنها تفهم مواقفه، وهي ما عبر عنه بقوله: (من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى، وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنبع على وجه يومئ عند الجاهل أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان. والعالم يدرك أن المقصود وسط)[3]

ولذلك فان الغزالي بعد ذكره للطوائف المغالبة في حب الدنيا ونقيضها المغالبة في بغضها ذكر الموقف الحقيقي نحوها، وهو (ماكان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لايترك الدنيا بالكلية، ولايقمع الشهوات بالكلية، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما خرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة)[4]

الروابط الروحية:

وهي العلاقة التي سماها الشارع ب (الحب في الله) وهو

---

[1] المرجع السابق، ج2، ص202.
[2] المرجع السابق، ج2، ص202.
[3] المرجع السابق، ج3، ص96.
[4] المرجع السابق، ج3، ص230.

كما يعرفه الغزالي (كل حب لا يتصور دون الإيمان بالله واليوم الآخر) [1]، وهو ينقسم بحسب ذلك إلى محبة عامة، وهي المحبة المطلوب بها نصيبا من المحبوب يوصل إلى الآخرة، وهي عند الغزالي درجة عموم المؤمنين، وأما الخاصة من المؤمنين، فمحبتهم في الله والله، دون أي حظ أو غرض.

وفي كلتا الدرجتين تكون علاقة الفرد بالمجتمع محكومة بضابط هذا الحظ الإيماني، وهو لا يتصور إلا لمن امتلأ قلبه بحب الله وذكر الآخرة، وصارت جوارحه تابعة لقلبه في همته، فتكون كل تصرفاته وسلوكياته وعلاقاته ومواقفه ناتجة عن همته، فإذا أحب التلميذ أستاذه ـ مثلا .لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل، وكان مقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهو من المحبين في الله، وكذلك إذا أحب الأستاذ تلميذه لأنه بسببه ينال شرف التعليم وجزاءه المعد له في الآخرة، وهكذا الذي يتصدق بأمواله لله، ويجمع الضيوف ويهيء لهم أصناف الأطعمة تقربا إلى الله، (فأحب طباخا لحسن صنعته في الطبخ، فهو من جملة المحبين في الله) [2]

وهذا الحب هو أقوى الروبط، وهو الذي وردت الآثار الكثيرة في فضله والثناء على أهله، وتتفاوت درجات هذا الحب بتفاوت العلاقة الوجدانية بين العبد وربه، لذلك لا يحيل الغزالي وجود مثل هذا الحب، ولو في عوام المؤمنين، فإنه (ما من محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين، أحدهما عالم عابد، والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته، ويحسب ضعف حبه لله وقوته)[3]

وذلك الميل النفسي هو المحبة نفسها، فالحب عند الغزالي هو (ميل الطبع إلى الشيء الملذ)[4]، وهو تابع للإدراك مرتبط به، وثمرة من ثمار المعرفة، فلذلك كانت الروابط بين المؤمنين عند الغزالي مرتبطة بالمعرفة والسلوك، فبقدر تزكية الإنسان لنفسه يقدر ما يحققه بالمحبة للمؤمنين، فهي علامة الصفاء النفسي والقرب من الله تعالى.

---

[1]) الغزالي، الأربعين في أصول الدين ، ص64 .

[2]) الغزالي، الإحياء، ج2، ص202.

[3]) المرجع السابق، ج2، ص165.

[4]) المرجع السابق، ج4، ص296.

ومثـل هـذه العلاقـات لا تنطـوي على أي أمـراض تخـرب المجتمعات أو تشيع فيها المظاهر الفاسدة، فليس فيها الحسد ولا الكـبر ولا الحقـد ولا مـا ينشـأ عنهـا من سـلوكيات مـدمرة لنفس الإنسان ومجتمعه، بل إن الفرد في علاقة (المحبة في الله) ـ كمـا يصوره الغزالي ـ يذوب في وسط إخوانـه ذوبانـا لا يمحـوه، وإنمـا يرفعه، ولايذله، وإنما يعزه.

وكما تساهم (المحبة في الله) كأساس نفسي في الربط بين المؤمنين وتوثيق الصلات الصادقة بين أفراد المجتمع وحمايتـه من كل الآثار السلبية الناتجة عن الاجتماع، فإن (البغض في الله) وهـو ثمرة أخرى من ثمار المعرفـة الإيمانيـة يـؤدي نفس الغـرض، وإن اختلـف مظهـر كليهمـا، فــ (البغض في اللـه) ضـرورة ناتجـة عن المحبة في اللـه، لأن (من أحب بسـبب فبالضـرورة يبغض لضـده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر) [1]

ويفرق الغزالي بين البغض الذي هو مظهر لمرض نفسي من حسـد أو حقـد أو غيرهـا، وبين (البغض في اللـه) النـاتج عن ولاء المرء التام لله، فيحب من أحب الله، ويبغض من أبغضه، ولو كـان أقرب الناس إليه؟

ولهذا يمكن أن يجتمـع في القلب الواحـد نحـو شـخص واحـد محبة وبغض، فالمسـلم العاصـي يحب لإسـلامه ويبغض لمعصـيته، فالبغض أو المحبة لا تتعلقـان بالـذات، وإنمـا بالعمـل، فـإن حسـن ازدادت علاقة المحبة وثوقا، وإن ساء ازداد البغض رسوخا.

وهذا ـ كما يرى الغزالي .ممكن في العادات، بل هكذا يتعامل الناس فيما بينهم فإن (من وافقـك على غـرض وخالفـك في آخـر [تكون معه] في حالة متوسـطة بين الإنقبـاض والاسترسـال، وبين الإقبال والإعراض، وبين التودد إليه والتوحش عنه) [2]

وبتأمل آراء الغزالي في (البغض في اللـه) نجـد أنهـا تسـاهم مساهمة كبيرة في تحويل الصلات بين المؤمنين إلا صلات إيمانيـة تربوية، لا مجرد علاقات وجدانية عاطفيـة ليس لهـا آثـار إصـلاحية، فـإن جميـع مظـاهر البغض في اللـه الـتي ذكرهـا الغـزالي ترتبـط بمدى إمكانية التأثير في العاصي الذي أبغض بسبب معصيته.

فمن تلـك المظـاهر مثلا قطـع المعونـة عن العاصـي وتـرك نصرته، وهذا قد يبدو مظهرا سلبيا ربما يساهم في قطـع الصـلات

---

[1] الغزالي، الإحياء، ج2، ص166 .

[2] المرجع السابق، ج2 ، ص167.

بين المؤمــنين والتفريــق بينهم، ولكن الغــزالي يعقب على ذلــك بقوله:(وليس يجب تركها [أي المعونة]، إذا ربما يكون لك نيــة في أن تتلطف بإعانتـه وإظهـار الشـفقة عليـه ليعتقـد مودتـك، ويقبـل نصحك، فهذا حسن، وإن لم يظهر لـك، ولكن رأيت أن تعينـه على غرضه قضاء لحق إسلامه، فذلك ليس بممنوع، بل هو الأحسن)[1]

2 ـ الظواهر السلوكية:

إن المظاهر السلوكية نتيجة حتمية للأسـس النفسـية تـترقى برقيهـا، وتـنزل بنزولهـا، وسـنكتفي بالحـديث هنـا على خمسـة سلوكيات اجتماعية يدعو الغـزالي بأسـاليب مختلفـة إلى رعايتهـا، وهي:

التناصح:

بما أن العلاقة بين المؤمنين هي علاقة الأخـوة في اللـه فـإن التناصح هو المظهر الأول لهذه العلاقة، فالمؤمنون يجتمعون بالله، ويتفرقون عليـه، وينقـل الغـزالي في هـذا المعـنى عن ذي النـون المصــري [2] قولــه: (لاتصــحب مــع اللــه إلا بالموافقــة، ولا مــع الشيطان إلا بالعداوة) [3]

وليس في هذا السلوك أي وحشية أو نفرة قلب، بل هو عين الشفقة والرحمة، لأن (من ينبهك إلى صفة مذمومـة اتصـفت بهـا لـتزكي نفسـك عنهـا كـان كمن ينبهـك على حبـة أو عقـرب تحت ذيلك، وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك)[4]

ولكن الغـزالي يفـرق بين المناصـحة الـتي تتعلـق بالمصـالح الدينية أو الدنيوية، وبين المناصحة الـتي هي عتـاب على التقصـير في الحقوق الأخوية، فإن الأفضل في الحالة الثانيـة هـو الاحتمـال والعفو والصفح والتعامي إلا إذا أدى اسـتمرار ذلـك إلى القطيعـة، فحينذاك يكـون (العتـاب في السـر خـير من القطيعـة، والتعـريض خير من التصريح، والمكاتبـة خـير من المشـافهة، والاحتمـال خـير من الكل)[5]

وذلك لأن الغزالي يرى أن دوام اتصال العلاقة بين المؤمــنين

---

[1] المرجع السابق،ج2، ص167 .

[2] هو أبو القبض ثومان بن إبراهيم ، من كبار الصوفية المتقدمين، مشهور بحكاياتـه في الحب الإلهي، تـوفي سـنة 140هــ، انظـر:ابن الجـوزي، صـفة الصفوة، ج2، ص460.

[3] الغزالي، الإحياء، ج2، ص182.

[4] المرجع السابق، ج2، ص183.

[5] المرجع السابق، ج2، ص183 .

المصلحة الكبرى التي ينبغي المحافظـة عليهـا، ولـو يتحمـل بعض المفاسد الفرعيـة الناجمـة عن هـذه العلاقـة إذا أدى إصـلاحها إلى ضرر على وجود العلاقة أو دوامها.

وبنــاء على هــذا الأصــل، يــدعو الغــزالي إلى الأخــذ بــآداب النصيحة، فلا يكون الباعث عليها إلا الشـفقة والرحمـة بالمنصـوح، ثم انتهاج الأساليب المناسبة لذلك، بـأن (تـذكر آفـات ذلـك الفعـل وفوائد تركه، وتخوفه بما يكرهـه في الـدنيا والآخـرة ليـترجر عنـه، وتنبهه إلى عيوبه، وتقبح القبيح في عينه، وتحسن الحسن)[1]

وذلفك كلـه في السـر، فالنصـيحة في العلن فضـيحة، وينقـل الغزالي عن الشافعي في ذلك قولـه: (من وعـظ أخـاه في السـر فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه) [2]

ولا يلزم الناصح أسلوبا واحدا لا يتعداه، بل يتلطف في النصح باختلاف أساليبه، فينصح بالتعريض مرة، وبالتصريح أخـرى، ولكنـه إن علم أن النصح لا يؤثر فيه، (وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه، فالسكوت عنه أولى) [3]

وهنا يفرق الغزالي بين المداراة المشروعة باعتبارها مصــدرا لدوام العلاقة بين المؤمنين، وبين المداهنـة المذمومـة، ويعـبر عن هذا التفريق بقوله: (إن أرضيته لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فـأنت مـدار، وإن أغضـيت لحـظ نفسـك، واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك، فأنت مداهن) [4]

وكمـا تتعلـق المناصـحة بـالقول تتعـدى إلى الفعـل، فالتـاجر النصـوح هـو الـذي يعامـل زبائنـه بالمناصـحة وعـدم الغش، يقـول الغزالي ذاكرا بعض آداب التـاجر: (أن يظهـر جميـع عيـوب المـبيع خفيها وجليها، ولا يكتم منهـا شـيئا، فـذلك واجب، وإن أخفـاه كـان ظالما غاشا، وكان تاركا للنصح في المعاملة، والنصح واجب)[5]

وهو يطيل في تفصيل كيفية النصـح في التجـارة والمعـاملات المالية، لما لها من آثار في العلاقات الاجتماعية، وفي تيسير حيـاة الناس، ولـه فيهـا كتـاب خـاص في الإحيـاء سـماه (آداب الكسـب والمعاش)

ومن تلك الآداب: ترك الثناء على السلعة بما ليس فيهـا، وأن

---

[1] المرجع السابق، ج2، ص182.

[2] المرجع السابق، ج2، ص182.

[3] المرجع السابق، ج2، ص183.

[4] المرجع السابق، ج2، ص182.

[5] المرجع السابق، ج2، ص75.

لا يجلس في طريق المسلمين، فيضيق عليهم، وأن لا يبخس في كيله، ولا ينقص في وزنه، وإذا وقف عليه شريف أكرمه، أو جار فضله، أو ضعيف رحمه، أو غير هؤلاء أنصفه [1].

والحاكم النصوح هو الذي يرفق برعيته، ويترك التعنيف والتكبر عليهم، ويتودد إليهم، مع مزج الرهبة لهم رحمة بهم [2]، ولا يكتفي برفع يده عن الظلم، بل يأمر نوابه وعماله بذلك، ويتشدد عليهم فيه، فإنه يسأل عن ظلمهم، كما يسأل عن ظلم نفسه [3].

والمعلم النصوح هو الذي يبدأ بصلاح نفسه، باعتباره قدوة لتلاميذه، ويلزم الصمت في جلسته، ويكون معظم تأديبه بالرهبة، ولا يحادثهم فيجرئون عليه، ولا يدعهم يتحدثون وينبسطون بين يديه، ولا يمازح بين أيديهم أحدا، ويتنزه عما يعطونه [4].

والقاضي النصوح هو الذي يمنع الحاشية من الفساد والطغيان، ويرفق بالأرامل، ويحتاط للأيتام، ويتوقف في الجواب، ويرفق بالخصوم، ولا يميل إلى أحد المتخاصمين [5].

وهكذا يختلف مظهر التناصح باختلاف الوظيفة، وكل فرد في المجتمع قائم على مصلحة من مصالح المسلمين، وتلك المصلحة في التي تفرض عليه السلوك الخاص بها، والضابط الكلي لذلك – كما ينص عليه الغزالي – هو (أن لا يحب لأخيه إلا ما يحبه لنفسه، فكل ما لو عومل به شق عليه، وثقل على قلبه، فينبغي أن لا يعامل غيره به) [6]

التآلف:

ويشمل كل الآداب الشرعية المؤلفة بين قلوب المؤمنين، والموثقة لعرى المودة بينهم، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال:63)

والغزالي يجمع الكثير من تلك الآداب من النصوص الشرعية

---

[1] المرجع السابق، ج2، ص74 ـ 79 .

[2] الغزالي، الأدب في الدين، [مجموعة المنقذ من الضلال]، بيروت، المكتبة الثقافية، ص133.

[3] الغزالي، التير المسبوك في نصيحة الملوك، [على هامش: شراج الملوك للطرطوشس]، ط1، مصر الطبعة الخيرية: 1306 ه، ص22.

[4] الغزالي، الأدب في الدين، ص111.

[5] المرجع السابق، ص133.

[6] الغزالي، الإحياء، ج2، ص75.

ويقيس عليها غيرها، وسنلخص هنا ما أمكن من تلك الآداب:

فمنها ما يسميه ب(السكوت)، وهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه، ويسكت عن الـرد عليـه فيمـا يتكلم بـه، ولا يماريــه، ولا يناقشــه، وأن يســكت عن التجســس والسـؤال عن أحوالـه إذا مـا علم أن ذلـك لا يرضـيه، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بـذكر غرضـه من مصـدره ومـورده، ولا يسأل عنه، لأنه ربما يثقل عليه ذكره، أو يحتاج إلى أن يكذب فيـه، وليسكت عن أسراره التي بثها إليه، ولا يبثها لغيره البتة، ولـو إلى أخص أصـدقائه، ولا يكشـف شـيئا منهـا، ولـو بعـد القطيعـة، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكايــة قدح غيره فيه [1].

ومنها التماس مايزيد أواصر المحبة الأخوية، وأولها إخبار الأخ بالمحبـة لقولـه ﷺ: (إذا أحب أحـدكم أخـاه فليخـبره) [2]، ويعقب الغزالي على هـذا الحـديث بقولـه: (إنمـا أمرنـا بالإخبـار لأن ذلـك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فـإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف)[3]

ومنها أن يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره، ويثني عليه بما يعرف من محاسـن أحوالـه، بـل يثـني على أولاده وأهلـه وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقـه وهيئتـه وشـعره وجميـع مـا يفرح به، وذلك من غـير كـذب وإفـراط، وأن يبلغـه ثنـاء من أثـنى عليه مع إظهار الفرح، فـإن إخفـاء ذلـك حسـد، وأن يشـكره على صنيعه في حقه، ويذب عنه في غيبته مهما قصد بسـوء، أو تعـرض لعرضه بتصريح أو تلميح.

ويجعـل الغـزالي الحـد الجـامع لهـذه المظـاهر وغيرهـا هـو (الإخلاص في الصــحبة)، ويفســره باســتواء الغيب والشــهادة، واللسان والقلب، والسر والعلانية، والجماعة والخلوة، ويعتبر ضده نفاقا، وينصح من كان كذلك بالانقطاع والعزلة لأن (حق الصحبة لا يطيقه إلا محقق، فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلى موفق) [4]

ومن علامات هذا الإخلاص الدعاء للأخ في حياتـه وبعـد موتـه

---

[1]) المرجع السابق، ج2، ص176 ـ 180.

[2]) الترمذي، السن،[كتاب الزهد]، ج4، ص599، رقم:2395.

[3]) الغزالي، الإحياء، ج2، ص181.

[4]) المرجع السابق، ج2، ص182.

بكل مايحبه لنفسه ولأهله، وكل ما يتعلق بـه، وينقـل الغـزالي عن محمد بن يوسف الأصبهاني [1] هذه الصورة الجميلة للأخ المـؤمن: (أين مثل الأخ الصـالح؟ أهلـك يقتسـمون ميراثـك، ويتنعمـون بمـا خلفت، وهو منفرد لحزنك، مهتم بما قدمت وما صرت إليـه، يـدعو لك في ظلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى)[2]

التسامح:

كما أن الجانب الإيماني من الأخوة يحفـظ بالتناصـح، وجـانب الترابط وتوثيق العلاقة يوطـد بالتـآلف، فـإن دوام الأخـوة يقتضـي التسامح والعفو وسعة الصدر فيما يعرض للأخوة من أزمـات تريـد فك أواصرها، ويـذكر الغـزالي لـذلك مـوقفين كلاهمـا يسـاهم في تحقيق معنى التسامح بين المؤمنين، هما:

1. الاحتمــال وســعة الصــدر والتمــاس الأعــذار القريبــة أو البعيـدة، وينقـل الغـزالي في هـذا المعـنى قـول بعضـهم: (ينبغي أن تسـتنبط لزلـة أخيـك سـبعين عـذرا، فلا تقبلـه، فأنت المعيب لا أخوك)[3]
2. قبول الاعتذار من الأخ مـع عـدم تعنيفـه، فـإن لم يتحقـق بذلك فقـد ورد الوعيـد الشـديد في بيـان إثم ذلـك، زيـادة على دلالتــه على قسـاوة القلب، فــإن القلــوب المؤمنــة رقيقة سمحة لا تحمل الأحقاد.

ولا يتعلق التسامح عند الغزالي بجانب العلاقة الأخوية فقــط، بـل يتعـداه إلى الجـانب الـديني نفسـه الـذي قـامت على أساسـه الأخوة، فالغزالي يرى أن عقد الأخـوة بين المؤمـنين يـنزل منزلـة القرابة، فإذا انعقـدت تأكـد الحـق، ووجب الوفـاء بمـوجب العقـد، ومن الوفاء أن لايهمل أخاه أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أخطــر من فقر المال[4].

زيادة على ذلك يؤكد الغزالي معنى إصلاحيا للتسامح، هــو أن الفاجر إذا صحب تقيا، وهو ينظر إلى خوفـه ومداومتـه، فـإن ذلـك يؤثر فيه، ويسـتحيي من الإصـرار [5]، فلـذا لا ينبغي أن يحجـر على

[1] هو أبو عبد الله محمـد بن يوسـف البنـاء، كـان من المتـديينين الأتقيـاء، كتب الحديث، توفي سنة 286ه، انظر ابن الجـوزي، صـفة الصـفوة، ج2، ص 294.

[2] الغزالي، الإحياء ج2، ص186.

[3] المرجع السابق، ج2، ص185.

[4] المرجع السابق، ج2، ص184.

[5] المرجع السابق، ج1، ص286.

مخالطة الفسقة في رأي الغزالي، والتفريق بين المؤمنين بسبب ذلك، بل يخالط تقيهم فاجرهم، ويتلطف لإصلاحه بما أطاق [1].

والغزالي ينقل –هنا – الخلاف الواقع بين السلف في ذلك، فقد ذهب أبو ذر إلى أن الإنقطاع عنه أولى، وقال في ذلك:(إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته) [2]، وذهب أبو الدرداء إلى خلافه، قال أبو الدرداء: (إذا تغير أخوك، وحال عما كان عليه، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة، ويستقيم أخرى)[3]

والغزالي ينتصر للرأي الثاني ويقويه بالآثار الكثيرة الدالة على ذلك، أما البغض الذي أمرنا الشرع به فيتعلق بأعمال العاصي لابذاته، ولذلك قال تعالى: فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (الشعراء:213)، قال الغزالي: (ولم يقل: إني بريء منكم، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب)[4]

التكافل:

وهو من أهم المظاهر السلوكية الدالة على صدق التآخي بين المؤمنين، ولا يقصد الغزالي بالتكافل – هنا – ما شرعه الله تعالى من زكاة أو صدقات أو تطوعات، فإن ذلك قد يسد بعض الحاجات، ولكنه يقصر عن الكثير منها وإنما يقصد قيام علاقات أخوية خاصة بين المؤمنين تجعل كل واحد منهم يشعر بالمسؤولية نحو أخيه في كل شؤونه المالية وغيرها، بحيث يقضي حاجياته بشعور أدائه واجبا لا نافلة أو تطوع، فعقد الأخوة كما يراه الغزالي مثل عقد القرابة وسائر العقود الشرعية يقتضي حقوقا يجب الوفاء بها.

ويضع الغزالي للتكافل المالي بين الإخوة ثلاث مراتب تتدرج بحسب الدرجة الإيمانية للمسلم، وأدنى تلك المراتب أن ينزل الأخ أخاه منزلة خادمه، فيقوم بحاجته من فضل ماله دون انتظار

---

[1] يفرق الغزالي في المخالطة بين تقي تغير حاله، فينصح بالدوام على مخالطته والتلطف بنصحه، وبين الفاسق ابتداء المصر على ذلك المجاهر به فيرى أن الإنقطاع عنه أولى (لأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها)، انظر: الغزالي، الإحياء، ج2، ص172.

[2] المرجع السابق، ج2، ص183.

[3] المرجع السابق، ج2، ص183.

[4] المرجع السابق، ج2، ص184.

سؤاله، وأعلى منها أن ينزله منزلة نفسه، فيرضى بمشاركته إيــاه في ماله، يأخذ منه ما يشاء، ويدع ما يشاء، وأعلاها أن يؤثره على نفسه، ويقدم حاجته على حاجته، وهذه الرتبــة كمــا يــرى الغــزالي هي مرتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين [1].

وهذه المعاملة المثالية لا تتعلق بالمال فقط، بـل تتعـداه إلى قضاء حاجاته والاهتمام بها، سـواء كـانت جليلـة أو دقيقـة، ويـروي الغـزالي في ذلـك عن بعض السـلف أنـه كـان يتفقـد عيـال أخيـه وأولاده بعد موته أربعين سـنة، يقـوم بحاجـاتهم، ويـتردد كـل يـوم إليهم، يمولهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه، ويسألهم: هل لكم زيت؟ هل لكم ملح؟ هل لكم حاجة؟ [2].

وينصـح الغـزالي أن لاتتخـذ هـذه الخصـلة الشـرعية سـلما للمطامع الشخصية، فلا ينبغي أن يكلف الأخ أخاه مـا يشـق عليـه، فلا يحمله من أعبائه إلا ما لم يطق منها، ولا يستمد منـه جاهـا ولا مالا، بل (لا يقصد بمحبته إلى الله تعالى تبركا بدعائـه، واستئناسـا بلقائـه، واسـتعانة بـه على دينـه، وتقربـا إلى اللـه تعـالى بالقيـام بحقوقه وتحمل مؤونته)[3]

وهكذا، بتوفر التكافل والعفة ترتقي الأخوة بين المؤمنين إلى أعلى درجات الصدق والإخلاص والوفاء.

التواصل:

يعتبر الغزالي التواصل بين المسلمين وحسـن الصـحبة معهم ركنا من أركان الدين، وأصلا من أصوله الـتي لايسـتغنى عنهـا، لأن الدين سفر إلى الله تعالى، ومن أركان السفر حسن الصـحبة مـع المسافرين [4].

وهذا المبدأ السلوكي العام يختلـف بـاختلاف المصـاحبين لأن الشـارع فـرق بين درجـات النـاس في المـودة والمعاملـة، يقـول الغـزالي: (وكـل مخالـط، ففي مخالطتـه أدب، والأدب على قـدر حقه، وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة)[5]

وبنـاء على مـا اعتـبره الشـارع من روابـط يقسـم الغـزالي

[1] المرجع السابق، ج2، ص173.
[2] المرجع السابق، ج2، ص175.
[3] المرجع السابق، ج2، ص188 .
[4] الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص56.
[5] الغزالي، الإحياء ج2، ص193.

درجات التواصل ويرتبها كما يلي:

القرابة:

وقــد أوجب الشــرع وصــلها واحترامهــا، وعلــق الكثــير من الأحكـام بهـا باعتبارهـا المجتمـع الأصـغر الـذي يتوقـف على مـدى تماسكه تماسك المجتمع الأكبر.

وأخص من حـق القرابـة (حـق الوالـدين)، ومن الآداب الـتي ذكرهـا الغـزالي نحوهمـا: (أن يسـمع كلامهمـا، ويقـوم لقيامهمـا، ويمتثــل أمرهمــا، ويلي دعوتهمــا ويخفض لهمــا جنــاح الــذل من الرحمة، ولا يبرهما بالإلحاح، ولا يمن عليهما بالبر لهما، ولا بالقيـام بأمرهما، ولا ينظر إليهما شزرا، ولا يعصي لهما أمرا)[1]

ومن آداب الوالد على أولاده أن يعينهم على بـره، ولا يكلفهم من البر فوق طــاقتهم، ولا يلح عليهم في وقت ضـجرهم، ولا يمن عليهم بتريته [2].

والغزالي يعتبر تربية الالأولاد من أعظم الواجبـات على الآبـاء باعتبارها أساسا لكل السلوكيات الـتي تظهـر على ذلـك الابن في صغره أو كبره، (فالصبي أمانة عند والديه، وقلبـه الطـاهر جـوهرة نفسية ساذجة خاليـة من كـل نقش وصـورة، وهـو قابـل لكـل مـا نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه) [3]، ولهذا وضـع فصـلا مهمـا في كتاب (رياضة النفس) لكيفية تربية الأولاد، وهو فصل في غاية الأهمية والابتكار كان للغزالي السبق فيه إلى الاهتـداء إلى الكثـير من الجوانب النفسية للطفل، وكيفية التعامـل معـه على أساسـها [4].

الزوجية:

وهي من العلاقات الـتي اعتبرهـا الشـارع وسـماها ﴿ مِيثَاقًـا غَلِيظًا﴾ (النسـاء:21)، وسـمى الزوجـة على أساسـها ﴿ الصَّـاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ (النساء:36)، وقد ذكر الغزالي الآداب الكثـيرة الواصـلة لحبل المودة بين الـزوجين، ومن آداب الرجـل مـع زوجتـه لطافـة الكلمة، وإظهار المودة، والبسط في الخلـوة والتغافـل عن الزلـة، وإقالة العـثرة، وصـيانة العـرض، وقلـة المجادلـة، وبـذل المؤونـة، وإكرام أهلها، وشدة الغيرة عليها [5].

---

[1] الغزالي، الأدب في الدين، ص132.
[2] المرجع السابق، ص132.
[3] الغزالي، الإحياء، ج3، ص72.
[4] د. محمود قاسم، دراسات فلسفية، ص103.
[5] الغزالي، الأدب في الدين، ص128.

ولما لغيرة الزوج من تأثيرات سلبية على كيان الأسـرة، فـإن الغزالي ينصح بالاعتدال فيها، وهو أن لا يتغافل الـزوج عن مبـادئ الأمور التي يخشى غوائلها، دون مبالغة في إساءة الظن وتجسس البواطن، يقول الغزالي: (أما الغيرة التي يحبها اللـه، فـالغيرة في الريبة، والغيرة التي يبغضها الله، فالغيرة في غي ريبة)[1]

ومن آداب المرأة نحو زوجها دوام الحياء منه، وقلة المجادلـة له، ولزوم الطاعة لأمره، والسكوت عنـد كلامـه، والحفـظ لـه في غيبته، وتـرك الخيانـة في مالـه، وطيب الرائحـة، ونظافـة الثيـاب، وإظهار القناعة، واسـتعمال الشـفقة، ودوام الزينـة، وإكـرام أهلـه وقرابته، ورؤية حاله بالفضل، وقبول فعله بالشـكر، وإظهـار الحب له عند القرب منه، وإظهار السرور عند رؤيته [2].

وهذه الآداب وغيرها تحـول بيت الزوجيـة الـذي هـو المجتمـع الأصغر إلى مستقر مودة وسكينة ورحمة.

الجوار:

وهــو من العلاقــات الــتي أوجبت الشــريعة وصــلها، فلــذلك يقتضي حقوقا زائدة على حقوق المسـلمين العامـة، كمـا قـال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخـر فليكـرم جـاره) [3]، ومن الآداب التي ذكرها الغزالي لحقوق الجوار أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام، ولايكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيـه في المصيبة، وغيرها[4].

عامة المسلمين:

ووصلهم يكون بمقتضى حـق الإيمـان، وحقوقـه كثـيرة منهـا: إفشــاء الســلام، وإجابــة الــدعوة، وتشــميت العــاطس، وشــهود الجنــازة، وبــر القســم، والنصــيحة، والــدعاء لــه بظهــر الغيب، والإخلاص في محبته [5]، وأولها عدم إيذاء أي أحـد من المسـلمين، فقد قال ﷺ: (المسلم من سـلم المسـلمون من لسـانه ويـده) [6]، وهذا الإيذاء يعم كل التصرفات الجارحة، ولو كانت مباحـة في حـد ذاتها.

---

[1]) الغزالي، الإحياء، ج2، ص46.

[2]) الغزالي، الأدب في الدين، ص129.

[3]) مسلم، الجامع الصحيح، [كتاب الإيمان]، ج1، ص68، رقم:67.

[4]) الغـزالي الإحيـاء، ج2، ص213، وانظـر:الغـزالي، الأدب في الـدين، ص 132.

[5]) البخاري، الجامع الصحيح،[كتاب الإيمان]، ج1، ص9، رقم 9.

[6]) الغزالي الإحياء، ج2، ص195.

وبهـذا التواصـل بين المؤمـنين يترسـخ عقـد الأخـوة الرابطـة بينهم، ويجعل من المجتمع الإسلامي بناء واحدا متكاملا متينا.

هذه هي الأسس التي يضعها الغزالي لبناء المجتمـع الصـالح، وهي أسـس متسلسـلة مترابطـة تبـدأ بـالفرد كلبنـة أساسـية في المجتمع، ثم تكون من الأفراد الأقوياء الصـالحين المجتمـع القـوي الصالح.

الخاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث أن نبرز جانبا هاما من فكر الغزالي، هو جانب الإصلاح الاجتماعي، والذي رأينا أنه كان هدفا أساسيا ملحوظا في جميع أعماله وتآليفه ومواقفه، ولأجل الغفلة عنه أسيء فهم الكثير من آرائه، ولعل أهم ما يبرز هذه الناحية من توجه الغزالي الفكري ما يلي:

1 ـ أن الغزالي قام بضبط فقهي تأصيلي لمنهج الإصلاح الاجتماعي يقوم على مقاصد الشريعة الكلية، وتغليبها على الآراء الفقهية المجردة عن الأدلة القطعية، مع إعطاء قواعد عامة لذلك حتى يحفظ أسلوب الإصلاح ووسائله وأهدافه ـ بوصفها عملا شرعيا ـ من تحكم الأهواء والعقول.

وبناء على ذلك قال بوجوب إيجاد علماء يجمعون بين العلم والتزكية تكون مهمتهم الخروج للعامة ودعوتهم وإصلاحهم، لا المكوث في المدارس والانشغال بالفروع الفقهية والكلامية أو المناظرات الجدلية، مع وجوب التكوين المتكامل لهؤلاء العلماء تربويا وعلميا.

وإيجاد مثل هؤلاء العلماء يستدعي إصلاح نظام التعليم باعتباره ركنا أساسيا في الإصلاح الاجتماعي ؛ والذي غلبت عليه في عصر الغزالي الحرفية والجزئية والتقليد، وذلك بنظام متكامل يشمل الجوانب الشرعية والواقعية، ويعيد لفروض الكفاية الغائبة قيمتها.

وهذه الشروط تبين العلاقة التي ينبغي قيامها بين العلم والإصلاح، فالإصلاح الشرعي الكامل ثمرة للعلم الصحيح، وهو كالشعائر التعبدية لا ينتقل المؤمن فيها من ركن إلى ركن إلا بناء على حكم شرعي، فالمصلح مقتد وتابع، لا مشرّعا.

واعتبار العلم ركنا أساسيا في منظومة الغزالي الإصلاحية يمكن إدراكه بسهولة، فقد قضى معظم حياته مدرّسا، وبنى في آخر حياته مدرسة، وسمى كتابه الذي ضمنه آراءه الإصلاحية (إحياء علوم الدين)، وابتدأ أول جزء منه بكتاب العلم، معتبرا العلم الصحيح الخطوة الأولى للمجتمع الصالح.

2 ـ أنه دعا إلى تعميق التعامل مع الكتاب والسنة بالفهم الصحيح،والتدبر الواعي، والتأثر الحي لما فيهما من الحقائق

الكبرى، لا مجرد الانشغال بظاهر التفسير والاكتفـاء بعلم الروايـة. فالكتاب والسنة ـ وإن لم يخلو من الرجوع إليهما جيـل من أجيـال المسلمين ـ إلا أن طريقة التعامل معهمـا هي المختلفـة، وهـو مـا يتفق فيه مع الكثير من المصلحين المحدثين.

3 ــ أن الغــزالي يــرى أن العقيــدة الإســلامية هي منطلــق الإصلاح الاجتماعي، فبدون إيمان لا يكـون صـلاح ولا إصـلاح، وقـد انتقد الطريقة الجافة في تبليغ العقيدة للنـاس، والـتي غلب عليهـا في عصره الطابع الكلامي والمنطقي، ودعا بدل ذلك إلى الإيمـان المــؤثر الــذي ينطلــق من العقــل والقلب ليغطي جميــع منــاحي الحياة، ورأى لحفظ العقيدة من الشبه والأهواء ضرورة تطور علم الكلام في كل عصر بحسب ما يجدُّ فيه من الفتن.

4 ـ اختار الغزالي التصوف منهجا للتربيـة الإصـلاحية، باعتبـار الصوفية ورثة للسلف الصالح في علم السلوك، وقـد حـاول إنقـاذ التصوف من البدع والخرافات والفلسفات التي حـاولت الالتصـاق به.

وفي نفس الوقت بسط الغزالي المفاهيم المعقدة لكثير من قضايا التصوف، والتي كانت محل إنكار من الفقهاء،وقد كان لذلك دور كبير في جعله أكثر شعبية، وهو ما يفسر لنا انتشـار التصـوف في المجتمع الإسلامي بعده بقوة.

5 ـ أنه اعتبر تزكية النفس وتخليصها من بـاطن الإثم أساسـا من أسس الإصلاح، لما لأمراض النفوس من أثر سلبي خطـير في تدهور المجتمعات وتفككها، وقد كان للغزالي دور كبير في إعطـاء العلاج المناسب لتلك الأمراض، والذي لا تـزال الحاجـة ماسـة إلى الاطلاع عليه، والاستفادة منه.

6 ــ أنــه يــرى أن على الحكــام القيــام بالإصــلاح وإعانــة المصلحين، باعتبارهم ركنا أساسيا في الإصـلاح الكامـل الشـامل، أمــا العلمــاء فــإن الأولى لهم في رأي الغــزالي هــو الابتعــاد عن أبــوابهم، والاســتغناء قــدر الإمكــان عن هبــاتهم حفظــا لعــزتهم وكرامتهم،وهذا ما يـبرر لنـا قيـام الأوقـاف في العصـور المتـأخرة بمصاريف العلماء ممـا سـاهم في اسـتقلالية التعليم والـدعوة عن السلطة.

7 ـ انتقد الغزالي الكثير من الظواهر التي تسببت في تفكـك وحدة المجتمع الإسلامي كالتعصب المذهبي أو الغلـو في التكفـير، وقد وضع البديل لذلك بالقول بصحة المـذاهب الفقهيـة جميعـا مـا

دامت تستمد من أصل واحد، وتضييق دائرة الكفر وضبط حدودها، وإشاعة مظاهر الترابط الاجتماعي من تكافل وتواصل وتآلف وغيرها، فالأخوة هي المظهر الكامل للعلاقة بين المؤمنين مهما اختلفت مذاهبهم وأعراقهم.

وقد لاحظنا أن الدراسات المهتمة بفكر الغزالي اختلفت نظراتها له بسبب عدم مراعاتها لبعد الإصلاح الاجتماعي في تفكيره ومواقفه؛ وهذا باستثناء بعضها كدراسة الدكتور سليمان دنيا عن (الحقيقة في نظر الغزالي)، فإن الصفة التي اجتمعت فيها شخصية الغزالي الفقيه والصوفي والمتكلم والفيلسوف هي الإصلاح، فلذا اختلفت آراؤه، أو بدت متعارضة تؤلّب عليه الخصوم،وتحيرهم في حقيقة مواقفه.

وهذا يفسر لنا ــ أيضا ــ الأسلوب الذي اختاره للتعبير عن أفكاره من كثرة التكرار في كتبه، وغوصه أحيانا إلى أعماق غامضة يصعب إدراكها، ونزوله أحيانا في تبسيطه إلى حد السطحية والسذاجة، واستعماله الكثير للأمثلة والشواهد، أو الأحاديث الضعيفة والقصص.. فهو يحاول أن يخاطب عامة الناس وخاصتهم،كل واحد بما يليق به من الأساليب.

ونرى هذا التنوع في أسلوب الطرح وموضوعه يكشف عن شخصية إصلاحية عميقة، لاعن شخصية قلقة محتارة ـ كما يزعم بعض الباحثين ـ لأن المصلح الاجتماعي يعالج أمراض مجتمعه، وهي مختلفة معقدة متشعبة، ولذا يظهر بمظهرها مختلفا ومعقدا ومتشعبا.

ولهذا نرى الغزالي الفيلسوف هو الذي ينقد الفلسفة، وينجح في الحد من غلوائها، ولو نقدها متكلما أو فقيها ما أثر فيها ذلك التأثير، فهو يدرك أن لكل مرض دواؤه الخاص به، وقد يصبح الدواء سما إذا لم يعط بالجرعات المناسبة.

وقد ظهر لنا الغزالي في هذه الرسالة بهذا المظهر: إنسان مؤمن حزين لما أصاب الدين في عصره، وما أصاب ممثليه من العلماء، فهو لذلك يمارس دوره في جميع الميادين: في العقيدة بتنقيتها من الأهواء والبدع والانحرافات، وفي التصوف بتبيين محاسنه ومساوئه، وفي سلوكات الناس بالبحث عن جذورها العميقة،وفي الملل والنحل بالرد عليها، والكشف عن أباطيلها..

وهو أثناء ذلك قد ينقل عن صـوفي أو فقيـه أو فيلسـوف من المعاني ما يراه مناسبا، فلذلك اتهم بالنقل،ورمي بالفلسفة،وشنع عليه بالتكرار والمبالغة.

وقد حاولنا أن نـبين إمكانيـة الاسـتفادة من آراء الغـزالي في إصلاح واقعنا الاجتماعي الذي يكاد يمر بنفس الظـروف الـتي مـر بها عصـر الغـزالي من ضـعف إيمـاني وانهيـار خلقي وتشـتت في الوحدة الاجتماعية وغفلة عن القضايا الأساسية.

ولعـل أهم نتيجـة لـذلك نطرحهـا ــ هنـا ــ هي الـدعوة إلى الاهتمـام بـتراث العلمـاء والاسـتفادة من تجـاربهم في إثـراء فقـه الدعوة، ونبذ التعصب الذي يبعث على تتبع عثرات العلماء وزلاتهم دون الاهتمام بما قدموا من خدمات للإسلام والمسلمين.

وكذلك دعوة المهتمين بالعمل الإسلامي إلى تركيز الجهود في العمل الاجتماعي بدل الغرق في المتاهات السياسية، فإصلاح المجتمع هو القاعدة التي ينطلق منها الإصـلاح في كافـة مجالاتـه، وما مر بهذه الأمة من تجارب، وما حاق بها من هزائم يثبت ذلك.

وفي الأخير، نأمل أن تؤدي هذه الرسالة بعض ما سعت له من أهــداف،وأن تكــون مســاهمة طيبــة في البحــوث المتعلقــة بالإصلاح الاجتماعي الـذي يهتم بدراسـة آراء العلمـاء والمصـلحين وتجــاربهم،و الاســتفادة منهــا، بــدل التفكــير العقيم الــذي يعــزل مواريث الأمة وخبراتها؛ فالأمة الـتي لا تسـتفيد من رجالهـا أمـة لا جذور لها، ولا قيام لأمرها.

نسأل الله تعـالى في نهايـة هـذا البحث أن يتجـاوز لنـا عن كل تقصير، وأن يغفر لنا كل زلـة، وأن يهبنـا من الفهم ويلقننـا من الحكمة ما نعتصم به من كل تقول أو دعوى.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولا . المصادر

وهي كتب أبي حامد الغزالي:

1. إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت.
2. الأدب في الدين، [مجموعة المنقذ من الضلال]، بيروت، المكتبة الثقافية.
3. الأربعين في أصول الدين، الجزائر: شركة الشهاب.
4. الاقتصاد في الإعتقاد، تحقيق عادل الغوا، ط1، بيروت: دار الأمانة، 1388ه.
5. بداية الهداية (مجموعة منهاج العابدين) مصر: مكتبة الجندي.
6. التبر المسبوك في نصيحة الملوك، [على هامش: شراج الملوك للطرطوشس]، ط1، مصر الطبعة الخيرية:1306 ه.
7. تهافت الفلاسفة، تحقيق موريس بويج، بيروت: دار المشرق.
8. رسالة أيها الولد (ضمن القصور العوالي)، القاهرة: مكتبة الجندي.
9. روضة الطالبين وعمدة السالكين، بيروت: دار النهضة الحديثة.
10. القسطاس المستقيم، تحقيق فيكتور شلحت، ط2، بيروت: دار المشرق، ص90، 91.
11. المستصفى من علم الأصول، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.
12. معارج القدس في مدارج معرفة النفس، باتنة: دار الشهاب.
13. معيار العلم،ط2 بيروت : دار الأندلس 1978.
14. معيار العلم،ط2،بيروت:دار الأندلس.
15. ميزان العمل، مصر: مطبعة كردستان 1328ه.

ثانيا . المراجع

1. ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، تحقيق : حسن السقاف، ط2، عمان: دار الإمام النووي، 1412 ـ 1992.
2. ابن الجوزي، صفة الصفوة، بيروت: دار الجيل.
3. ابن العربي، العواصم من القواصم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

4. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، القــاهرة: مكتبة القدسي،1350هـ.
5. ابن القيم، مفتاح دار السعادة ، بيروت: دار الكتب العلمية.
6. ابن جـزي، تقـريب الوصـول إلى علم الأصـول، ط1، الجزائـر: دار التراث الإسلامي 1410ه.
7. ابن حجـر، فتح البـاري، ط2، بـيروت : دار إحيـاء الـتراث العـربي، 1402.
8. ابن رشد، تهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيـا،ط2، القـاهرة: دار المعارف 1971.
9. ابن رشد، فصل المقال، مصر: دار المعارف.
10. ابن طفيـل، حي بن يقظـان، تحقيـق جميـل صـليبا وكامـل عبـاد، دمشق: مطبعة جامعة دمشق،1962.
11. ابن عجيبة، ايقاظ الهمم في شرح الحكم، بيروت: دار الفكر.
12. ابن عطـاء اللـه الإسـكندري، لطـائف المنن، تحقيـق: عبـد الحليم محمود،ط2، بيروت: دار الكاتاب اللبناني 1985.
13. ابن ماجـة، السـنن، القـاهرة: دار الكتـاب المصـري، بـيروت: دار الكتاب اللبناني.
14. ابن منظور، لسان العرب،بيروت : دار صادر، 1995.
15. ابن هشام، السيرة النبوية، القاهرة: مطبعة بولاق.
16. أبو الأعلى المودودي موجز تاريخ تجديـد الـدين وإحيائـه، الجزائـر: شركة الشهاب.
17. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، بيروت: دار مكتبة الحياة.
18. أبو نعيم، حلية الأولياء، ط1، القاهرة : مطبعة السعادة.
19. أحمـد حسـين، الطاقـة الإنسـانية،ط3، بـيروت: المكتبـة العصـرية 1970.
20. الآمدي، الأحكام، مطبعة المعارف، 1914م.
21. البارون كارادوفو، الغزالي ، ترجمة عادل زعيتر، ط2 ، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، 1984.
22. البخاري، الجامع الصحيح، المطبعة السلطانية.
23. بكري الشيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، بيروت: دار الشرق.
24. الترمذي، السنن، بيروت دار الكتب العلمية، ط1.
25. الجرجاني، التعريفات، بيروت: مكتبة لبنان 1978.
26. الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد بن عبد الحكيم القاضي، ط1، القـاهرة: دار الكتـاب المصـري، بـيروت:دار الكتـاب اللبنـاني،

1411ه ـ 1991م.
27. جلال الدين السيوطي، تدريب الـراوي شـرح تقـريب النـواوي،ط، مصر 1307هـ.
28. جمـال الـدين القاسـمي، قواعـد التحـديث من قبـول مصـطلح الحديث، دمشق: مطبعة ابن زيدون 1925م.
29. الحـاكم النيسـابوري، المسـتدرك، جيـدر آ بـاد: دار المعـارف العثمانية.1334ه.
30. حسـين مـروة، الترعـات الماديـة في الفلسـفة العربيـة الإسلامية،بيروت دار فارابي 1978.
31. الخطيب البغـدادي، الكفايـة في علم الروايـة، حيـدر آبـاد: دائـرة المعارف العثمانية، 1357ه.
32. الذهبي، تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية.
33. الزبيدي، إتحاف السادة المتقين شـرح أسـرار علـوم الـدين، دط، دت.
34. الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحقيق إبراهيم عكاشة، الجزائر: الشركة الجزائرية.
35. زكي مبارك، الأخلاق عن الغزالي، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية.
36. زكي نجيب محمود، المعقـول واللامعقـول في تراثنـا الفكـري، ط 3،بيروت،القاهرة: دار الشروق ، 1401ه ـ 1981م.
37. سعيد حوى، تربيتنا الروحية، الجزائر: مكتبة رحاب.
38. سـليمان دنيـا، الحقيقـة في نظـر الغـزالي،ط4، القـاهرة: دار المعارف.
39. الشـاطبي، الموافقـات في أصـول الشـريعة، القـاهرة: مطبعـة المكتبة التجارية.
40. الشعراني، الطبقات الكبرى، القاهرة: دار الفكر العربي 1952.
41. شمس الـدين المقدسـي، أحسـن التقاسـيم في معرفـة الأقـاليم، (ط)(ت).
42. شهاب الدين السهرودي، عوارف المعارف،(ملحق الإحياء).
43. صـبحي الصـالح، علـوم الحـديث ومصـطلحه، ط12، بـيروت: دار العلم للملايين، 1981.
44. صلاح الدين عبد اللطيـف النـاهي، الحوائـد من آراء حجـة الإسـلام الغزالي. ط1، بيروت: دار الجيل، دار عمار 1407هـ، 1987م.
45. عباس محمود العقاد، فلسفة الغزالي ضمن : المجموعـة الكاملـة لمؤلفاته، ط1،بيروت: دار الكتاب اللبناني 1978م.

46. عبد الأمير الأعم، الفيلسوف الغزالي إعادة تقـويم لمنحى تطـوره الروحي، ط2، بيروت: الأندلس،1981.
47. عبد الأمير شمس الدين، المـذهب الـتربوي عنـد ابن جماعـة،ط1، بيروت: دار اقرأ،1404ه،1984م.
48. عبد العزيز الدباغ، الإبريز، جمع ابن مبارك، القاهرة: مكتبة محمـد علي صبيح وأولاده.
49. عبد القـادر عيسـى، حقـائق عن التصـوف، ط4، عمـان: المطبعـة الوطنية، 1401ه ـ 1981م.
50. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة. البليدة: قصر الكتاب. 1990.
51. عبـد اللـه عنـان، عصـر المـرابطين والموحـدين في المغـرب و الأندلس ط1، القاهرة: لجنة التأليف والنشر،1964.
52. عبد المجيد الشرلولي، شرح الحكم العطائية، تحقيـق عبـد الفتـاح البزم،ك1، عين مليلة: دار الهدى 1991.
53. عبد الوهاب الشعراني، كشف الغمة عن جميع الأمة، مصر: مكتبة المشهد الحسيني، ط1.
54. عبد الوهـاب الشـعراني، لطـائق المنن والأخلاق، مصـر: المطبعـة الميمنية، 1321ه.
55. عبد الوهاب الشعراني، مـيزان مـذاهب الأئمـة الأربعـة، مخطـوط بمكتبة الأستاذ عمر محمد عبد الكريم بأولاد جلال.
56. علي سامي النشار، منهاج البحث عند مفكـري الإسـلام، القـاهرة: دار الفكر العربي 1947.
57. عمـار طـالبي، آراء بن بكـر العـربي الكلامـة، الجزائـر: الشـركة الوطنية للنشر والتوزيع.
58. فائز الحاج، نظرية سبق الوهم إلى العكس، ت،د،ط.
59. فيكتـور سـعيد باسـيل، منهج البحث عن المعرفـة عنـد الغـزالي، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
60. القرطي، الجامع لأحكام القـرآن،ط4، بـيروت: دار الكتب العلميـة 1988.
61. المـازري، المعلم بفوائـد سـلم، تحقيـق محمـد الشـاذلي الـنيفر، تونس: الدار التونسية للنصر 1978م.
62. محمد إبـراهيم الفيـومي، الإمـام الغـزالي وعلاقـة اليقين بالعقـل، القاهرة، دار الفكر العربي.
63. محمد الحميري، الروض المعطار، تحقيـق إحسـان عبـاس، لبنـان، دار القلم، 1975.

64. محمـد بن إسـماعيل الصـنعاني، توضـيح الأفكـار لمعـاني تنقيح الأنظار، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط1، القاهرة.
65. محمد بن علي الشـوكاني، إرشـاد الفحـول في تحقيـق الحـق من علم الأصول، بيروت: دار المعرفة، 1399ه،1979م.
66. محمـــد جلال شـــرف ،اللـــه والعـــالم والإنســـان في الفكـــر الإسلامي ،بيروت:دا ر النهضة العربية.
67. محمد شفيق، البحث العلمي،ط1، الإسـكندرية: المكتب الجـامعي الحديث، 1985.
68. محمـد عابـد الجـابري، بنيـة العقـل العـربي،ط3،بـيروت: مركـز دراسات الوحدة العربية 1990.
69. محمود قاسم، دراسات في الفلسـفة الإسـلامية، ط5، مصـر: دار المعارف،1973.
70. محمود قاسم، دراسـات في الفلسـفة الإسـلامية،ط5، مصـر: دار المعارف، 1973.
71. مسلم ، الجامع الصحيح، القـاهرة: دار الكتـاب المصـري، بـيروت: دار الكتاب اللبناني.
72. المنـــدري، الـــترغيب والـــترهيب، تحقيـــق محمـــد علي قطب،ط 1،بيروت: دار القلم 1992م.
73. منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، بيروت: دار العلم للملايين.
74. مهرجان الغزالي، إشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، مطابع كونستا توماس وشركاه.
75. وهبة الزحيلي، أصـول الفقـه الإسـلامي، ط1، دمشـق: دار الفكـر 1406ه، 1986.
76. وول ديـــورانت، قصـــة الحضـــارة، ترجمـــة زكي نجيب محمـــود، القاهرة، 1950.
77. يوسف فرحات، الفلسفة الإسلامية وأعلامهـا، جـنيف: ترادكسـيم، 1986.

هذا الكتاب

ظهر لنـا الغـزالي في هـذه الرسـالة بصـورة إنسـان مـؤمن حزين لما أصاب الدين في عصره، وما أصاب ممثليه من العلمـاء، فهو لذلك يمارس دوره في جميـع الميـادين: في العقيـدة بتنقيتهـا من الأهـواء والبـدع والانحرافـات، وفي التصـوف بتبـيين محاسـنه ومساوئه، وفي سلوكات الناس بالبحث عن جذورها العميقــة،وفي الملل والنحل بالرد عليها، والكشف عن أباطيلها..

وهو أثناء ذلك قد ينقل عن صـوفي أو فقيـه أو فيلسـوف من المعاني ما يراه مناسبا، فلذلك اتهم بالنقل،ورمي بالفلسفة،وشنع عليه بالتكرار والمبالغة.

وقد حاولنا أن نـبين إمكانيـة الاسـتفادة من آراء الغـزالي في إصلاح واقعنا الاجتماعي الذي يكاد يمر بنفس الظـروف الـتي مـر بها عصـر الغـزالي من ضـعف إيمـاني وانهيـار خلقي وتشـتت في الوحدة الاجتماعية وغفلة عن القضايا الأساسية.